روايات الهلال

محمد جبريل



# ما ذكره رواة الأخبار

## عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله

العدد ٦٥٣ - مايو ٢٠٠٣ - ربيع أول ١٤٢٤ هـ

# روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
**مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير
**مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير
**مؤمن حسين**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الامارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

عنوان البريد الإلكترونى :
darhilal@idsc. gov . eg

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

# ما ذكره رواة الأخبار

## عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله

بقلم :
**محمد جبريل**

●

ل

أصبحت لا أرجو ولا أتقى   إلا إلهى ، وله الفضل
جدى نبى، وإمامى نبى   ودينى الإخلاص والعدل

**الحاكم بأمر الله**

★★★

**قال المأمون لعامله على مصر** : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك ، وفعل عمالك . حملتم الناس مالا يطيقون ، وكتمتمونى الخبر ، حتى تفاقم الأمر ، واضطرب البلد .

★★★

" .. ومع أن جلالتكم تعلمون - بلا شك - كم ترتكب من المظالم فى جميع المجالات ، فإن ما يبقى شعبكم على ولائه لكم ، هو أنه لا يمكنه أن يتصور علم جلالتكم بكل شئ . وهو يأمل أن تضطركم القوانين التى أصدرتموها للحفاظ على سلامته ، إلى التعمق فى درس هذه القضايا المهمة " .

**من رسالة بوسويه إلى لويس الرابع عشر**

# التكـــــــوين

## - ١ -

قال رواة الأخبار إن الشيخ معتمد الدمنهورى صحا على توالى الطرقات، خافتة ، كأنما يشغلها ألا توقظ سكان البيوت المجاورة . تثبّت من الصوت . سبقت البسملة نزوله من السرير النحاس إلى أرضية الحجرة المغطاة بالحصير . تنبه ـ وهو فى السلمة الأخيرة المفضية إلى الصالة التحتية ـ أنه يرتدى ثيابه الداخلية . فكر فى أن يسحب عباءة مهملة على مسمار فى الحائط . لإمامة الجامع هيبتها التى يجب أن يحترمها . عادت الطرقات ، فبادر إلى فتح الباب . غابت ـ فى الظلمة المتكاثفة ـ ملامح الطارق . نسى إضاءة قنديل الباب الخارجى ، وكانت الحارة مظلمة تماماً ..

حدق ، فتبين التماعاً فى عينين يعرف صاحبهما ، قبل أن يخمن ، أو يتساءل ، أو يرحب ، فاجأته طعنة الخنجر . تلازمها صيحة هامسة :

ـ هذه هدية الحسن بن عمار ..

شق الخنجر أسفل البطن ، والجسد بطوله حتى أعلى الصدر . انبجس الدم نوافير متلاصقة ، وأعقب الشهقة المتألمة سقوط الرأس إلى الجانب ، واصطباغ الجسد والدائرة الواسعة من حوله بالدم ..

شرخت الصرخة الصمت السادر ، وإن لم تذبحه . مضت الخطوات مبتعدة حتى تلقفها السكون والظلمة . لم يشعر بما حدث حتى الخفير على باب الحارة ، أسند عصاه الهائلة إلى جانب الدكة ، وتعالى غطيطه ..

★★★

قال الرواة إن شومان بائع الخبز هو أول من رأى الجسد المتكوم بين ضلفتى الباب . أيقظت صرخاته حتى خفير الحارة الذى تلمست يده ـ بتلقائية ـ العصا المستندة إلى الجدار ..

أحدث قتل الشيخ الدمنهورى تأثيرات كان من الصعب ادعاء عدم رؤيتها، أو إهمالها : كسفت الشمس طيلة يوم مقتله ، واشتد البرق والرعد ، وتكاثفت السحب ـ فى وقت الصيف ـ وأمطرت ماء أسود ، وسقط رمل وتراب كالمطر ، وتكاثرت فى السماء النجوم ذات الذيل ، وانقذفت ـ فى ساحات القصور الفاطمية ـ حجارة حمراء كأنها اللهب ، وهبت من ناحية المقطم ريح سوداء محملة بالتراب ، وأعاد ابن عمار كوب الماء بعد أن تغير ما فيه إلى لون الدم ، وتناثرت على الأرض والجدران دماء لا أحد يدرى مصدرها ، وانطفأت الشموع ـ دون هبة هواء ـ فى بيعة مار جرجس ، ووضعت دجاجة فى بيت فلاح من إخميم بيضة نقش عليها " إن ربك لبالمرصاد " ، وولدت امرأة بناحية إطفيح طفلاً له ملامح قرد ، وارتفع فى ناحية فوة سحاب أمطر ناراً ، أحرقت مواضع ودوراً كثيرة . حتى المزروعات أتى عليها . وغلب مرض النوم جند الخليفة بما حير الأطباء وأعلنوا عجزهم عن مداواته ، وانقض مذنب هائل على مدينة قوص سمع لانقضاضه دوى ، واهتزت الدور والأماكن كأن زلزالاً أصابها ، وخسفت قرى من أعمال قنا بصعيد مصر ، وحدثت تصدعات فى معابد الكرنك ، وترامى من الخرائب والأبنية المهجورة صراخ ونحيب ، وأحرقت الصواعق أشجاراً ونخيلاً فى جيزة مصر ، أعدادها بالمئات ، وهال الناس خسوف القمر . اشتدت ظلمة الليل ، وعلت الدعوات والابتهالات ، وخرج الأطفال يقرعون الطبول والصفائح ، ويرددون . يا بنات الحور .. سيبوا القمر ينور..

الشيخ معتمد الدمنهورى ..

توزعت الأسئلة والأجوبة . انخرطت فى المفاجأة والدهشة والذهول . تشابكت التخمينات ، واختلطت . لبواعث ما حدث ..

ألف الناس إعلان موت أحد الأمراء . يخمنون أنه قتل بأيدى أعوان

خصومه من الوزراء والأمراء وقادة الجيش . الصراعات المعلنة ، والمستترة ، باب إلى حمامات الدم . الشيخ الدمنهورى لم يكن يحب عشرة الحكام ، ولاصلة له بقيادات الحكم . أيامه كأنها الورقة التى أعيد نسخها : صحوه فى صلاة الفجر ، وسعيه إلى جامع الأزهر القريب . يعود إلى بيته فى حارة الديلم فلا يغادره حتى أذان الظهر . يسرع فى خطواته إلى الجامع ليؤم المصلين . حلقته فى الجامع الأزهر تدور على خمسة عشر عموداً لكثرة الطلبة الذين قصدوه للإفادة من علمه . ربما تردد ـ بعد ذلك ـ على سوق الوراقين . يقرأ فى جديد المخطوطات حتى صلاة العصر . يمضى إلى جامع القرافة ، فيؤم المصلين ، ويعود إلى البيت . ينشغل ما بين صلاتى المغرب والعشاء بتلاوة القرآن ، وكتب الفقه والسنة وتاريخ الصحابة والأولياء . ركعات الشفع والوتر ـ عقب صلاة العشاء ـ آخر ما يودع به يومه . يمضى إلى سريره تسبقه غمغمات بالبسملة والحوقلة والمعوذتين ..

حزن الناس عليه لما وصلهم من برّه وعطفه . عرف عنه ميله إلى التفريج عن المكروبين . وكان عفيفاً عن المحارم ، متقياً فى نفسه ، ولا يري إلا صالح الناس . لم يكن يرد السائلين ، ولا يتعلل بظروف تمنعه من مد يد المساعدة . ظل ـ حتى قتل ـ عف اللسان ، لا يأذن للانفعال أن يغلبه . ربما تلقفت أذنه ما يكره سماعه ، فلا يتغير على صاحب القول ، أو يكتم انفعاله . صورته عند الناس وهو يجلس على بساط ، وتحته سجادة ، وبين يديه ـ وهو يستقبل القبلة ـ مصحف يتلو منه بأربع عشرة رواية . تجرد من نفسه ومصالحها ، فجسده فى الأرض ، وقلبه فى السماء . ترك فضول زينة الدنيا ، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يعد أيامه ، وعد نفسه من الموتى ..

عرف عنه ميله إلى العزلة ، والتزام الخلوة ، فلا يختلط بالناس إلاّ لأداء الفرائض ، أو لضرورة ، مع إظهار التواضع ولين الجانب . يشارك فى أمور الدنيا بقدر ما يطلب منه فى قضايا الدين ، يعيب التماس الدنيا بعمل

الآخرة ، والتفقه لغير الدين ، وأفعال أصحاب البدع ، والآفات الباطلة ، والمجاهرين بالمعاصى ..

لمْ يكن يصدر إلا عن رأيه . عظاته تحض على التذكير بالله ، وعلى العمل بقواعد الدين ، وتخويف الناس من يوم الحساب ، وإن تحدث فى معانى العدل ، وواجبات الحكام ، وحقوق المحكومين ، وكان يأمر الوزراء والأمراء وكبار رجالات الدولة ـ فى خطبة الجمعة بجامع القرافة ـ بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويصدع بالنكير عليهم ..

اجتذبت مجالسه الوعظية انتباه الناس ، حتى إنهم كانوا يغلقون دكاكينهم فتخلو الأسواق فى بين القصرين والنحاسين والشماعين والقناديل والشارع الأعظم ، ويفرغون لسماع ما يقوله من الفوائد والكلام الحسن ..

تردد على مجلسه فى جامع القرافة ، العشرات من القضاة والمؤدبين والمعلمين والمشايخ والعدول والقراء والنساخ وأهل البلاغة والفصاحة . يلتفون حوله فى نصف دائرة داخل الجامع ذى الزوايا المربعة ، والأروقة على الجانبين ، المنارة العالية ، والباب ذى المصطبة العالية ، والأبواب المصفحة بالحديد ، المتباينة الألوان . موقعه خارج القرافة الكبرى ، بعيداً عن أسوار القاهرة ، تخميناً بغيابه عن النظرات المترصدة . هى مقبرة الخاصة والعوام من أهل مصر ، ممتلئة بالأضرحة والمشاهد والمساجد والأربطة ، وتتصل بالقاهرة بالبنايات والقصور الجميلة ، لكنها تظل بعيدة عن مدينة الحكم ، وإن أقيمت فى الجامع صلاة الجمعة ، وخرج له فى ليالى الوقود مقرر من الزيت ، وشملته صدقات الجوامع والمساجد والزوايا ، وأقيم فيه سماط ليالى الوقود ، وله كذلك صدقة للفقراء ، وأهل الربط التى حوله ..

القاعة واسعة ، أرضيتها من الرخام المعشق ، الأبيض والأسود ، تتناثر فوقها السجاجيد العجمية والحشايا ، ويتداخل الزجاج في سقفها ، يعكس أضواء القناديل الموزعة ، فيهب إحساساً بالسحر . تتوزع في رحابتها أرائك ومقاعد مزينة بالعاج والمرجان ، وصناديق مزدانة بنقوش الذهب ، وتتدلى من السقف ثريات هائلة محمّلة بقناديل الفضة . وتزدان الجدران والأسقف بالفسيفساء والنقوش والزخارف والمرايا والخشب المذهب . ينثر الخدم ماء الزهر والورد على رءوس الحضور ، ويتضوع أريج العود والصندل والعنبر . وثمة فرقة موسيقية تعزف ألحاناً خافتة على الربابة والعود والناى والقانون والصنج ..

وضع الوزير الحسن بن عمار على رأسه عمامة كبيرة زرقاء ذات طبقات، ينزل طرفها فيدور حول الحنك ، وارتدى عباءة من الحرير الأحمر ، مطرّزة بخيوط الذهب . وأحاط وسطه بطوق ذهب مرصع بالجوهر ، وتدلى من جنبه سيف بمقبض ذهبى ، ودس قدميه في مركوب مزيّن بفصوص اللؤلؤ ..

قال رواة الأخبار إن الخليفة العزيز بالله منح ولاية عهده لابنه أبى على منصور ، منذ كان طفلاً فى الثامنة . توفى العزيز بالله فى بلبيس . كان قد وصل إلى بلبيس على رأس قواته ، يصحبه ابنه أبو على منصور ، لدرء خطر غزو الروم للشام . لما أحس بدنو الأجل ، وعليه الخرق والضماد ، استدعى ابنه المنصور . وكان حدثاً دون الثانية عشرة . ضمه إليه وقبّله :

ـ واغمّى عليك يا حبيب قلبى ..

ودمعت عيناه :

ـ امض يا سيدى والعب .. فأنا فى عافية ..

أردف وهو يمسك نفسه من الانفعال :

ـ امض يا سيدى والعب ، فأنا فى عافية ..

وانشغل الصبى باللعب ، حتى أتاه نداء برجوان وهو فى أعلى جميزة كانت فى الدار :

ـ انزل .. ويحك .. الله الله فينا وفيك ..

نزل أبو على منصور . وضع برجوان العمامة بالجوهر على رأسه ، وقبل له الأرض ، وقال :

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ..

دفعه برجوان بترفق ـ على هذه الصورة ـ إلى حيث يقف الناس . أدركوا ما حدث ، فقبلوا الأرض ، وسلموا عليه بالخلافة ، ولقب الحاكم بأمر الله . ظل المنصور ساكناً بما لا يحدث في مثل سنه ..

قال الرواة إن موكب الخليفة ، الحضرة الشريفة ، العترة ، الباب الذى عن طريقه تصل الشفاعة للمؤمنين من الله ، الحاكم بأمر الله ، مضى ـ فى اليوم التالى ـ من بلبيس إلى القاهرة ..

الموكب هائل ، فخم ، تظلله رهبة الموت وأبهة الخلافة . وضع جثمان الأب على ناقة . من ورائها الخليفة الابن . على رأسه المظلة شعار الفاطميين ، يحملها زيدان الصقلبى ، وبين يديه البنود والرايات . ارتدى زى الخلفاء ، وتقلد سيفاً ، وأمسك برمح فى يده ، ومن حوله القادة والأمراء والوزراء والكتبة ومئات الجنود ..

دخل الموكب القاهرة عند مغيب الشمس . استقبله الناس خارج باب النصر بالتكبير ودعوات المغفره للخليفة الراحل . أشرف المنصور على تغسيل أبيه ، وتكفينه ، ودفنه . ثم أعد نفسه لمراسم البيعة ..

قال الرواة إنه قد نُصب للخليفة الصبى فى صباح اليوم التالى ، فى الإيوان الكبير ، سرير من الذهب ، عليه مرتبة مذهبة ..

دخل إلى الإيوان راكباً ، يرتدى البياض ، اللون الذى يعارض به الفاطميون لون السواد العباسى ، وعلى رأسه معممة مشدودة بما لا يصنح إلا مع الخليفة الفاطمى ، هى التاج الشريف ، مرصعة بالجوهرة اليتيمة ، تتوسط جواهر أخرى من الياقوت الأحمر . الناس وقوف فى صحن الإيوان . قبلوا الأرض ، ومشوا بين يديه ، حتى جلس على العرش . حضر فى الليلة السابقة تجهيز أبيه ، وغسل قاضى القضاة محمد بن النعمان لجثمانه ، ودفنه عشاء في تربة الزعفران إلى جانب أبيه المعز ..

سلم الناس على الخليفة الحاكم بأمر الله بالإمامة ، وباللقب الذى اختير. ونودى فى القاهرة والبلدان أن الأمن موطد ، والنظام مستتب ، فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال ..

أول ما أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله ـ عقب اعتلائه كرسى الحكم ـ إقرار بتعيين محمد بن النعمان في القضاء ، وأن يوكل إليه أمر الدعوة ، والصلاة بالناس نيابة عن الخليفة أمير المؤمنين . ثم أصدر الخليفة سجلاً أخر بوراثته الملك عن أبيه الخليفة العزيز بالله . وتضمن السجل وعداً من أمير المؤمنين الحاكم بحسن النظر إلى الرعية ، وإعلاناً بإسقاط بعض المكوس التى كانت بالساحل :

قال الرواة إن العزيز بالله أوصى بولده الصبى ثلاثة من أهم رجاله : برجوان الصقلبى ، خادمه وكبير خزانته ، الحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة ، القبيلة المغربية الأهم ، وسند الدولة الفاطمية منذ بواكيرها ، ومحمد بن النعمان قاضى القضاة ..

لاحظ الحسن بن عمار وبرجوان آن قاضى القضاة محمد بن النعمان آل

إليه الكثير من أمور الدولة ، عقب إعلان سجل أمير المؤمنين بإقراره فى المنصب . هو الذى تولى غسل الخليفة الراحل ، وأوكل إليه أمر الدعوة ، والصلاة بالناس نيابة عن أمير المؤمنين ، وقراءة ما يصدره أمير المؤمنين من سجلات ..

كان ابن عمار وبرجوان يتنافسان فى السيطرة على أمور الحكم . بدت إزاحة المنافس الثالث لازمة . جرت المراسلات بينهما فى هذا الاتجاه ..

## - ٣ -

قال الرواة إن المغاربة أجبروا الإمام الحاكم بأمر الله على اختيار الحسن بن عمار للوساطة . تخلفوا عن البيعة ، وأصروا على أن يعفى الوزير عيسى بن نسطورس من منصبه ، وأن يوكل الأمر لواحد منهم ، وهو ما كانت وصية العزيز - فى تأكيداتهم - قد رتبته ..

تسلم الحسن بن عمار التقاليد من أمير المؤمنين ، ولقّبه الإمام بأمين الدولة . أدرك الخاصة والعامة مدى السلطات التى أتيحت للحسن بن عمار..

قال الرواة إن عبد القادر السلاب دخل على الحسن بن عمار ، بعد أن خلف وراءه الكثير من الدروب والعطوف المظلمة . جعل ابن عمار من داره مركز الحكم ، فى حارة كتامة ، إلى الجنوب الشرقى من الجامع الأزهر ..

- هل انتهى الأمر ؟..

قال السلاب :

- إنه يلقى عظاته الآن على أهل الآخرة ..

سأل ابن عمار :

ـ أنا لا أشفق على موت الشيخ ، وإنما أسأل : لماذا الحرص على قتله ولم يكن له مشاركة فى مسائل الحكم ..

لم يكن الحسن بن عمار يحب المغامرة ، وإن أقدم على مغامرة ، فلابد أن تكون محسوبة . عرف عنه وفاؤه للخليفة العزيز بالله . عمل على استرضائه بالهدايا والتحف يوصي باستجلابها من بلاد بعيدة ، وبالدعوة للخليفة على المنابر ، وفى الأسواق والميادين والتجمعات ، وفرد أسمطة ـ باسم الخليفة أمير المؤمنين ـ حافلة بالمآكل الفاخرة والفاكهة والحلوى ..

بنى للخليفة ، الحضرة ، منظره هائلة في ناحية المقس للنزهة وللإشراف على الاحتفالات ، ووداع الجيش فى حملاته إلى خارج البلاد ..

عنى ـ منذ تولى المملكة الحاكم بأمر الله ـ باستعادة ما كانت تحظى به كتامة من مكانة طيبة . عشرون ألف فارس أتوا من القيروان فى خدمة الخليفة المعز لدين الله . بالإضافة إلى خمسة عشر ألف فارس من بلاد المصامدة بالمغرب . عمل الوزير ابن كلّس على مقاومة كتامة ، وإضعاف نفوذها ، فجعل ابن عمار همه تسويد كتامة . قطع معظم ما كان مخصصاً لأولياء الدولة من الأتراك ، وأوقف صرف العطايا للمشارقة ، ودفع بأحداث المغاربة إلى وظائف الدولة . عزل المصريين من معظم الوظائف ، وقتل أعداداً كبيرة منهم . أحل المغاربة فى وظائفهم ، وفرق الأموال على طوائف المغاربة . تعاظم نفوذهم على حساب الطوائف الأخرى . أساءوا معاملتهم ، وأهمل الوزير ما أقدموا عليه من اعتداءات على أبناء البلاد وأبناء الطوائف . فلجأ الكثير منهم إلى الشام . قرّب كتامة ، وولى شيوخها الوظائف المهمة ، وأهدى أكابرهم الكثير من جوارى قصر الإمام ، وأعتق جوارى أخريات ادعاء بتوفير النفقة ، فرق الكثير من جوارى القصر ، وباع آلاف الجوارى والخدم ، وأعتق البعض ، وبدّل أوضاع البعض فصرن من الجوارى . وقطع أكثر ما فى المطابخ ، وباع الكثير من الخيل والبغال والنجب وغيرها ..

وجد فى موت العزيز ، وصغر سن الحاكم ، ما يدفعه إلى السيطرة على الدولة والقصر . شغله إضعاف سلطة الحضرة ، وتجريده من قوته . فى باله ما فعله ابن كلس من إضعاف نفوذ الخليفة العزيز حين كان فى الوزارة . حاز ابن كلس من كل شئ أعلاه . وبرك للخليفة ما دون ذلك ..

اتخذ لقب الوسيط ، بمعنى أن أمير المؤمنين جعله وسيطاً بينه وبين الرعية ، وفوض إليه أمور الدولة . أهمل اقتحام شيوخ كتامة مجلس الحضرة ، والتهديد برفض خلافة المنصور وقتله ، ما لم يبعد المشارقة ، ويعهد إلى شيخ كتامة أبى محمد بن عمار بأمر الحكم . اتخذ ابن عمار لنفسه كذلك لقب أمين الدولة ، فهو يقضى بما يرى أنه الصواب ، وما يحتاج إليه العباد والبلاد . رد إلى نفسه أمر المظالم بمصر والأقاليم . الكافة من الأمراء والأجناد والولاة والقضاة والكتاب لا يصدرون حكماً إلا بعد مطالعته بذلك ..

آلت إليه مصائر الشئون . غلب نفوذه على كل نفوذ فى الدولة ، وصارت له الكلمة العليا . تضاءلت مكانة أمير المؤمنين بجانب مكانته ..

أذن لنفسه بأن يدخل القصر راكباً ، ويغادره بالهيئة نفسها . واتخذ حجرة مجاورة لحجرة أمير المؤمنين ، وألزم كل من يمر ، أو يقف ، فى طريق موكبه ، أن يترجّل له ، وخص أعوانه بعطفه ورعايته .

قبض بيديه على كل سلطان ، وصرف الأمور بما يراه ، وأشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة . زاد فخص نفسه بما يتميز به حتى عن مقام الحضرة . صار الخليفة الفعلى ، وتوارى الحضرة فى الظل . وكان إذا خرج للنزهة ، أو للتمشى فى حدائق القصر ، يغيب العمال عن أعلى الأشجار . من يضبط فى موقع مرتفع يواجه القتل ، فارتفاع المكانة للوزير وحده ..

كان يعرف صلة القاضى على بن النعمان بالخليفة العزيز ، فأبطل جلوسه للقضاء . أمر ، فدس السم للقائد التركى أفتكين . أزاح عدواً

أجهدته عداوته . أفلح في السيطرة على الجيش ، وقتل أمراء الدولة ، وصادر أموالهم ، وأوقع بين كبار الكتبة ، فالمعارك بين أعوانهم لا تنتهى ، وزادت المؤامرات والاغتيالات . قضى على كل من توهم منافسته ، حتى عيسى بن نسطورس قيل إنه قتل بتدبير منه ..

جمع كل الخيوط في يده . لم يعد يرجع إلى وسيط ولا كاتب ولا صاحب رأى . عين أبا عبد الله الموصلى فى الكتابة ، وأنابه عنه فى أخذ شكايات الناس ورقاعهم وتوقيعاتهم .

أشاع أعوانه أنه يملك قوة روحية خارقة ، لا يدرك أسرارها غيره ، وأنه أفلح ـ بإجادته السحر ـ فى أن يتسلط على البشر والحيوان والطير . وأفلح ـ بما يملك من علم وقدرة على التخمين والاستنتاج والتنبؤ ـ أن يعرف حجم الأرض والبحر ، ويحصى نجوم السماء . وقيل إن بساطه السحرى المجدول من ألياف ، ينتمى إلى عوالم غير مرئية . كان ينقله ـ فى يوم واحد ـ إلى الشام والحجاز ، يطمئن على أحوال رعية الإمام ، ويكشف تدابير خصومه . وكان يدعو إلى الحفلات التى يقيمها أنواع الحيوان والطير والزواحف والشياطين والجان والأرواح ..

قال السلاب :

ـ تعددت زياراته إلى الحضرة ، وخلت قاعة الحكم إلاّ منهما ، لا يأذن السلطان لأحد بالدخول حتى يخرج الشيخ .. اجتثتنا خطراً لا نعرف ملامحه !

تبودلت الهمسات بأن ابن عمار ـ لا سواه ـ الحاكم الفعلى للبلاد ، لا يستشير سوى نفسه ، ويرفضُ الآراء المخالفة . استبد بالأمور . تحكم فى القصر والدولة . توارى الإمام فى الظل ، فهو بلا حول ولا قوة ..

كانت له قدرة على التأثير فى محدثه ، ربما تدفع البعض إلى تغيير آرائهم ، واعتناق آراء مغايرة ..

قال الرواة إن الحضرة الحاكم بأمر الله أهدى وزيره ابن عمار - مع خلع الوزارة - خمسين ثوباً من البز الرفيع ، وفرساً عليها سرج مذهب . نسى ابن عمار وضعه بالقياس إلى وضع أمير المؤمنين . اتخذ من دار الإمارة موضعاً يدير منه أمور الوزارة . تضم عدة قاعات ومساكن وحديقة واسعة ، وتنقسم إلى قسمين رئيسيين : دار الحرم ، ودار السلام . يصلها بالجامع عند المقصورة ، بجوار المحراب والمنبر . أما الخاصة والعامة الذين يقصدونه لمسائلهم ، فيدخلون من الأبواب الجانبية والخلفية ، كل حسب مكانته ووضعه..

أسرف في محاولاته لإضعاف القصر ، وتعالى على رجال الدولة والشعب . كان يحرص على الأبّهة في موكبه ، فالأمراء والعلماء وقادة الجند يذهبون إلى داره للسلام عليه ، أو ينضمون إلى موكبه فى سيره إلى قصر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، والعودة منه . يتقدم موكبه الأعلام والطبول والأبواق . من حوله الحجاب ورجال الحاشية والحرس الخاص . يلزمون كل من تصادفِ ركوبه دابة ، أن يترجّل ، ويأخذ جانب الطريق ..

لم يفرق بين العامة والخاصة ، ولا بين الغوغاء والوجهاء والعلماء والأمراء وقادة الجند . لم يلزم نفسه بدخول القصر من الباب المخصص له ، ولا يدخل مترجّلاً ، وإنما يدخل على جواده من الباب الذى يجلس فيه خدم الحضرة الخاصة ، حتى باب الحجرة التى فيها أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله . ينزل ، ويدخل للقاء الحضرة . إذا انتهى اللقاء ، يركب ثانية . يمضى إلى داره ، يحيط به الحراس والأعوان . يجد - أمام الباب المغلق - جماعات من الفقهاء والعلماء والمتكلمين والتجار والقواد وأرباب الصنائع . يفتح الحجاب أبواب الدار . يمضى إلى الداخل . يستقرّ فى مجلسه وقتاً قبل أن يأذن لشيوخ كتامة وللقواد - فى البداية - بالدخول ، يدخل من بعدهم العامة وأرباب الحرف . يترك يده فيقبلونها . يلخص له الكاتب أو الحاجب ما يسرده الناس ، فيسهل عليه إصدار الحكم ..

كتب اسمه فى المكاتبات بعد اسم أمير المؤمنين ، ونقش اسمه ولقبه على الملابس الرسمية ، وصكّ اسمه على النقود ، ونقشه على البنايات كالمساجد والمدارس والجسور وغيرها . حاول المداراة بإضافة عبارة " عبد أمير المؤمنين " ..

اتجه إليه الأدباء والشعراء بمؤلفاتهم وقصائدهم ، فهو - فى يقينهم - صاحب السلطة الحقيقية والقوة المسيطرة ..

صارت لابن عمار الكلمة العليا فى إدارة البلاد ..

لم يكن الولاة يتصرفون إلاّ عند أمره . وكانت توضع على مكتبه - كل صباح - أوراق من القاهرة والولايات . تتحدث عن سير الأمور ، وما طرأ من مفيد وضار . رصد الجواسيس وكتبة التقارير والعيون . تفرقوا فى الدروب والأسواق والجوامع والمساجد والزوايا والقرافة والمجالس والمواخير ودور القمار وأماكن التجمعات . يطلعونه على الأقوال ، والشائع من الأخبار ، وما يتهامس به الناس . يرصدون التصرفات والسكنات واختيار العزلة والذوبان فى الجماعة ، لا يهملون شيئاً ، مهما يبدو صغيراً ، أو بلا قيمة . صارت كل أحاديث الولاة والكتبة والقادة وسائر الرعية فى أذنيه ، قبل أن ينقضى النهار ، مهما تكن تافهة ..

قال الرواة إن من دخل أقبية قصره ، لم ير النهار ثانية . وكان يدفع إلى معارضيه من الأمراء والعلماء والوجهاء بمن يدس السم فى طعامهم ، يستصدر أحكاماً بزندقتهم من قاضى القضاة ، يأمر من يقذف بكرات اللهب فى باحات قصورهم ، فتأتى النيران على كل ما فى القصر . وكان يضع معارضيه من العوام فى خزانات الماء المغلى ، فى قبو أسفل القصر . يصب الزئبق فى عيونهم ، يحشو جراحهم - بعد ضربات السياط - بخرق الملح . تعلو ملامحه نشوة وهو يشاهد تقلصات الوجوه وتوالى الصرخات . وكان يحرص على أن يراقب عمليات الإعدام فى بقعة الدم ..

خصص لنفسه بيتاً ، تطل مشربياته على المكان . يعرّف المشاعلى باسمه، وبثوبه الأسود ذى القطعتين ، والحذاء الأسود . يتابع عملية الإعدام منذ يساق المحكوم عليه من داخل الأقبية والسجون ، حتى يفصل السيف رأسه عن جسده ، مخلّفاً نثاراً من الدم ، وبقعاً . يشاهد ، ويعطى الأوامر ، ويبدى الملاحظات ، ويظهر انتشاءه . لا يغادر موضعه حتى يأتى الجند ، فيحملون الجثث . يمضون بها إلى المقابر . تدفن بلا صلاة عليها ، ولا طقوس من أى نوع . وكان يلقى بالناس أحياء من أعلى الجبل . يظلون بلا دفن ، تتناوشهم الكواسر ، فلا يبقى سوى عظام هشة ، تختلط بتراب المقطم ..

أمر الحسن بن عمار أعوانه ، فسرت الشائعات فى الأسواق بأن الشيخ معتمد الدمنهورى كان يقصد بعلمه الرياء والمباهاة والسمعة ، وأن العلم كان سبيله إلى الدنيا . اتهمته الهمسات بإفشاء أسرار المجالس الخاصة فى قصره ، وإذاعتها بين الناس فى الشوارع والأسواق وخلف الجدران ، وأنه كان يسرف فى التزين ليحلو فى أعين النساء القادمات لسماع الوعظ ، أو للصلاة ..

قرر المكوس الباهظة على التجار والحرف . من يدفعها يشترى روحه ، ومن يتقاعس أو يتردد ، فإن سيف المشاعلى جاهز ، وبقعة الدم لا ترتوى ، وكثرت اعتداءات موظفى ابن عمار وأعوانه ومن استمالهم من الزعر والحرافيش . نهبوا البيوت ، وسلبوا الأموال ، وروّعوا الآمنين ، وأعملوا فيهم الأذية والقتل . تزايدت أعداد المسمّلة أعينهم ، والمبتورى الأذرع والسيقان ، والمقطوعى الألسن . تناثروا فى الحنايا والزوايا ، أو لزموا البيوت ، أو لاذوا بالخلاء ..

رفع الناس شكاياتهم إلى مقام الإمام عن طريق ابن عمار ـ لم يكن ثمة طريق سواها ـ فأهمل معاينتها ، والتحقيق فيها ، وتقديمها . أغمض عينيه

عن أذية أعوانه على آحاد الناس وجماعاتهم . وبلغ تعظيمه لنفسه حد رفض التخلص من الخليفة الحاكم بقتله . لا رأفة بالخليفة ، أو خوفاً من النتائج ، وإنما استصغاراً لشأنه . وجد فى صغر سن الخليفة باعثاً لقتله . يصبح هو سيد البلاد والعباد ، وتدين له مطلقاً مقاليد الأمور . حجر على الإمام الطفل، وقلص دوره ، ونقل الدواوين ، وعطل الكثير من رسوم الدولة ..

ومضت الفكرة فى رأسه لقول شيوخ من أصحابه : لا حاجة لنا إلى إمام نقيمه ونتعبد له . بدا الولد ـ فى عينيه ـ أصغر من أن يؤبه له ..

قال :

ـ وما قدر هذه الوزغة حتى يكون منها ما نخاف ؟!.

ثم ألقى بالسؤال لنفسه :

ـ لماذا لا أقتل الجرز الصغير قبل أن يصبح أسداً ؟!..

ـ ٤ ـ

الإيوان الكبير ، فى القصر الكبير . قاعة مسقوفة بقبوة ، تدلت منها ، ومن الجدران ، آلاف القناديل والشموع ، وتوزعت فى الأركان مباخر العود والعنبر . تفضى إلى بهو بعقد مقوس نصف دارى . سدت نهايتها بجدار ..

خرج أمين الملك ـ بعد أن اطمأن أمير المؤمنين فى مجلسه ـ إلى الأمراء والوجهاء وأصحاب العمامة . أعلمهم ـ ليقفوا إجلالاً ـ بجلوس الإمام على سرير الملك . ثم أشار إلى زمام القصر وزمام بيت المال . رفع كل منهما جانب الستر ..

بدا أمير المؤمنين أبو على منصور الحاكم بأمر الله متكئاً على الشباك . يظل فى مجلسه محجوباً بستر ، لا يرفع إلا عند اكتمال الحضور . تحوطه شارات الخلافة : الخاتم ، البردة ، العمامة ، القضيب ، ثياب الخلافة ، الأعلام الملونة . سرير الملك يشغل عرض القاعة ، ارتفاعه أربعة أذرع ، مغطى بالذهب الإبريز من جهاته الثلاث ، ومرصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر الأنواع والألوان .

استفتح المجلس قراء الحضرة بتلاوة آيات من القرآن الكريم ..

سرير الملك ، تحت مرتفع من الذهب ، عليه مرتبة ذهبية . وضع أمير المؤمنين على رأسه عمامة التاج الشريف ، رصّعت فى مُقدمتها بالجوهرة اليتيمة ، تحيط بها فى هيئة حافر ، جواهر من ياقوت أحمر . يقف من له رسم الوقوف ، ويجلس من يؤذن له بذلك ..

كان ابن عمار يحرص على أن تظل لأمير المؤمنين شاراته وأحواله التى تقتضيها الأبهة والبذخ . يختص بها ، ويتميز عن الخواص والعوام وأصحاب العمائم وأرباب الأقلام والسيوف ..

لم يعد الناس يذكرون - ولا أمير المؤمنين نفسه - اسم المنصور . هو الخليفة الحاكم بأمر الله ، أول إمام فاطمى ولد فى مصر ..

قال الرواة إن وعى أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، كان أكبر من سنه . يلحظ ، ويتأمل ، ويستخلص العبر . أذاه ما نقله إليه خدمه من الهمسات التى تنعى تضاؤل سلطة أمير المؤمنين أمام سلطان ابن عمار ، وتضخم نفوذه . هو صاحب الحل والعقد والأمر والنهى والتحكم بالديار المصرية ..

بدا أبو على منصور الحاكم بأمر الله ، داخل القصور الفاطمية ، كالمحجور عليه ، ألعوبة فى يد الوزير . يضع ابن عمار توقيعه على مراسيم يصدرها ، ويولى من ينفذ أهواءه ، ويعزل من يرفضها . الحسن بن عمار باب مغلق فى طريق مستقبل الحاكم ، عليه أن يفتحه ..

قال الرواة إن حداثة سن الحضرة لم تحل دون أن يكون أحرص الجميع على تحقيق العدل والمساواة بين أبناء المملكة ، وميله إلى إقامة الحدود ، وإعزاز الدين ، ومجانبة الأهواء ، وإن ذابت أوامره فى ألاعيب ابن عمار ووسطائه وكتابه ، يفوتونها ، يزورونها ، يتحايلون عليها ، فلا تنفذ ..

أبو محمد الحسن بن عمار ، شيخ كتامة ، وسيدها ، أول من تلقب من رجال الدولة . قرب إليه شيوخ كتامة . ولاّهم الوظائف المهمة . قلل من شأن الأتراك والديلم ، وحجب عنهم الفرص . زاد ، فأساء معاملتهم . ألجأهم للهرب إلى الشام ..

هل كان تحريض ابن عمار وراء دخول مقدمى كتامة على الخليفة الحاكم بأمر الله ، وفرض تولية شيخهم أبى محمد بن عمار الوزارة . لقّبه ـ كما طلبوا ـ بأمين الدولة . الشائعات تتهامس بها الأفواه . تصل إليه فى القصر، يتأملها ، يفكر فى رد فعلها المناسب ..

شمل المكان بعينين تطمئنان إلى جلوس العلماء والوزراء والأمراء ، كل فى مكانه . اتجه إلى الحاجب بنظرة متسائلة :

ـ أين الوزير الحسن بن عمار ؟

قال الكاتب عبد الغنى مرزوق :

ـ اعتذر بحمى مفاجئة ..

قال فى نبرة صارمة :

ـ هاتوه ، ولو فى صحبة طبيب ..

ـ ٥ ـ

قال الحضرة :

ـ من الذى قتل الشيخ الدمنهورى ؟

فاجأ السؤال الحسن بن عمار ..

سكت بمفاجأة السؤال .

قال صاحب الشرطة العليا :

- هل مات الشيخ معتمد الدمنهورى ؟

قال ابن عمار :

- لعله فى خلوة ..

ثم فى لهجة معتذرة :

- إنه - كما تعلمون - يميل إلى الاختفاء والظهور ..

وسّط الإمام الهواء براحته :

- الرجل أبعد ما يكون عن الادعاء فى أى شئ ..

وداخلت صوته ارتجافة :

- وهو قد قتل ..

قال ابن عمار :

- أعد مولاى بأن أدفع بالجانى إلى بقعة الدم قبل أن يأتى الصباح ..

- لا يشغلنى إعدامه .. أريد اسمه ، ولماذا ارتكب فعلته ..

لون ابن عمار صوته :

- كان اشتغال الشيخ بالدين سبيله إلى مآرب أخرى ..

كان ابن عمار قد خصص جندياً يرتدى زى العوام ، يتجسس على أفعاله ، فلا تغيب لحظة من لحظات حياته . يبلغه بما يراه فى نهاية كل يوم، ما يخمّن خطورته ينقله إليه لحظة وقوعه ..

ـ أعرف الرجل .. كان طاهر العلن والسريرة ..

استقبل عينى الإمام الغاضبتين بنظرة هادئة :

ـ مولاى .. هذا ما ينسبه كل امرئ إلى نفسه ..

صرخ الإمام :

ـ هاتوا الجانى أمامى قبل أن تسلموه إلى المشاعلى ..

أراد ابن عمار أن يقول شيئاً . تراجع أمام النظرات المشتعلة فى عينى الإمام ..

صفق أمير المؤمنين إيذاناً بانتهاء المجلس . تلا قراء الحضرة آيات من القرآن للختم ، ثم أرخى الستر ثانية على مجلس أمير المؤمنين ..

قيل إن ابن عمار لجأ إلى وسائل المنجمين فأثروا فى نفس الإمام ، وغيروا خاطره على الشيخ معتمد الدمنهورى . وجد فى قتله عقاباً يستحقه . وقيل إن الإمام أظهر الرضا ، وإن أضمر ما لم يبح به لأحد ..

بدا الحزن على جميع الناس ـ بعد مقتل الشيخ معتمد الدمنهورى ـ وعزّى بعضهم بعضاً . كثر الآخذون لطريقه ، وانتشروا فى أرجاء البلاد . لم يقتصر وجودهم على الفسطاط والقاهرة ، وإنما نقلوا كلماته إلى الناس فى المدن والقرى البعيدة ..

قيل إن الشيخ أفتى بقتل الحسن بن عمار . وجد فى أقواله وتصرفاته مروقاً عن الدين ، فأحل الخلاص منه . هو ساحر ، والسحرة ملعونون فى القرآن ، واتهمه بأنه يبيع الولايات ، ويعزل الولاة ، ويعيدهم إن دفعوا ما يسد عينه ، ويغرى على سائر الرعية من استمالهم من الزعر والحرافيش ، للاعتداء على حرماتهم ، وسلب ما يمتلكون . تعددت أعمال النهب وانتهاك الحرمات . صار من المألوف أن يغادر المرء بيته ، فلا يعود إليه . يقتله ، أو يغيب فى المجهول ، من لا يتكلمون ، أو يفصحون عن هويتهم ..

تهامست الاتهامات بأن الفاطميين ليسوا ـ كما يزعمون ـ من آل البيت ، بل هم من الزنادقة والملاحدة ، وإن استتروا بالدعاوى الكاذبة . عادت بهم بعض الهمسات إلى أصول يهودية أو مجوسية . أنكرت نسبتهم إلى على وفاطمة . أرجعوا نسبتهم إلى ميمون القداح . فارسى ، مجوسى ، من الأهواز . تظاهر بالإسلام والتشيع لآل البيت . أودعه المنصور سجن الكوفة. لما خرج زعم أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . ثابر على دعوته حتى نجحت فى عهد أولاده الخلفاء الفاطميين ..

أدانت الهمسات ما يفعله أعوانهم من قطع الطرق على المارة ، وترويع الآمنين ، وإظهار الفسق ، ونهب ما بأيدى الناس ، وما فى الأسواق والدكاكين . انتشرت المنشورات التى تلغى النسب الفاطمى ، وتطعن فى أصول الخلفاء الفاطميين ، وشرعية الإمامة التى يدّعونها ، وأنهم بلا ذكر فى الأصول والفروع ، وما أوهموا به العوام من أنهم نسل على بن أبى طالب أباطيل تغيب عنها الصحة ..

تكررت المزاعم بأن الخليفة الحاكم بأمر الله وريث قوم من اليهود أو المجوس اندسوا على الإسلام ، ليفسدوه وينقضوه ، فهو قد عنى باجتثاث الدين الإسلامى من جذوره ، وقتل أعداداً كبيرة من الفقهاء والأئمة والمحدثين والصالحين ، قرئ البيان العباسى ، وما أشار إليه من أن " هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبوار والدمار ـ ابن معد بن إسماعيل بن محمد بن سعيد ـ لا أسعده الله ـ وأن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس ـ عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين ـ خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وإن ما ادعوه من الانتساب إليه زور وباطل ، وإن هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللإسلام جاحدون . أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمور ، وسبّوا الأنبياء ، وادعوا الربوبية " . قسوة الكلمات تنقص منها ، ولا تضيف إليها . تسمها بالزيف والافتعال . قيل إن من وقعوها أكرهوا على توقيعها ، أو أنهم ليسوا على علم بمسائل النسب والتاريخ ..

رسم أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو على منصور ـ فيما بعد ـ سجلاً قرىء فى الجوامع والأسواق : " .. فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين ‹ لا إكراه فى الدين › . مضى أمس بما فيه ، وجاء اليوم بما يقتضيه . الصلاح والإصلاح بين الناس أصلح ، والفساد والإفساد بينهم مستقبح ؛ إلا من شهد الشهادتين أحق أن لا تنفك له عروة ، ولا توهن له قوة . يحى على خير العمل يؤذن المؤذنون ولا يؤذنون ، ويخمس المخمسون ، ويربع المربعون فى الصلاة على الجنائز ، ولا يعترض أهل الروية فيما هم عليه صائمون ، ولا يشتم السلف ، ولا يبغى الخلف على من قبله خلف . تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون . معشر المؤمنين ، نحن الأئمة ، وأنتم الأمة ، عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، " إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم تعملون "

- ٦ -

## المهدية ..

المهدية نسبة إلى المهدى . المهدى هو القائم بأمر الله سعيد الخير . سمّى نفسه المهدى ، حتى ينطبق عليه الحديث القائل " يخرج من صلبى من يكون اسمه كاسمى ، واسم أبيه كاسم أبى ، يملأها عدلاً كما ملئت جوراً " ، وإن راجت مزاعم أن عبيد الله المهدى كان ابنا لجارية من جوارى جعفر الصادق . وكان أبوه رجلاً يهودياً أحبها ، ونام على فراشها . دعا المهدى لأبنائه الواحد تلو الآخر ، فلم يبق منهم أحد ..

عبيد الله المهدى الإمام الظاهر الأول ، أمير المؤمنين . أظهره الله بالحق ليمتلك أبناء فاطمة الأرض جميعاً . سمى خلافته العلوية والفاطمية ..

حرص الفاطميون ـ بعد عبيد الله ـ على لقب الخلافة . اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاد على ، وإن خرجت فبظلم . خلافة الفاطميين وحدها هى الأجدر بالطاعة من جميع المسلمين . أعدوا ـ فى ضوء المعتقد ـ للسيطرة على أملاك العباسيين فى الشرق ، وأملاك الأمويين فى الغرب . غزوا مساحات هائلة من أراضى المغرب ، واستولوا عليها . وقال المهدى :

ـ لنملكن أنا وولدى ولد العباس ، ولتدوسن خيولى بطونهم ..

المهدية عاصمة الفاطميين من قبل أن يقود جوهر الصقلى قوات المعز لدين الله إلى مصر . شيدها المهدى فى العام الثالث بعد الثلاثمائة للهجرة . على طرف الساحل الشرقى لإفريقية . فوق جزيرة تتصل بالبر ، كأنها كف تتصل بزند ..

تأمل عبيد الله موضع الجزيرة المتصلة بالبر . وجد راهباً فى مغارة ، فسأله :

ـ بم يعرف هذا الموضع ؟..

قال الراهب :

ـ إنه جزيرة الخلفاء ..

اجتذب الاسم عبيد الله ، فأزمع أن يتخذها داراً لملكته ..

أمضى الإمام المهدى شطراً هائلاً من حياته فى القضاء على ما لقيه فى المغرب من مشاغبات وفتن ، وفى بناء المدينة الحصن ضد هجمات المغيرين . بنى بها قصراً كبيراً ومسجداً جامعاً ودار صناعة وإهراءات ، وجلب إليها الماء الجارى من قرية " ميانش ، يصب فى صهريج داخل المدينة ، ناحية الجامع . يرفع الماء ـ بالدواليب ـ من الصهريج إلى القصر . نقر ميناءها فى الصخر ..

قال وهو يشاهد اكتمال بنائها :

ـ اليوم أمنت على الفاطميات ..

لم تكن المهدية مدينة فى أول الأمر ، مثلما لم تكن القاهرة مدينة حين أنشئت . بنيت المدينتان كحصنين فى البداية . تحولت كل منهما ـ شيئاً فشيئاً ـ إلى عاصمة لدولتها ..

انتقل عبيد الله إلى المهدية بعد خمسة أعوام . ظلت مدينة المواجهة ضد هجمات البيزنطيين . يفدون من جنوب إيطاليا ، ومن صقلية . جاوز الفاطميون المدافعة ، فسيطروا على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ومدوا نفوذهم على جزيرة صقلية ، وأخفقوا ـ مرات كثيرة ـ فى فتح مصر ..

لم تعد دولة الفاطميين ـ منذ بنائها ـ تخشى خطر الأغالبة والأدارسة فى المغرب ، ولا الأمويين فى الأندلس ، والعباسيين فى بغداد . لولا المهدية ، المدينة ، الحصن ، ما قامت لدولة الفاطميين قائمة ، أو لاندثرت بعد سنوات قليلة من نشوئها .

قال الرواة إن الثورات المغربية وضعت حلم الدولة الفاطمية فى دائرة المستحيل . توالت ثورات البربر ، والثورات التى لقيت تأييد السنة من أهل المغرب . بدت مصر بوابة تحقيق ما يتطلع إليه الفاطميون فى المشرق . توالى حملات المهدى إلى مصر يعنى الإفادة من ثرواتها فى تحقيق أهداف الخلافة ، وفتح الشام ، وامتلاك الحجاز ، والمضى فى الطريق إلى العراق ..

قبل وقت صلاة المغرب ليلة الثلاثاء النصف من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، توفى أبو محمد عبيد الله بالمهدية . أخفى ابنه أبو القاسم ما حدث لمراجعة الأمور ، والإعداد للخطوات التالية ..

أفلح العباسيون فى صدّ هجمات الفاطميين ، وتقلص ملكهم فى المغرب بتلاحق الثورات . لم يعد إلا مدينة المهدية التى أنشأها الإمام الفاطمى الأول عبيد الله المهدى ، فى أول خلافته ..

هل هو الجد الأعلى للفاطميين ؟ وهل ينتسب المهدى إلى آل البيت ؟ وهل المهدى هو الإمام الشرعى ، أو أنه حل ـ متنكراً ـ فى منصب الإمام ، لما أسكت الموت الإمام الحقيقى ؟

لم يحاول الفاطميون ذكر نسبهم : كيف ينكشف أولئك الذين سترهم الله؟ .

رفع المعز سيفه ، عندما سئل عن نسبه ، وقال :

ـ هذا نسبى ..

ونثر على السائلين قطعاً من الذهب ، وقال :

ـ هذا حسبى .

ليست الفاطميين تسميتهم الوحيدة . هم فاطميون نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة النبى ، وزوج الإمام على . ثمة تسمية العلويين نسبة إلى على بن أبى طالب ، وثمة الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصداق . صلة القرابة ببيت الرسول من نسل فاطمة الزهراء والإمام على هى مبعث التسميات كلها . حتى تسمية الشيعة لأنهم شيعة الإمام ..

قبل أن يصل جيش الفاطميين إلى الإسكندرية . يمضى منها إلى الجيزة، ويعبر النيل ، ليضع ـ فى الليلة نفسها ـ أساس مدينته القاهرة ، كان المغرب هو مهد الدولة الفاطمية واستمرارها . دام ملك المهدى فى هذه المنطقة أربعاً وعشرين سنة . لما توفى فى العام الثانى والعشرين بعد الثلاثمائة للهجرة خلفه ابنه القائم ، ثم خلف القائم ابنه المنصور ، وخلف المنصور ابنه المعز . وفى عهده نقل الفاطميون ملكهم إلى مصر ..

قال الرواة : ثمة العشرات من أشياع أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله زاروا المهدية . قطعوا الصحراء من جيزة مصر إلى الإسكندرية ، منها عبروا الصحراء بين مضارب وخيام وقبائل وواحات وقرى ومدن حتى

طالعتهم رائحة البحر . البحر يحيط بهم من ثلاث جهات . وثمة سور من الحجارة الصغيرة يحيط بها ، يمتد إطلالها على البحر . له ـ من الغرب ـ بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار . تبدو منيعة ، ومحصنة ، بأبراج مدورة ومربعة . من جانب البرج حائط يخترقه الباب ، ومن الجانب الغربى باب زويلة ، أو باب الفتوح ..

وقى السور المهدية هجمات كثيرة ، بحرية وبرية . يمتد فوق البرزخ الذى يصل المهدية بالبر ، وفوق الردم الذى أضاف إلى مساحة الأرض من البحر ، تدعمه أبراج كثيرة . فيها القصور العديدة لأبى سعيد وبقة وقاساس والغيطنة ، وفيها الأسواق والحمامات ، لكل طبقة سوق خاصة بها ، وفيها الصهاريج ، والمياه الجارية ، وأقبية المؤن . على مقربة منها مدينة زويلة باسم قبيلة البربر التى تواليه . بينها وبين المهدية مصلى العيدين ..

بنيت المهدية أول ما بنيت فى حدود غلوة سهم . ظلت عاجزة عن أداء دور العاصمة . أمر المهدى بتوسيع مساحتها . ردم البحر مقدار المدينة ، وأدخله فيها . فاتسعت ، وبنى موضع ما ردم الجامع الكبير ، ودار المحاسبات ، وبيوت الجند والناس ، والأسواق ، والحمامات ، ودكاكين التجار ومخازنهم ، ومساكن التجار وأصحاب الحرف والفلاحين ، فيخف العبء عن المهدية ، ولتعزل بين الناس والمرافق . بين المدينتين قدر طول ميدان ..

قال المهدى :

ـ إن أموالهم عندى وأهاليهم هناك ، فإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية ، خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بينى وبينهم سوراً وأبواباً ، فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً ، وبين حرمهم نهاراً ..

أفلحت ثورة أبى يزيد ، صاحب الحمار ، فى هزيمة جيوش القائم بأمر

الله فى معظم المعارك ، لكن حصار أبى يزيد استمر على المهدية ثمانية أشهر ، دون أن تنفذ قواته إلى أبعد من حى زويلة . ظلت المدينة حصينة ، منيعة . لم ينتقل الخلفاء العبيديون من المهدية إلى صبرة إلا بعد أن اطمأنت نفوسهم على تلاشى ثورة صاحب الحمار ، واستقرار الأمن فى بلاد المغرب.

الخلافة الفاطمية ، الإمبراطورية الفاطمية ، هى ما كان يتطلع إليه الفاطميون بديلاً لخلافة العباسيين . العودة إلى الشرق أمل السيادة فى العالم الإسلامى . يرون فى أنفسهم أصحاب الحق الإلهى فى حكم الأقطار الإسلامية . انتسابهم إلى فاطمة بنت الرسول يهبهم حق السيادة والسيطرة، وفرض ما يجدد كل الإسلام ..

قال المعز لرسول إمبراطور بيزنطة :

ـ لتدخلنّ علىّ وأنا ملك لمصر ..

مهّد بالدعاة فى اتساع الأراضى العباسية . وأنفذ للإخشيديين من يثير القلاقل ، فتخلى الطريق لجيوشه . حتى الدنانير الفاطمية ، تحمل مصر مكاناً للضرب قبل أن يصل الفاطميون إليها . روجها الدعاة على من وجدوا فيهم استجابة ، وفرق الدعاة بنوداً لنشرها إذا قارب الجند الفاطميون مصر..

بدا التحرك نحو مصر محتماً ، بعد أن تلقى المعز فى إفريقية ، كتباً من شيعته تقول : إذا زال الحجر الأسود ـ يقصدون كافور الإخشيدى ـ ملك مولانا المعز الدنيا كلها . وتلقى رسائل من مصريين يدعونه لتسلم مصر . ضعف الخلافة العباسية تزايد ، وغابت الشخصية المؤثرة بعد وفاة كافور ، ونقصت مياه النيل ، وارتفعت الأسعار ، وتفشت الأمراض ، واشتد الوباء ، وكثر الموت ، وتفاقمت الفتن والقلاقل والاضطرابات ، وبذر الدعاة فى التربة المهيأة للاستزراع ، وسعى يعقوب بن كلس لتذليل العقبات ..

دخل الجيش الفاطمى مصر يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان فى العام الثامن والخمسين بعد الثلاثمائة ..

قال الرواة إنه لم يطأ الأرض - بعد جيش الإسكندر - أكثر عدداً من ذلك الجيش . وكان انتقال المعز إلى مصر آخر صلة الفاطميين بإفريقية . نقل معه كل ذخائره وأمواله . ألف حمل مال ، وأنواع الخيل والسلاح والعدد ما لا يوصف . حتى توابيت آبائه المهدى والقائم والمنصور حملها معه . صارت مصر دار خلافة ، بعد أن كانت دار إمارة ..

رأى الأشياع قصر عبيد الله - يقطن فيه الآن وال من السنة - به طيقان الذهب ، وتصل فسحة بينه وبين قصر ابنه ، ورأوا الحجرة الفقيرة ، المفروشة بالصوف والشعر اللبود . جعلها المعز - فترة إقامته فى المهدية - مسكناً له . أمر - فى يوم بارد - بإدخال بضعة شيوخ من كتامة إليها . أدخلهم الجند من باب غير الذى جرى الرسم به . استقبلهم فى مجلسه الفقير ، بين يديه مرفع ودواة وكتب ، ومن حوله أبواب فتحت إلى مدى النظر على خزائن كتب .

قال :

- يا إخواننا ، أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء - وإنها الآن بحيث تسمع كلامى - : أترى إخواننا يظنون أنّا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنَّك والسمّور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ، وأنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا فيما لابد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من إمامتكم ، وأنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وأنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا ، إلا بما صان أرواحكم ، وعمر بلادكم ، وأذل أعداءكم ، وقمع أضدادكم ، فافعلوا يا شيوخ فى

خلوتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التجبر والتكبر ، فينزع الله النعمة عنكم ، وينقلها إلى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل إلى ، كتحنني عليكم ليتصل في الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل ، وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ( أصولكم ) ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق، كما قرب أمر المغرب بكم ، انهضوا رحمكم الله ونصركم ..

عرف أبو علي منصور بأمر تلك الحجرة ، وبأمر اتخاذ المعز لدين الله حياة التقشف ، قبل أن ينشأ الميل إلى البذخ بنقل الخلافة إلى مصر ..

تطلع منصور إلى ما كان يحياه جده المعز في المهدية من تقشف ، وأهمل الترف الذي خلفه أبوه . وكان يبطئ من خطواته وهو يتقدم موكبه إلى خارج القصر الفاطمي ، يرنو إلى ما رصده أبوه من طلسمات على أبواب القصر . يثق أن ما فيها من قوة روحانية يقهر الأعداء ، ويسحق المنافقين ..

- ٧ -

بدت العلاقة كأصفى ما تكون بين ابن عمار وبرجوان ، حتى لقب ابن عمار في سجل تعيينه بأمين الدولة لم يبد برجوان اعتراضه عليه ، ولم يبد انشغاله بأن اللقب كان أول ما حصل في الدولة الفاطمية . لكن التنافس - في الحقيقة - كان بلا حدود ..

ارتكن برجوان إلى قربه من الخليفة الصبى ، وتأثيره فيه ، وقدرته على توجيهه ، وإن لم يكتف بأن يكون وصياً على الخليفة الصغير . قرن الوصاية بمراقبة ابن عمار . لم يغب عنه تغليب الوزير للمغاربة على بقية الخلق . قوّاهم بالخيل والسلاح . علا شأنهم ، فأسرفوا فى الإيذاء ، وطرحوا فكرة خلع الخليفة ، وقتله . لم ينشغل برجوان بتهديد ابن عمار للخليفة الحاكم قدر انشغاله بتهديد الرجل له نفسه ، لمكانته ووظيفته ومستقبل أيامه ..

اتسع نفوذ كتامة ، دانت لزعمائها الأمور ، وشحب نفوذ برجوان والصقالبة إلى حد التلاشى . لكن برجوان ظل على أمله فى أن تبدّل الرياح اتجاهها . ظل يرقب ابن عمار ، ويدس له بين الأمراء والكتبة وقادة الجند . أفلح - بالفعل - فى أن يحيك خيوط الدس والتآمر . نضجت الثمرة ، وما عليه إلاّ أن يلتقط ثمرتها ..

تنبه ابن عمار إلى الإشارات والإيماءات ونذر العاصفة التى تستهدف وجوده . أخذ للأمور عدتها ، وتحوط للصدام المتوقع .

لم ينتظر برجوان الفرصة فيوقع بابن عمار ، وإنما أتى بها . ضم إلى قيادته الأتراك والديلم ، مقابلاً لنفوذ المغاربة . تبادل الرسائل مع منجوتكين قائد الأتراك بالشام عن جرائم المغاربة فى حق الخليفة والخلق . دعاه للقدوم إلى مصر كى ينقذ الخليفة . لبى منجوتكين طلب برجوان . ضم إليه الكثير من قوات الشام ، وخرج قاصداً مصر ..

ركب إلى المسجد الجامع بثياب المصيبة ، وجمع الناس ، وذكّرهم جميل العزيز إليهم . ثم ذكر تغلّب ابن عمار على الملك وسوء سيرته ، وما يلقاه الأئمة المقيمون بمصر من الذلّة والهوان ، وبكى بكاء شديداً رقت له القلوب ، وخرق ثيابه ..

اقتدى الناس بمنجوتكين فى البكاء ، وتمزيق الثياب ، وأجابوه إلى

الطاعة ، وبذل المهج من غير التماس عطاء ولا مؤونة ، فشكرهم ، وعاد إلى داره . وأجمع أمره للسير ، فسار إلى الرملة ..

أبلغت الأعين ابن عمار بما دبره برجوان ومنجوتكين . أراد أن يوقف العاصفة في بداياتها . بعث قواته من المغاربة بقيادة أبي تميم سليمان بن جعفر بن فلاح . جرى قتال في رفح ، وثان في ظاهر عسقلان ، وهزم منجوتكين في المعركتين ، وأسر ، وتشرذمت قواته .

أعلن ابن عمار العفو عن منجوتكين . وأوعز إلى الإمام الحاكم ، فأمن منجوتكين على نفسه وعياله وأمواله ، فاستقدم إلى القاهرة ، ونزل في دار ملكية ، ولم يبخل عليه الحاكم بالعطف والرعاية حتى مات ـ بعد عشرة أعوام ـ ميتة طبيعية ..

قال الرواة إن برجوان سكت عن تدبير ابن عمار للأمور ، وتسييره لها ، لكن النفس المتغيرة لم تترك طبيعتها . بذل الدس والوقيعة والتآمر . اجتمع الأتراك والديلم والمشارقة والحجرية والسود والسرائيون وعبيد الشراء على حرب المغاربة . هاجم النهابة وأحداث الغلمان دار ابن عمار واسطبلاته ، ودار غلامه رشا . نالوا بالأذى من كانوا فيها ، ونهبوا محتوياتها ، وحطموا الأبواب والنوافذ . لجأ ابن عمار إلى الاختفاء ، فأتاح لبرجوان أن يمسك زمام الأمور . هزم الوزير الحسن بن عمار ، ولاذ بالفرار ، واستولى برجوان على الوزارة ..

برر برجوان عزل ابن عمار بأنه لم يوقر مكانة نفسه شيخاً وسيداً لكتامة، وأنه أول من تلقّب من رجال الدولة . حابى المغاربة ـ في ظل الإمام الحاكم بأمر الله ـ وأساء إلى المصريين والمشارقة ، واستبد بالأمور ..

قال الرواة إن برجوان أقصى ابن عمار ، وأنقذ أمير المؤمنين . أظهر أمير المؤمنين ، وأجلسه ، وجدد البيعة له . وقال الرواة إن ابن عمار أقدم

على عزل الحضرة ، فكان لابد من عزله هو . لكن نذر التمرد في معسكر كتامة ، دفعت الإمام الحاكم إلى إعادة ابن عمار لمنصبه ، ورد ما كان يتمتع به من امتيازات . ونهى برجوان الغلمان الأتراك عن الشغب ، والتعرض لكتامة والمغاربة ، وأجرى الرسوم والرواتب التي كان ابن عمار قد قطعها ، وأجرى لابن عمار نفسه وآل بيته ما كان يجرى لهم أيام الخليفة العزيز بالله.

أقام ابن عمار بمصر الفسطاط سبعة وعشرين يوماً ، ثم لزم - بأمر أمير المؤمنين - داره بالقاهرة . لا يركب ، ولا يجتمع به ، سوى خدمه . أُطْلقت له فيها رسومه وجراياته وجرايات حشمه على رتبه في أيام نظره ..

- ٨ -

قال الرواة إن قاضي القضاة محمد بن النعمان رحل عن الدنيا . لم يثبت إن كانت الوفاة طبيعية ، أم أنها بتدبير خصوم ..

رجح الاحتمال الثاني ما أعلن عن الأموال الكثيرة لليتامى في ذمة قاضي القضاة . عرف عن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله - منذ جلس على كرسي الملك - حرصه على أموال المسلمين . ليس ما يملكونه في بيت المال وحده ، وإنما ما يحملونه في بيوتهم ، ويورثونه لأسرهم وأقاربهم . ولم يعرف عن الحضرة أنه أعدم ، أو سجن ، من أخلص في عمله ، ولزم الحدود، ولم يتصرف في أموال الناس ..

كان محمد بن النعمان حريصاً على ارتداء فاخر الثياب : الدراعة والعمامة بغير الطيلسان الذي يميز العلماء . وكان يكثر من استعمال الطيب والبخور في مجالسه ، ويهب الصدقات والأعطيات دون حساب ..

ما خلفه قاضي القضاة محمد بن النعمان بعد وفاته ، فاجأ الحضرة ، وفاجأ الجميع . عُرِف أن في ذمته أموالاً كثيرة لأسر-مات أربابها ..

أمر الحضرة ، فختم على أمتعة ابن النعمان . فبيعت ، وذهب ثمنها إلى من استلبت حقوقهمَ . وأمر أمير المؤمنين أن تودع أموال اليتامى فى دار خاصة بزقاق القناديل ، فلا يزعم الحفاظ عليها أحد . إذا أراد أوصياء اليتامى أن يحصلوا على ما ينفقون منه عليهم ، جرى الأمر أمام أربعة من ثقات القاضى ..

استدعى برجوان أبا عبد الله الحسين بن على بن النعمان إلى إيوان أمير المؤمنين ..

دخل بطيء الخطوة ، محنى الرأس . قبل قدمى الإمام ، وترقب الأمر . خلع عليه الحضرة خلعاً نفيسة ، وأمر ، فضوعفت له أرزاق عمه وإقطاعاته ، وندبه لقضاء مصر وأعمالها ..

" هذا ما عهد به عبد الله ووليه المنصور أبو على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، للقاضى حسين بن على النعمان ، حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر ، والإسكندرية وأعمالها ، والحرمين حرسهما الله تعالى ، وأجناد الشام ، وأعمال المغرب ، وإعلاء المنبر ، وأئمة المساجد الجامعة ، والقومة عليها ، والمؤذنين بها ، وسائر المتصرفين فيها ، وفى غيرها من المساجد ، والنظر فى مصالحها جميعاً ، ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة ، مع ما اعتمد أمير المؤمنين وانتحاه ، وقصده وتوخاه ، من اقتفائه لآثاره ، وانتهائه إلى إيثاره ، فى كل علية للدولة ينشرها ويحييها ، ودنية من أهل القبلة يدثرها ويصفيها ، وما التوفيق إلا بالله ولى أمر أمير المؤمنين عليه توكله فى الخيرة له ، ولسائر المسلمين فيما قلدهم إياه من أمورهم وولاه .. أمره بأن يتقى الله عز وجل حق التقوى ، فى السر والجهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى ،

فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئل إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ، ووصية الله التي أشاد بفضلها ، وزاد في سناها بما عهد أنه من أهلها .. "

قال أمير المؤمنين :

- قد أرحت عليك ، فلا توجد سبيلا إليك ، بتعرضك لدرهم من أموال المسلمين ، فقد أغنيتك عنها ..

وخلع الإمام على القاضي ثياباً بيضاء ، ورداء مكسوا بالبياض ، وعمامة مذهبة ، وقلده سيفاً ، وحمله عطايا كثيرة ..

قال الرواة إن ابن النعمان ألزم نفسه وعماله بالمحافظة على أموال اليتامى . أودعها في الدار التي حددها أمير المؤمنين بزقاق القناديل ، وحرص على تقديم الأرقام المفصلة لكل تصرف . واستخلف في قضاء الفسطاط أبا عبد الله الحسين بن محمد بن طاهر ، وفي قضاء القاهرة أبا الحسن مالك بن سعيد الفارقي . وغلظت - في هذا المجال - أحكامه .

تحققت لأبي عبد الله الحسين بن علي بن النعمان مكانة طيبة في نفس الحضرة ، عندما زاوج بين القضاء وأمر الدعوة ، وتنظيم قراءتها في مجالس القصر . حمدت سيرته ، وتمتع في نفس الإمام بحرمة وافرة . وعظمة زائدة . صار من أقرب المقربين إلى نفس الحضرة ، يجالسه ، ويسامره ، ويؤاكله ، ويركب في موكبه . ولم يكن الحضرة يرد له شفاعة ..

كان يعقد مجلسه في الجامع الجديد ، أو في بيته . مرتين كل أسبوع . يضاعفهما - إن تضخمت القضايا - إلى أربع مرات ، وفتح بابه للقاصدين ، وعرف عنه كثرة البر والصلاة والإحسان ، فهو يطلق الأموال والطعام والملابس للموظفين المسلمين والقبط ، ويفرق الخلع وصرر المال على الفقهاء والقضاة وأرباب العلم . وكان يحرص على أداء الصلاة في الجامع الأزهر ،

وفى القبلة الفاطمية تحديداً . وكان يبدّل ملابسه ، ويغيّر من هيئتة وشارته . يدخل فى هيئة أخرى وشارة أخرى . يرتدى ملابس التجار ، ويجول فى الأسواق ليلاً ، يتشمم الأخبار ، ويرتدى ثياب الصيادين ، وزى الحرافيش والسابلة العاديين ، أو يرتدى زى المتسولة . رتب عيوناً على الولاة والعمال ، وجعل جماعات من السعاة ، للتعرف على أحوال الناس فى البيوت والأسواق..

حرص على مجالس قراءة القرآن الكريم ، يعقدها فى القاعة الكبرى بالقصر ، وعنى بالاختلاط بالعلماء والفقهاء ، وأخلص فى تلقى علوم الدين كالتوحيد والفقه والتفسير ، وفى تعلم النحو والبلاغة . عزف عن أمور الدنيا، وقصر همته على كسب سعادة الآخرة ، الباقية . ألف أولاد الناس والعوام رؤيته يؤدى رياضات النسك والتسامى ، يحاول استكناه ما لا يعرف ، يتطلع إلى النجوم ، ويقرأ فى علم الغيب . يحاول التسامى عن احتياجات البشر ودناءة نفوسهم ..

جزيرة الروضة هى المنتزه الذى تستريح إليه نفسه ، يجتذبه إليها كثرة المناظر والبساتين . خصص مجلسه فيها للاطلاع على فتوح الإسلام وآداب العرب وأخبارهم ، وللترويح عن النفس من مشاغل العمل ..

ـ ٩ ـ

أطالت الجارية خيرات النظر ـ فى وقفتها وراء النافذة ـ على القصر الكبير ، والأبنية المحيطة . وثمة حرس القصور الفاطمية ينفخون الأبواق ، ويدقون الطبول والكوس . يدورون حول القصور فى خطوات وئيدة ، ثابتة ، إلى ما بعد انبلاج الصبح . كان غبار الجياد قد تحول ـ فى بدايات النهار ـ إلى غيمة من رمال فى مدى الأفق ..

سبق الوزير برجوان فى رحلة الصيد عدد كبير من الفرسان وحاملى الصقور والسهام والرماح والحراب . يتقدم الجميع كلاب الصيد . غرس المهماز فى بطن الجواد ، وانطلق به فى أفق الخلاء . سبقه عشرة من الركابية ، وتبعه ـ بعد أن غادر الباب الخارجى للقصر ـ مجموعات أخرى . يقصد بر الجيزة بالقرب من الأهرام ، ينصب أعوانه الخيام . يقضى سحابة النهار فى لهو وصيد وقنص ، ثم تفك الخيام قبل أن يحل الغروب ..

كان يحب الخيل والصيد . وكان أعوانه يكثرون من التردد على أسواق الخيل والمهمازيين واللجميين والجوخيين ..

قصر اللؤلؤة قلعة هائلة ، ذات أسوار عالية ، فى جوانبها أبراج محكمة. يقف فيها رماة السهام والرمال والنبال . لا تقاس به قصور السلطان . يضم عشرات الأجنحة والحجرات ، والحجاب الذين يرتدون ألبسة الحرير والديباج ، ويحملون السيوف المذهبة ، والآلاف من الخدم والجوارى والخيل والسروج المطلية بالذهب ، ويتردد عليه المغنيات والقيان والمنشدون وضاربو الدفوف وعازفو العود والموسيقيون الجوالون والسحرة والمنجمون ومفسرو الأحلام والحواة والبهلوانات ..

همست لنفسها :

ـ لقد احتكر الثروة والسلطة ..

بعد أن ولى الوزارة ، أخذ البيعة للخليفة الحاكم بأمر الله من جديد . قدم البيعة وجوه كتامة وقوادها ، والمشارقة ، بالإضافة إلى عامة الناس ..

اكتفى بعزل ابن عمار ، فلم يحاول أذيته . زاد فأحسن معاملته . أبقى على الرواتب والإقطاعات التى كانت له فى أيام العزيز ، لكنه اشترط الولاء سمة لتصرفاته ، وعدم الخروج من إطار الطاعة ..

مال إلى الملاينة والتيسير على الناس . منع الخلق من نهب دار ابن

عمار. أعاد الرسوم والرواتب التى قطعها ابن عمار عن أصحابها . قرّب المشارقة، وأعاد المصريين إلى ما كانوا يشغلونه من وظائف ..

قال الرواة إن برجوان حاول - ومارس ضغطاً فى بعض الأحيان - على الحضرة ، حتى يمنحه لقباً ينفرد به ، ويعتز . فلما أدركه اليأس قنع بلقب الأستاذ الذى كان يحمله بالفعل ، وإن سمى كاتبه أبا العلاء فهد بن إبراهيم: الرئيس ، وترك له أمور الدولة ، فأحسن إدارتها ، وأحكم سيطرته عليها . ظل هذا هو لقب أبى العلاء ، بعد أن ولى الوساطة مع حسين بن جوهر ، وإن قرن اسم ابن جوهر على المنابر - فيما بعد - وانفرد باللقب ، واعتز به ..

تعرفت على حياته من بدايتها ، منذ قدومه خصياً صقلبياً أبيض ، وتنشئته فى القصر ، وارتقائه فى الخدم حتى بلغ مرتبة الأستاذية ، وتقريب الخليفة العزيز بالله له ، حتى ولاه إمارة القصر ، وعينه وصياً على ابنه منصور بعد وفاته ، وخلع عليه لقب " الأستاذ " ، وأولاه ثقته ، وعهد إليه بأمور مهمة . تدخل فى أمور الحكم حتى بعد أن تولى ابن عمار أمور الوساطة . تولى الوزارة بعد أن رفع ابن عمار من منصبه . أعاد تدبير الأمور فى القصر الملكى . يجلس فى دهليز القصر ، ويجلس الرئيس فهد فى الدهليز الأول ، ينظر فى الشكاوى والتظلمات . يعرض على برجوان ما يرى أنه يستحق أن يرفع إلى مقام أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله . يخرج الأمر بما يكون العمل به ..

عرف عنه الكفاية والدهاء والدراية بشئون الحكم . أقام فى قصر اللؤلؤ الذى شيده العزيز بالله . بدا منافساً لقصر أمير المؤمنين . الحراس يبلغون الآلاف من العبيد والمماليك الوزيرية . وأفاد من منصبه فى تحقيق التعاظم للثروة التى جمعها : أكثر من مائتى مليون دينار ذهب ، وخمسين أردباً من الدراهم الفضية ، واثنى عشر صندوقاً من الجواهر ، والكثير من العقارات والأراضى والماشية والاسطبلات وأهراء الغلال والمخازن الممتلئة بالثياب وأنواع الطعام بما يكفى احتياجات مصر والقاهرة عاماً أو يزيد .

صار له العديد من الدور والقصور فى مصر والقاهرة والأقاليم . حلّيت بالنفائس والرياش الفخمة ، وألف مجالس السمر والشراب والمعاشرة والمعاقرة ، وحفلات الرقص والغناء . كان يقدم لأضيافه الشراب فى كؤوس الذهب أو الفضة المرصعة بالجواهر ، ويقدم الضيافات الكثيرة ، والأطعمة ، والحلويات . وكان كلفاً ـ رغم عاهته ـ باقتناء الجوارى . يقتنى البارعات فى الحسن والخلال ، وصاحبات الأصوات الجميلة ، واللائى يجدن الرقص . ينفق على شرائهن الأموال الوفيرة ، ومالا يقوى عليه أحد . وامتلك الكثير من السرج والفرش والشكيمة والجراب والزمام ..

قيل إنه نثر على الحاضرين فى حفل سمر ـ بالإضافة إلى النقود والمجوهرات ـ أوراقاً بأسماء ضياع . ليس على من يأخذ الورقة إلاّ أن يضع اسمه عليها ، فتصبح فى حوزته ..

مال ـ بهمسات الأعوان وتحريضاتهم وغوايتهم ـ إلى أفعال ابن عمار . سار فى الطريق التى سبقه إليها سلفه . أفلح ـ فى مدى قصير للغاية ـ فى إبعاد أهل الحل والعقد ، وقطع الجسور بين الحضرة وكبار الموظفين . حتى أم الحضرة حرص برجوان على أن يبعد تأثيرها عن أمور الحكم ، لا تتدخل بالرأى أو التوجيه . استولى على الأمور ، واستبدّ ، واستأثر بأموال الدولة . ومال إلى اللهو والطرب ، وسماع الغناء ، والتسلّى بالرقص ، ومعاقرة الخمر . وكان يقضى جانباً كبيراً من وقته فى رمى النشاب واللعب بالرمح والصولجان ، واستعمال الدبوس ، ومشاهدة المصارعة وتطيير الحمام والمناطحة بالكباش والثيران والمناقرة بالديوك . وغلبته النشوة ـ ذات ليلة ـ فأمر خدمه أن يملؤوا الحمام بالخمر ليستحم فيه ..

كان النساء وخدم القصور والحجّاب ينقلون إليه ما تتلقاه أسماعهم ، كل الهمسات والحوارات والشائعات ، وإن لم يكن يحب من خدمه أن يأتوه بخبر يضايقه . صار متحكماً على القصور السلطانية ، لا يدخل ولا يخرج شخص ولا شئ إلا بمعرفته وإذنه ..

تحقق له الأمر والنهى والتحكم فى مقاليد البلاد ..

لم يكن شيخ طائفة فى الجيش مثل ابن عمار . ألف لنفسه جيشاً خاصاً، عرفت الحارة التى يقيم فيها أفراده باسم برجوان . بث الأعين المتلصصة والآذان المتسمعة فى الأسواق والميادين ، وعلى نواصى الحارات، وفى المساجد والجوامع والزوايا والخانقاوات ، يحصون على الناس أنفاسهم، يصيخون السمع للهمسات والأقوال المعلنة ، يرقبون الحركات والتصرفات والإيماءات والإشارات ، يفضحون الأسرار أمامه ، ويبيحون المكنون المخبّأ . تكومت تحت يديه قوائم كاملة بأشجار العائلات ، وأسماء عوائل الأسر التى تسكن كل شارع ودرب وعطفة ، وأسماء أفرادها ، وأنشطة أصحاب الدكاكين ، ومن يؤدون الصلاة فى المسجد القريب ، ومن يكتفون بأداء صلاة الجمعة ، ومن يسعون إلى الصلاة فى غبشة الفجر ، وماذا يملك الرجل من عقار وأموال ..

قرب إليه مسعود الطماوى . خلع عليه ، ورتب له الرواتب ، وجعله صفيه وسميره . كان ناسخاً ينقل ما يكتبه الأدباء والشعراء ، وينظم الدفاتر للدواوين ، ويكتب ما يعرضه الوجهاء والعوام من شكايات لرفعها إلى الوزير، الذي يعيد عرضها على مقام أمير المؤمنين ، ويكتب طلبات شراء البضائع ، وعروض بيعها ، ورسائل الأهل إلى ذويهم فى المدن البعيدة ، وعقود شراء البيوت والدكاكين والأراضى الزراعية ، ورصد الأوقاف ، ومدائح المنشدين والأذكار وأدعية النصف من شعبان ورمضان والعاشر من محرم . جعل لنفسه طاولة صغيرة إلى جوار باب الجامع الأنور . يتسلى بنسخ كومات المؤلفات المودعة عنده ، حتى يأتى من بيده شكاية أو مظلمة . يطيل الإنصات ، ويسأل ، ويناقش ، ثم يفرد الورق ، ويدس القلم فى المحبرة، ويبدأ الكتابة ..

لطول عمله فى نسخ رسائل الوزير ابن عمار إلى الولاة والوزراء والأمراء

وحكام الدول الأجنبية ، ونسخ رسائلهم ـ بخط جميل ـ إلى الحضرة . كان يعرف أنه يمل الرسائل الطويلة ، يهب أذنيه للأسطر الأولى من كل رسالة ، ثم يشيح بيده ، ويقول : من الآخر ؟.. أو يطلب رسالة أخرى ..

حفظ القرآن ، ودرس الفقه والفرائض والحديث والمنطق ، وقرأ كتب التاريخ والسير والقصص ، ثم تعلم علوم العصر ، وتثقف بثقافة أهل الزمان. وامتلك سر الكتابة . وكان يعرف أنساب العائلات المهمة ، ويتبادل الأحاجي والألغاز ، ويتبارى بالأشعار ، ويحذق المديح بما يدفع الممدوح إلى فك كيسه ، والإغداق عليه ، ويحذق الهجاء بحيث يشعر المهجو بالضآلة . مال ـ بما أتاح له ابن عمار من علو المكانة ـ إلى ارتداء الثياب الفاخرة وركوب الخيل ، وامتلك الكثير من الأراضي والضياع والبنايات والأموال والخزائن المملوءة بالكسوة وآلات الديباج والذهب ، وتنقل بين المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، وتهامست الشائعات بأنه استولى على الكثير مما كانت تحويه خزانة الدولة ..

ـ ١٠ ـ

هل كانت السيدة العزيزية ، أم الحضرة ، هى أم ست الملك أيضاً ؟..

قال لها الخدم فى المطابخ إن السيدة الرومية ، النصرانية ، هى أم ست الملك التى ولدت قبل خمسة عشر عاماً من مولد أخيها من الأب . السيدة العزيزية هى الزوجة الشرعية . ثمة من يتحدث عن السيدة العزيزية أم المنصور ، دون أن يشير إلى فصلها ، أو الديانة التى تؤمن بها . لكن معظم الروايات ـ إن لم يكن جميعها ـ يذهب إلى أن الأم النصرانية لست الملك ، أخت المنصور ، ليست أمه ، وإن لم تجمع الروايات على أم محددة .

دست بها الجهة العالية ست الملك فى دار برجوان . زكتها للحياة فى القصر ، وإن ظلت جارية لها ، فهى تملك ـ حتى لو لم تكن هى أخت أمير المؤمنين ـ أن تستعيدها . شددت عليها ، فهى تروى كل ما تراه وتسمعه . ينقله خادم نوبى إلى ست الملك فى أول خروج له من الدار ..

تفحصها برجوان بنظرة عرّتها من ثيابها ..

هل تستهويه ، فيتخذها جارية ؟

ظلت ـ منذ طفولتها ـ فى داخل قصر ست الملك ، وسط أربعة آلاف جارية ، بيض وسود ومولدات ، يخدمن صاحبة القصر . لا تبرحه ، ولا يرى جمالها غير ست الملك والجوارى والعبيد والمرآة ..

أشار ـ فى اللحظة التالية ـ إلى القهرمانة . تقدمتها فى ردهات داخل القصر ، ثم تركتها فى أجنحة الحريم ..

طال ترقبها لإشراف القهرمانة على زينتها ، دلالة أن برجوان سيطلبها فى الليلة نفسها . ناوشها التوقع بأن يستدعيها الوزير . ربما أخفى ما بنفسه ، فيطلبها عندما يخلو من مشغولياته ..

أذهلتها الهمسات المتناثرة ، والبسمات التى لا تفارق الشفاه ، حين عرفت أن سيدها خصى . فهو لم يتزوج ، وإن يرضى نفسه بالتطلع إلى الجوارى . ينزعن الثياب . يتعرين تماماً . يرقصن ، أو يدرن أمامه . يحدق بعينين نهمتين . لا يشغله حتى الحرس ، أو الخدم الذين يلبون ما يطلب . ربما لأنها هدية ست الملك . لا يدعوها برجوان إلى مجلسه ، لكن الهمسات تضيق بها جدران القصر ، فهل تعرف ست الملك حقيقة الرجل ، وتكتمها ؟

دس الخادم النوبى فى يدها بأمر ست الملك . غاب التوقع الوحيد ، وحلت توقعات أخرى ، كثيرة ، يحيطها الفضول والمغامرة ..

اختلفت نصائح ست الملك للخليفة الحاكم عن أفعال برجوان . شغلها استقرار الحكم ، وضمان بقاء أبناء المعز فى السلطة ، وشغل برجوان تنحية

ابن عمار ، والحلول مكانه . سبقت ست الملك موكب أمير المؤمنين ـ حين بدأ طريقه إلى القاهرة ـ فى موكب صغير يتدثر بالليل ، يشغلها الحفاظ على ملك الفاطميين . قالت : أنا لا أعرف وطناً إلا مصر ، قدمت إليها وأنا فى الثالثة . كان لها أيام العزيز بالله نفوذ عظيم فى الدولة ، لم يكن أبوها ـ العزيز بالله ـ يرفض لها طلباً ، ولا يرد لها قولاً . وكان يلبّى شفاعاتها . وبتأثير نفوذها ، أخذ العزيز بملامح التسامح المعلنة نحو النصارى . رد عيسى بن نسطورس ـ بشفاعة منها ـ وولاه الوزارة . اشترط ـ لكى تستقيم العدالة ـ أن يستخدم المسلمين فى دواوينه وأعماله . رفض الحاكم بأمر الله الشفاعة . أصر ـ تحت ضغط المغاربة ـ على أمره بعزل ابن نسطورس ، وتولى ابن عمار أمر الحكم . وقبض ابن عمار ـ فى العام التالى ـ على عيسى بن نسطورس ، وقتله ..

أشارت ست الملك إليها ، وقالت بصوتها ذى البحة الزجاجية :

ـ هذه لا تفيد ، فهى تحتاج إلى من يرعاها !..

مع ذلك ، فقد أمرت بضمها إلى الحريم . تأكل وتنام وتلعب . وربما نفذت أمراً ، فنقلت شيئاً من موضع إلى آخر ..

ألغت ست الملك ـ بالرعاية ـ ما نشرته الشائعات أنها تشترى الجوارى لتستمتع بهن ، وأنها تهوى الصبايا الحسان . عرفتها وافرة الهيبة ، وتميل إلى التدين . وقفت من مالها على الجوامع والمدارس والتكايا والأضرحة والحمامات . يشغلها الحفاظ على صورة طيبة للفاطميين فى أعين خواص الناس وعوامهم . ثم صار معظم جلوس خيرات عند قدمى ست الملك ، لا تكلفها بشىء ، وإن كانت تتجه إليها بنصائح وتوبيخات . تنظر ـ بجانب عينها ـ إلى الفتاة الجالسة تحت قدميها . تحبها ، وإن لم تناقش بواعث هذا الحب . ربما لارتباكها ، وتلفت عينيها ، وما تملكه من ذكاء ، وذاكرة حافظة، وقدرة على الحكى ..

كانت تسمية ست الملك عند خيرات - وعند كل من فى القصور الفاطمية - " السيدة " و " السيدة الشريفة " و " ست النصر " و " الجهة العالية " ، وتدعوها - مثلما يدعوها الجميع - " مولاتنا " ..

كفتها ست الملك تعب الانتقال من سيد إلى سيد : لقيت فى نفسها قبولاً، فميزتها . لم تكن تأذن لواحدة من الجوارى بالدخول عليها ، ولا المثول بين يديها ، إلا إذا استدعتها . تملى عليها ما تطلبه ، وتومئ لها بالانصراف . لا تطيل فى كلامها ، ولا تجيب عن أسئلة ، وتواجه الواقفة أمامها بنظرة صارمة ..

استقدمت مهندساً صقلبياً . راعى فى تصميم الجناح فى داخل القصر مدى دخول الشمس وانحسارها ، وارتفاع الرطوبة وانخفاضها ، وإمكانية تلاقى تيارات الهواء لتلطف الجو فى أوقات الحر . وزع الطاقات فى الزوايا والأركان ، بما يحرك الهواء . حتى القبة ذات الزجاج الملون ، يتسرب الهواء من فتحاتها إلى القاعة . الأسقف مزينة بالزخارف ، وتتدلى مشكاوات يتداخل فيها الزجاج الملون والنحاس . على الجدران مرايا كبيرة ، متقابلة ، تحيطها إطارات مذهبة ، والأرضية مغطاة بالسجاد . فى الأركان أرفف ، فوقها مباخر فضية ، وأوانى قهوة ومزهريات . المفارش المزركشة أسدلت على الكنبات والمساند ، وتناثرت على الأرائك حشيات من ريش النعام ..

شددت ، فلا ترتدى النساء فى أقدامهن قباقيب . ألزمتهن بارتداء أحذية خفيفة لا تصدر صوتاً . شبت النيران فى مطابخ القصر الصغير . هددت بالامتداد إلى المخازن والحجرات المجاورة . لاذ بالفرار كل من تصادف وجوده من العبيد والخصيان . علا صوت الجهة العالية فى أول الطريق المفضية إلى المطابخ ، يستحث الفارين على إطفاء النيران . عاد الفارون إلى مصادر المياه . تناقلوا فى الأوعية ما أوقف النيران عند المطابخ . لم تمتد إلى ما جاورها ..

كان جلوس خيرات تحت قدميها امتيازاً خصتها به . لما كلفتها بأعمال خارج القصور الفاطمية ، أيقن من فى القصور أن خيرات هى الأثيرة فى نفس الجهة العالية . أعجبها فيها كتمانها لما تراه ، ولما تستمع إليه ، ودقتها فيما تنقله من رسائل وأخبار . حتى ما يجرى داخل أجنحة الحريم ، لا تتحدث عنه إلا فى إجابة عن سؤال من السيدة الشريفة . تركت لها مهمة إيقاظها . تمسد جسدها بأصابع هامسة حتى تفيق من النوم . تزيد من ضغط الأصابع ، ليعيد التدليك حيوية الجسد ، فتمضى إلى الحمام . تركت لها أمر إعداد حمامها ، لا تتركه للخدم ، ولا لبقية الجوارى ..

الحمام مغطى بالقيشانى الأبيض المتداخل بزخارف سوداء . تملأه بماء دافئ ، تعطره برائحة الورد والفل والياسمين ، وتعد المناشف لتغطى جسدها عقب الاستحمام . تنزع عنها ثيابها بيدين مترفقتين . تطمئن إلى ارتفاع الماء ، فلا يبدو من جسدها غير ما يعلو العنق . تدلكها بقطعة إسفنج امتصت الصابون المعطر ..

أهملت الجهة العالية ما ميزت به خيرات نفسها عن كل من فى القصور الفاطمية . النظرات التى لا تعلو عن الأرض ، والسير بلا وقع أقدام ، والأصوات الهامسة ، وسرعة التلبية . وكانت خيرات تجيد العزف والغناء والرقص ، وتأليف القصائد ، ورواية الحكايات وحياة الأنبياء والأولياء والتابعين . أطالت الرحيل ـ بالسماع ـ إلى المدن البعيدة ، ما تحفل به من أفعال العرافة والتنجيم والتعازيم والسحر والرقى والخوارق ، واختلاط أحاديث الإنسان والجن والطير والحيوان والعفاريت والأرواح والأشباح ، والغرقى الذين يستغيثون بالواقفين على الشاطئ ، والاختراعات المثيرة ، والأميرات السجينات داخل القصور والمغارات والكهوف ، والشطار الذين يتسللون لامتلاك قلب الأميرة ، والقلاع ، والأبراج ..

ظلت ـ منذ طفولتها ـ فى القصر الفاطمى الصغير لا تبرحه ، ولا يرى جمالها سوى وجه المرآة ..

تثق أنها لم تولد جارية ، وأنها شريفة الأصل والنسب . تومض فى ذهنها رؤى لما عاشته : تلقيها الدروس على يد المعلم ، التفاتها إلى مناداة أمها : يا جلنار . تدرك أن هذا هو اسمها الحقيقى . عكوفها على القراءة فى مكتبة أبيها ، لا تستجيب لنداءات أمها ، حتى يدخل خادم فيصحبها إلى مائدة الطعام ..

ما جرى كالأطياف ، أو الملامح الضبابية ، لكنها تذكره . كانت تلعب مع بنات وأولاد فى سنّها . لم تنتبه إلى وحدتها ، إلاّ حين ضغطت الراحة الضخمة على فمها من جسد ألقى ظله العملاق أمامها . خنقت الراحة ـ التى كادت تمنع تنفسها ـ صراخها . لا تذكر اللحظة التالية ، وإن أفاقت فى صالة واسعة ، امتلأت بفتيات فى سنها ، وأكبر منها . غابت ملامح ، واستدعت ما لم تتأكد من حدوثه . تدرك أن توالى الأيام حمل معه استكانتها إلى موضعها كجارية ..

تجاوزت ـ بالخوف ـ ما تحياه من رتابة فى توالى الأيام . الحياة فى الحريم ، وفى المطابخ ، وفى القاعات السفلية . الجدران والستائر والأبواب المغلقة ورنين الخلاخيل والهمسات والضحكات المبتورة والرد على النداء والملل . تحن إلى مدينة طفولتها . تغيب حتى ملامحها الضبابية . ترد على اسم غير اسمها . تتكلم بلغة غير التى كانت تعرفها . حتى دينها ربما تغير دون أن تعى ما حدث . قبل أن تستوعب ملامح الأشخاص والأشياء . تدس الورقة بما كتبته ، فيحملها الخادم النوبى إلى ست الملك ، أو تهمس فى أذنه بما ينقله إلى القصر الغربى . يخيفها التوقع بأن تلحظ عين ما تفعله ، فلا تأمن كتم أنفاسها ..

قالت الجارية عظيمة :

ـ سيدنا مخصى .. هل نحكم على أنفسنا بالخصاء مثله ؟

وهى ترسم ابتسامة :

- ماذا تقترحين ؟

- نتزوج من أنفسنا ..

أحسست أن وجهها يتوقد :

- لا أميل إلى هذا التصرف ..

ورمقتها بنظرة مستنكرة :

- أتدرين مغبته ؟

وهى تتحاشى نظرتها :

- نحن حريم .. لا تنفذ إلينا الأعين المتلصصة ..

أومأت بعينيها إلى ما حولها :

- عملى فى قصر الجهة العالية أثبت لى أن الأعين ليست فى وجوه الرجال فقط . الوشاية عمل بعض الجوارى ..

جرت على الخاتم بعصبية فى يدها :

- لكننا لا نخون مولانا ..

رحلت نظرة خيرات إلى بعيد :

- عندما اشترانا فقد اشترى حياتنا ..

شهقت :

- تقصدين ؟

وهى تجرى على عنقها براحة يدها :

- نعم .. أقصد !

علا حاجبا عظيمة فى تساؤل مستغرب :

ـ تتصرفين كأنك من الحرائر ..

تمالكت خيرات نفسها :

ـ لا أشعر بغير هذا ..

أشاحت عظيمة بيدها :

ـ ليس المطلوب من الجارية أن تقيد نفسها بالأخلاق ..

ـ ما أعرفه أن الصك الوحيد للجارية هو صك البيع ..

تحسس أصبعها شعرة نافرة ، فانتزعتها :

ـ نحن نباع لنُمْتِع ، لا لنعطى دروساً فى التهذيب !

كان امتداد الأفق من وراء المشربية ، آخر رؤيتها خارج أسوار القصر . تضيف إليه مما تلتقطه أذناها فى قاعات القصر ، وحجراته ، وفى المطابخ . تطيل الوقفة خلف المشربية . تطعّم رؤيتها بخيال ، يمتد إلى ما بعد الأفق . المدن التى يتحدث عنها رجال القصر ، والقرى والزراعات والنهر والمقطم والمدن البعيدة . تختلط التصورات فى ذهنها وتتشابك . تغيب الملامح والقسمات . تحل بدلاً منها ملامح وقسمات أخرى . تتعالى المناقشات والملاحظات والأسئلة والأجوبة ، فتطوى ما رسمه خيالها . ما لم تكن قد تعرفت إليه من قبل ، ولا تصوّرته ، ولا أثارته الكلمات أمامها ..

تسمع عن الفسطاط والعسكر والقاهرة ، وأسماء أسواق وشوارع ودروب وعطوف . تكتب عنها ، أو تهمس بها ، فى أذن رسل ست الملك ، دون أن تعرف موقع المكان الذى تكتب عنه ، أو تهمس به ..

اختلطت الأسماء فى ذهنها ـ مرة ـ فتحدثت عن ترقب برجوان زيارة من الأهرامات . استعادت ست الملك التسمية فى رقعة تحمل السؤال . نبّهت إلى أن الأهرامات بنايات فى الصحراء ، وليست بشراً . كرت الخيط من بدايته ، حتى استخلصت من كان ينتظره برجوان ..

نقلت إلى الجهة العالية ما رأته من تردد الخادم عقيق على قصر برجوان. يصفق الوزير بيديه ، لا يبقى فى القاعة سوى الخادم . فيغلقها عليهما ..

هزت ست الملك رأسها فى فهم :

ـ عقيق هو عين برجوان فى قصر الإمام ..

استدركت متذكرة :

ـ المصيبة أنه جعله على خزانات الإمام الخاصة !

ـ ١١ ـ

ترامى الأذان من جامع الأزهر القريب ..

قال الرئيس فهد :

ـ ألا نبطل الغناء حتى ينتهى الأذان ؟

قال الوزير برجوان :

ـ الأذان فى الجامع خارج البيت .. ونحن فى داخله ..

وأشار إلى المغنّى بما يعنى أن يستمر ..

قال رواة الأخبار إن الوزير برجوان اشتد ميله إلى اللهو والطرب وحب القيان ، فهو يعكف على معاقرة الخمور ، وسماع الأغانى . يبدو وسط المغنين من الرجال والنساء كأحدهم . عدد المحظيات والجوارى في قصره جاوز الألف ، فهو يستقبل المرأة في جناحه . يطلب منها أن تتعرى . تغمره النشوة لرؤيتها وهى تتخفف من ثيابها ، حتى تنزعها تماماً . يحدّق فى عريها ، دون أن يعرف من هي ، ولا يتذكرها . يمسد الجسد العارى براحتيه ..

قيل إنه تصور أنه يستطيع أن يعوض ـ بوسائل أخرى ـ ما حاق برجولته، يداوى ما يعانيه بأدوية للخصوبة ، تنقل اللذة إلى الشفتين واليدين ومسام البشرة ..

أشار عليه الأطباء والعشابون بأدوية وأعشاب ومراهم . بدت له الثمار مستحيلة ، فاكتفى بلذة النظر . تتحرك أمامه الجارية المتجردة الثياب ، حتى يكتفى . يصرفها ، ويذهب إلى جناحه . يغمض عينيه على ما رأى . يضيف ما يتصوره ، ويخترعه ، حتى يأخذه النوم ، وكثيراً ما كان يغادر جناحه وقت الضحى ..

كان يدخل بين الجوارى ، يمزح معهن ، ويأخذ هيئة الحمار ، فتركبه الجارية ، وتضع مقوداً فى عنقه ، وتأمره بالسير . وقيل إنه كان يدفع خدمه إلى أن يفعلوا به ما يفعلون بالنساء . وكان يدعو المغنين إلى الجلوس فى حضرته . يجمعهم حوله ، ويكون كواحد منهم . يؤدون له آخر أغنياتهم ، أو ما يطلب سماعه من الأغنيات القديمة . وكان يلعب بالحمام مع الخدم والعبيد ، ويصطحب معه ـ فى سرحات الصيد ـ أرباب المجون والملاهى . فإذا خرج على فرسه ، لا يملك نفسه ـ لشدة السكر ـ من الجلوس عليه ..

ونبهه الرئيس فهد إلى ما أصدره أمير المؤمنين من مراسيم بمنع سماع الموسيقا ، وتحريم الغناء والملاهى باعتبارها خطراً على أخلاق الناس. هز كتفيه بلا مبالاة :

ـ وما شأن أخلاق الناس بحياتى الخاصة ؟!

زاد ميله إلى المطارحة ، والدعابة ، والهزل فى الكلام والتصرفات . يغلبه التوتر لما يتبادله الناس فى الأسواق ، وينقله إليه الأعين . جاوز السر أسوار القصر ، وأنه حصور لا يأتى النساء . يلجأ إلى يديه وتعبيرات وجهه ، ويرفع صوته ، ويخفضه . يتظاهر بالثورة ، ثم يطلق الضحكة المجلجلة .

وكان يحب اللعب بالكرة والسباحة والنرد والشطرنج والصولجان والصيد والرمي بالبندق . إذا عرض عليه الكاتب بعض أمور الدولة ، أطرق وتشاغل..

خرج - ذات ليلة - عن طوره . أمر بملء البركة في صحن قصره بالخمر ، ونزع ملابسه ، ونزل فيه يسبح ، ويشرب ، حتى أنقذ قبل أن يهوى إلى القاع ..

لم يعد يخرج إلى قصر أمير المؤمنين إلاّ بعد أن تتوسط الشمس السماء..

أخذ في نفسه على الشيخ مالك بن سعيد الفارقي قاضي الحنابلة . صارحه بمعايب وجدها في تصرفاته ، وطالبه بأن يعود إلى الصواب ، ودس في ثنايا دروسه نقدات لبرجوان . وجه إلى بيته الريفي في ناحية قليوب من ترقّبه في إجازة من عمله . تسلل إلى داخل البيت بعد أن اطمأن إلى تقضي الأيام الثلاثة الأولى . احتز رأسه ، وعاد بها إلى الأمير في قصره بالقاهرة..

نعق غراب على شجرة في حديقة القصر ، فتشاءم منه . وقع في نفسه إنه سيرى ما لن تسر عيناه لرؤيته ..

قال الرواة إن الحضرة ظل يطيل تأمل لباس الوزير برجوان . بدا له غير مألوف في نسيجه وصنعه . مال - بحداثة سنه ، وأعلى صدره - ومد يده إلى اللباس يتحسّسه ..

- هل هذا قماش مصرى ؟

وهو ينحي وجهه عن اتجاه نظرته :

- من تنيس يا مولاى ..

قال الإمام :

ـ يبدو أن البلاد تصنع ما لا نعرفه ..

وزوى ما بين حاجبيه :

ـ لا تجعل الأبهة شاغلك ..

أبلغت الأعين أمير المؤمنين بما أثير من شائعات ، أنه لم يعد له أمر ، ولا نهى ، ولا رأى ، ولا سلطة على الوزير ..

قال الرواة إن نفس الحضرة تغيّرت لتغيّر سياسة برجوان ، وتبدّلها . صرف جهده لمنع الولاة والوزراء والكتبة من الوصول إلى الحضرة ، ومنع الإمام من الانشغال بأمور الدولة . وضعه فى واجهة الحكم ، وخلا إلى ما تمليه على نفسه . يركب كل يوم إلى ميدان القصر . يجلس على سريره . تعرض عليه الخيل ، والقراء بين يديه . يقف الشعراء لإلقاء قصائدهم . يمضى ـ بعد ذلك ـ إلى القصر الكبير . ما يكاد يفرغ من طعام الغداء وترفع المائدة ، حتى يدخل برجوان وكاتبه فهد ومعهما رقاع المتظلمين وأرباب الحاجات . يقرأ الكاتب كل الرقاع . يرقع أمير المؤمنين بما يعنى الموافقة . لا رفض ..

صارت الدولة كلها تحت يديه ، أطلق لنفسه التصرف والتمكن الكامل . يتصرف كيف شاء ، وعلى النحو الذى يريد . هو يدير الدولة من داره . يستقبل رجال الدولة والوجهاء والعلماء والقضاة والأعيان وأرباب الأشغال . يقضى فى كل الأمور دون مشاورة . ولم يعد للخليفة أن يتصرف فى شىء إلا برأيه ، دون أن يراجع حتى أمير المؤمنين . ما يشير به ذهنه يقرّه ، ويأمر بتنفيذه . وكان مما يثيره أن الوزير أعطى لنفسه الحق فى الدخول على مجلسه بغير استئذان . إن أبدى الخدم ملاحظة ، لم يعن بالالتفات ، ومضى إلى داخل المجلس ..

فطن الخليفة ـ بوعى باكر ـ إلى استئثار برجوان بالسلطة ، لم يلهه

تحريضه له على اللهو واللعب . وقال حاجب القصر الفاطمى لبرجوان ، ما نقله عن الإمام ، إن الوزغة ـ التسمية التى أطلقها عليه برجوان فى بدايات حكمه ـ صارت تنيناً كبيراً . لكن برجوان أهمل الإشارة ، وظل سادراً فى غيّه ومجونه . غلب نفوذه وسلطانه كل نفوذ وسلطان ، وصار فى يده الأمر والنهى كله . يولى من يشاء ، ويعزل من يشاء . بيده جميع الأمور ، وهو ـ وحده ـ صاحب الكلمة الفاصلة ، والقول الحاسم . عنت له الوجوه ، وخضعت الرقاب . لم يعد للخليفة من السلطان إلا الأسماء : الحاكم بأمر الله ، الحضرة ، أمير المؤمنين ، الإمام ، وغيرها مما يعلو به صوت كاتب الدست الشريف عندما يرفع الستر عن مجلسه . هى ـ فى الحقيقة ـ بلا حكم ولا تدبير . جعلهما برجوان من عمله ، واكتفى به واجهة ، بلا أمر له ، ولا نهى ، ولا رأى ، ولا حق فى إصدار سجل ..

قبل أن يبلغ الصبى عامه الخامس عشر ، كان قد اتخذ قراره بعزل برجوان . احتفظ بما انتواه فى نفسه . لم يصرح به حتى لأمه السيدة رقية، التى تكرر همسها فى أذنه بالتخوف من وصاية برجوان . لم يعد يطيق معاملة برجوان له كصبى ، كطفل يخضع للوصاية . انحصر نفوذه داخل القصر . فقد كل سيطرة له على القاهرة والفسطاط . بدا كأنه قنع باسم الإمام دون أن يكون له نفاذ أمر أو نهى ، ولا حول أو طول . توارى فى الظل. شأن البلاد فى يد برجوان ، يتصرف فيه كما يريد . لم يعد يحفل بمشورة ولا رأى ، وأكثر من القبض على الناس ، والمصادرات ، واصطفاء الأموال ، والنفى . حتى الأوامر التى صدرت من أمير المؤمنين ، نقضها الوزير ، وتعمد إهانة الإمام ، وإذلاله ، والتصرف بما لا يليق . استدعاه الحضرة ـ يوماً ـ فدخل راكباً ، ثنى رجله على عنق جواده ، فاتجه الخف إلى وجه أمير المؤمنين ..

## ـ ١٢ ـ

قال الرواة إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ضاق بالأمر ، وأضمر التخلص من برجوان لينفرد بأمر المملكة . سئم وصاية برجوان ، ورفض إصراره على أن يمسك بكل الخيوط فى يده ..

راعه أن صاحب الباب هو الذى يتولى النظر فى المظالم . يجلس فى باب الذهب . بين يديه الحجاب والنقباء . ينادى المنادى بين يديه : يا أرباب الظلامات ، من كانت ظلامته مشافهة أرسلت إلى الولاة والقضاة رسالة بكشفها ، ومن تظلم ممن ليس من أهل مصر أو القاهرة ، تسلم الحاجب منه قصة أمره . يحمل مجموع الرسائل إلى الموقّع بالقلم الجليل . مفروض أنه يبسط ما أشار إليه الموقّع الأول ، ثم تحمل فى خريطة إلى الحضرة ، فيوقع عليها . تخرج فى الخريطة إلى الحاجب . ينادى ـ فى باب القصر ـ على أصحاب التوقيعات . يتسلم كل واحد رقعته . غابت الخطوات الأخيرة بتدبير صاحب الباب ، فهو يوقّع على ما اتخذه ، ويسلم صاحب كل رقعة ما يخصه ..

لم يتحول أمير المؤمنين عما اعتزمه من أن يقبض بيديه على كل سلطان، ويشرف على كل كبيرة وصغيرة ، ويصرف الأمور بما تمليه إرادته ، وإن تهامست شائعات أن الصقلبى حامل مظلة الإمام فى المواكب الرسمية ، هو الذى حرّض الإمام على برجوان ، ليأخذ محله . ساعد الإمام على اتخاذ قراره ما نصح به أخته ست الملك وأعداء برجوان ..

قالت ست الملك :

ـ من خليفة هذه البلاد .. أنت أم برجوان ؟

تعثرت الكلمات على شفتيه :

ـ أنا منذ اعتلائى كرسى السلطنة .. أوقع على ما يطلبه برجوان ، وليس على ما أقتنع به ..

ومد شفته السفلى دلالة الحيرة :

ـ الكتاميون يخضعون لإرادته ..

هزت قبضتها :

ـ هناك الجند المشارقة ..

تملكه إحساس بالمحاصرة :

ـ لعلى أدفع ثمن خطأ أبينا بإدخال الأتراك والسودان فى الجيش الفاطمى ..

وهى تهز قبضتها :

ـ العبرة بالقيادة وليست بالجنود ..

تثق أن برجوان يتطلع إلى ما لم يبح به حتى لخواصه . السرير الذهب ، والإسطبلات ، والطباق ، والمطامع ، والجوارى ، والعبيد ، والخدم . يؤدى دور السلطان ، وإن أهمل التسمية . يحرص على تجنب المؤاخذة ، وغضب الطوائف المتصارعة ، ومن يدينون بالولاء للبيت الفاطمى ..

هشت ذبابة بظاهر كفها :

ـ إنه يصفك بالوزغة ..

قال فى صوت محترق :

ـ أعرف ..

ـ فلماذا تسكت ؟

ـ علمتني أن أعتصم بالكتمان ..

ـ المهم أن تتقى منه ما فعله كافور مع أولاد الإخشيد ..

مالت ناحيته فى هيئة من اتخذ قراراً :

ـ تخلص منه بقتله ..

وهو يحك ذقنه بإصبعه :

ـ أقتله ؟!

خبطت صدرها :

ـ من قال ؟

وأصلحت الشال المنحسر عن رأسها :

ـ دع تدبير الأمر لى ..

ظل أمير المؤمنين يتحين الفرص ليقضى على برجوان ، حتى تمكن من قتله ..

أوكل إلى قائد القواد الحسين بن جوهر مهمة قتل برجوان . استدعى ـ ذات ليلة ـ وزيره للركوب معه إلى المقس . قدم برجوان فى موكبه المألوف . دخل إلى الباب الذى يغادر منه الإمام ـ عادة ـ القصور الفاطمية . استقبله فى حدائق قصر اللؤلؤة ، يطل على الخليج ، بالقرب من باب القنطرة . متنزه للخلفاء منذ أيام المعز ، يتصل بالقصور عن طريق سراديب وأقبية تحت الأرض ، يدخلون فيها بالدواب ، فلا يراهم أحد . سلم الحضرة على برجوان ، وسار إلى حيث اختفى داخل الحدائق . كان آخر الموكب آخر الدواب حين علا صوت الخادم عقيق بالهتاف :

ـ قُتِل مولاى !

قال الرواة إن برجوان واصل تفقد ما أمر بإضافته إلى الحدائق من زروع وبنايات . تقدم ناحيته الصقلبى زيدان حتى لامسه ، وهو يعتذر بأن

انشغاله بخدمة الحاكم ربما شغله عن خدمة الوزير . تحسس فى الملامسة ثوب برجوان ، حتى اطمأن إلى أنه لم يرتد درع الحديد . قبل أن يبدى الوزير استغرابه ، كان زيدان قد طرحه أرضاً . ساعدت المفاجأة فى سقوطه . ثنى زيدان ما فعل بضرب برجوان بقطعة حديد ضربة قوية فى موضع القلب . خرج الحضرة من ستره ، فطعن برجوان برمحه ، ونزعه عنه. أخلى الصقلبى لجماعته جسد برجوان ، فواصلوا طعنه ، ثم احتزوا رأسه، ودفنوه فى موضع قتله ..

تطلع الحضرة ـ بنظرة سريعة ـ إلى القصر الصغير . يثق أن أمه وأخته تقفان وراء الستر ، تتابعان ما أشارت به ست الملك ، وخططت لتنفيذه ..

عاد الإمام إلى القصر ، تسبقه الهمسات والصيحات والصرخات والأسئلة . غلبت الدهشة التصديق لمقتل برجوان . حتى العسكر من المشارقة والمغاربة تجمعوا بالأسئلة أمام القصر . أطل الإمام من نافذة على ساحة القصر يتبين النتائج ..

قال زيدان للمحسوبين على الوزير المقتول :

ـ من كان فى الطاعة ، فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور ..

انصرف الرجال ، وإن ظلت الأسئلة معلقة ، والخوف داخل النفوس ..

قال أمير المؤمنين لست الملك :

ـ كان الرجل سيئ الأدب جداً ..

ثم وهو يغالب الانفعال :

ـ والله إنى لأذكر حين صار إلىّ ورجله على عنق دابته ، وبطن خفّه قبالة وجهى ..

وشرد فى عوالم غير مرئية :

ـ لكنى لم أفطن إلى نياته إلا فى قول الخادم زيدان : إن برجوان يقصد أن يفعل بك كما فعل كافور الإخشيدى فى أولاد سيده ..

قالت ست الملك :

ـ أراحك الله منه ، فأرح نفسك من العشرات الذين يشوهون حكم آبائنا!

أشفق أمير المؤمنين من أحداث لم يضعها زيدان فى حسابه . استدعى أمير المؤمنين الرئيس فهد . طمأنه على نفسه ، وأقرّه فى منصبه من تولى الكتابة ، وجعله على رسمه ..

بدا قتل الإمام لبرجوان شرارة ، كادت نيرانها المرتقبة تحرق القصر ، ومصر كلها . علت طبول الحرب . تواجه المغاربة والمشارقة فيما لم يضع الحضرة له حساباً . ثمة زويلة ، وكتامة ، والبرقية ، والمصامدة ، وصنهاجة . يسكنون فى معسكرات ، أو حارات ، أشبه بالمدن . المصامدة وحدهم لهم حارة بها أكثر من عشرين ألفاً . وثمة الأتراك والأكراد والأرمن والسودان وغيرها ..

قدم الناس إلى القصر فى نجمة الصباح . علت الأصوات فى احتشادهم أمام الباب ، حتى أذن لهم الحسين بن جوهر بالدخول إلى ساحة القصر ..

لم يعد أمام أمير المؤمنين إلاّ أن يفسّر ما حدث ..

خرج على فرسه ، ورجاله من حوله . قال للملامح الخائفة ، المتسائلة :

ـ إن برجوان عبدى .. استخدمته فنصح ، فأحسنت إليه ، ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته . والآن ، أنتم شيوخ دولتى ..

وأشار إلى كتامة ..

ـ أنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم ..

والتفت إلى الأتراك :

ـ أنتم تربية العزيز بالله ، ومقام الأولاد ، وما لكل أحد عندى إلاّ ما يؤثره ويحبه ، فكونوا على رسومكم ، وامضوا إلى منازلكم ، واضربوا على أيدى سفهائكم ..

واستدعى أمير المؤمنين فهد بن إبراهيم :

ـ أنت كاتبى .. وصاحبك عبدى .. وهو كان الواسطة بينى وبينك ، وجربت معه أشياء أنكرتها عليه ، فجازيته عليها بما استوجبه ، فكن أنت على رسمك فى كتابتك ، آمناً على نفسك ومالك ..

واتجه الحضرة إلى رجال الدولة :

ـ إن هذا فهداً . كان أمس كاتب برجوان عبدى ، وهو اليوم وزيرى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، ووفوه شروطه فى التقدم عليكم ، وتوفروا على مراعاة الأعمال ، وحراسة الأموال ..

قبل فهد والحضور الأرض بين يدى أمير المؤمنين ، وأعلنوا الخضوع والطاعة ..

تأمل فهد بن إبراهيم فى وقفته المستذّلة :

ـ أنا حامد لك ، وراض عنك ، وهؤلاء الكتاب خدمى ، فاعرف حقوقهم ، وأجمل معاملتهم ، واحفظ حرمتهم ، وزد فى واجب من يستحق الزيادة بكفايته وأمانته ، وتقدم بأن يكتب إلى سائر البلاد والأعمال بالسبب الواجب لقتل برجوان ..

علت الأصوات بالدعاء ، وقبل الرجال الأرض تحت قدمى الحضرة ، وانصرفوا ..

أمر فهد بن إبراهيم بكتابة سجل يشرح بواعث ما حدث ، ويدعو الناس إلى كتم الانفعال والتسرع ، وإلى رفع مظالمهم ـ مباشرة ـ إلى مقام الحضرة . قرئ السجل فى جوامع مصر والقاهرة وفى سائر النواحى

والأعمال : " إن برجوان كان فيما مضى عبداً ناصحاً ، أرضى أمير المؤمنين حيناً ، فاستخدمه كما يشاء فيما يشاء ، وفعل به ما شاء ، كما سبق في العلوم ، وجاز عليه في المختوم . قال الله عز وجل : " ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزّل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير " . ولقد كان أمير المؤمنين ملَّكه ، فلما أساء ألبسه النقم ، لقول الله تعالى : " فلما آسفونا انتقمنا منهم " ، وقوله عز وجل : " إن الإنسان ليطغى . إن رآه استغنى " ، فحظره أمير المؤمنين عما صبا إليه ، ونزعه ما كان فيه، وتمت مشيئة الله عز وجل ، ونفذ قضاؤه وتقديره فيه " وكان ذلك في الكتاب مسطوراً " ..

ونقل الكاتب عن الإمام نصحه للتجار وأرباب الحرف بأن يهملوا ما حدث، ويعودوا إلى أشغالهم . وقال إنه يباشر بنفسه أمور الحكم ، وإن بابه مفتوح بينه وبين الرعية . وصدر سجل قرئ في القصر : " معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين ، إن الله ـ وله الكبرياء والعظمة ـ أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأئمة ، فمن أقدم ـ بعد قراءة هذا المنشور ـ على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة بسيدنا أو مولانا ، فقد أحلّ أمير المؤمنين دمه . فليبلغ الشاهد الغائب إن شاء الله " ..

ـ ١٣ ـ

هدم ـ بأمر أمير المؤمنين ـ قصر اللؤلؤة ، أو منظرة اللؤلؤة ، حيث كان يقيم برجوان ، وصودرت تركة الوزير : مائة عمامة ملونة ، وألف من السراويل الدبيقية بألف تكة حرير أرمني . وخلّف حجرات ملأى بالمقاطع والستور والفرش والوسائد والمساند والديباج ، وخزائن مملوءة بالثياب المصنوعة من الديباج ، والمحلاّة بالذهب ، والكثير من قطع الحرير والفراء

وكميات العطور والصينى والأصباغ والياقوت واللازورد والعاج ، والمئات من الكتب والمخطوطات ، والآلاف من العبيد والإماء . وعثر فى اسطبلاته على المئات من الخيل والبغال ومراكب الطيب والبقر والجواميس والغنم ..

ما لم تلحقه المصاردة من تركة برجوان ، أباحه الإمام لجنوده ..

ـ ١٤ ـ

قتل أمير المؤمنين برجوان ، فاسترد سلطانه الروحى والسياسى ، واستعادت الخلافة والدعوة هيبتهما ..

كان فى الخامسة عشرة . ما عاشه أضاف إلى سنى حياته . عين على الحسين بن جوهر الصقلى مكان برجوان . كان الخليفة العزيز بالله قد ولاّه القيادة بعد وفاة أبيه جوهر ، ثم قلّد فى عهد الخليفة الحاكم ديوان البريد والإنشاء . بدا أجدر رجال الدولة بتولى منصب برجوان . استدعاه الحاكم ، وخلع عليه . قلّده النظر فى أمور الدولة والتوقيعات . لقّبه فى سجل التعيين بقائد القواد . أفادته عبر ابن عمار وبرجوان . ظلت أفعالهما ماثلة أمام عينيه . يتذكرها ، فيكور قبضته ، ويكز أسنانه ، وتومض عيناه ببريق . أفلح الحسين بن جوهر ـ بالوساطة ـ فى أن يخمد النيران قبل انتشارها ، وإن تيقن الإمام من خطورة الاعتماد على إحدى الطائفتين ، فجعل لنفسه حرساً من العبيد ..

لم يعد أمير المؤمنين أبو على منصور ـ بعد تخلّصه من برجوان ـ حاكماً بأمر الله . هو حاكم بأمر نفسه ، لا يشغله تباين أوامره ولا تصرفاته ..

استبد بالأمور ، فلم يعد للوزراء دخل فى أمور الدولة ، ولم يعد لأهل الحل والعقد وأصحاب الشورى إلا أن يلزموا صامتين فى مقام الحضرة ، لا

يسـألون ، ولا يبـدون رأياً . عـاب على كـبـار مـوظفـيـه تقـاعسـهم عن أداء واجباتهم ، فانتشرت المباذل والشرور بين الخواص والعوام ..

قـال إنه لن يظل مكتـوف اليـدين أمـام التـصـرفـات الشـريرة ، وإن الصراعات بين الأفراد يجب ألا تنعكس على حياة الناس . أمر ونهى ، ونظر فى الأموال ، وشدد فلا يطلق لأحد شئ إلا بتوقيعه ، ولا ينفذ إلا ما أمر به .

غلب عليه دوام التلفت . وكان يحدق فى عينى محدثه ، يخمّن ما إذا كان صادقاً في كلامه أم أنه يكذب . وكان يغلّب السوء ، والميل إلى الشر والأذى، ويكثر الانتقال من حال إلى حال ، ولا يملك نفسه عند الغضب . ربما تغيرت نفسه لشك اقتـحم سكينتـها ، فيطرد كل من فى مـجلسـه ، ويـأمر بإطفـاء الأنوار . يتأمل الظلمة ، ويشرد فى المدى ..

لم يوقف عـادته فى الخـروج إلى الفـسطـاط للنزهة والتـرويـح . ربما ركب جواده ، ومضى ـ مع قلة من خدمه ـ للصيد والنزهة فى ناحية سردوس ، أو بركة الجب ، أو عين شمس ، أو حلوان ..

لجـأ إلى الحيلة فى استـمـالة آل الجـراح ، حتى تخلوا عن أبى الفتـوح ، ودس للمفرج من قتله بالسم ، واستمال ـ فيما بعد ـ الحاكم قرواش بن مقلد، فخطب له ـ حيناً ـ بالموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها ..

# الصـــــراط

## - ١ -

صحبها الخادم النوبى - فى اليوم الثالث لمقتل برجوان - إلى قصر الجهة العالية ست الملك . مضت - من خلفه - تتعثر بالمفاجأة - فى دروب وعطوف ، حتى انتهت إلى بوابة عالية موصدة ، حرك الخادم النوبى سقاطتها ..

عندما ولجت إلى الصحن الواسع . أيقنت أنها فارقت حياة المغامرة . القصور تصل بينها أروقة مغطاة بالحصباء . الأسوار من الحجارة المنقوشة، والجدران مكسوة بالرخام الأبلق . وثمة تمثالان لأسدين من الرخام ، على جانبى الدرجة الأولى من السلم الرخامى العريض فى القصر الذى سبقها الخادم فى صعوده ..

استكانت إلى الملل والرتابة فيما تلا من أيام . يخترقها الشعور بالوحدة بين القائمات بأعمال القصر العادية من المستخدمات ..

أخذت جانباً فى البداية . أربكها التخوف من أن تغلب السذاجة على رأى أو سؤال ، أو أن تواجه بالعداء . آثار تصرفها الضغينة فى الجوارى . فسرن ما تفعله بأنه حرص على الاستعلاء .

رمقتها جارية حبشية بنظرة ساخطة :

- هل تترفعين عن الجلوس مع الحبشيات ؟

ومصمصت شفتيها :

- البياض على الجدران ..

قالت خيرات :

- والسواد فى القلوب ..

إجادتها للعربية والفارسية والتركية والحبشية والشركسية ، أتاح لها الفهم والأخذ والرد .

قالت جارية :

- مهما اجتهدت في التميز عنا فستظلين واحدة من خادمات السيدة الشريفة ..

ورمقتها بنظرة متحدية :

- كلنا إما جوار أو محظيات ..

وهزت رأسها :

- لا فرق !

قالت جارية :

- لولا أن ست الملك رأت فى خيرات خصالاً جميلة .. ما خصتها بالرعاية!

لم يكن فى حياة الجوارى إلا التزين والطعام والجلوس والاستحمام والنوم والغناء والرقص والتطلع للزواج من أحد الوجهاء . حتى القهرمانات يبلغن العشر ، يقمن بشئون ست الملك ، فلا يتركن منفذاً إلى حجرة النوم ..

أهملت الغيرة فى ملاحظات الجوارى وتصرفاتهن . حل الخوف وحده فى نفسها حين سبقها الرجل إلى جناح ست الملك . هل تدفع عمرها للدور الذى أدّته فى قصر برجوان ؟

حدجتها ست الملك بنظرة مشفقة :

- كيف أحوالك ؟..

وهى تزدرد ريقها :

ـ الحمد لله ..

ـ دورك في خدمتنا لم ينته ..

استدركت :

ـ بعودتك إلينا ..

هزت رأسها ، فومض شعرها بالألق ..

تمضى الساعات تحت قدمى ست الملك فى عزلتها داخل القصر الغربى . ترتدى ما يشى بأنها تدير الحكم : حول رأسها عصابة . شال على هيئة مثلث ، طرفاه إلى الوراء ، كللت بالدر والجواهر ، ويتدلى من أذنيها قرط على هيئة هلال ، وتضع فى إصبعها خاتماً من الذهب ، به فص من العقيق الأحمر ، يحيط به إطار بيضاوى ، وتلف حول وسطها حزاماً من القماش الديبقى ..

أقامت فى القصر الغربى ، أو قصر البحر ، أو القصر الصغير ، منذ شيده العزيز بالله . وجدت فى قربه من القصر الكبير ، واتساع قاعاته وحجراته وردهاته ، ما يغريها بالبقاء فيه ، هى والحاشية والخدم . تركت تنفيذ ما تطلبه منهم للخادم عطوف ..

تستسلم خيرات ـ أحياناً ـ للشعور بأن ست الملك هى أمها ، وأنها تستطيع أن تأخذ منها وتعطى ، كما تأخذ الابنة من أمها وتعطى ، لا كعلاقة الجارية بسيدتها . تثق أنها خلقت للأمومة . مظهرها المتجهم لا يلغى ما فى نفسها من طيبة وحب وميل إلى المؤانسة . تلحظ شرودها ، ونظراتها المتطلعة إلى القصر الخلافى عبر ميدان بين القصرين . مجموعة من البنايات والقصور الصغيرة والقاعات والأقواس والإيوانات والخزائن والحمامات والنافورات والرخام الملون . تتركز فيه حياة البلاط ومجال الحضرة ، ومنه كانت تخرج المواكب الاحتفالية . الهيبة تبين فى تصرفاتها ، لكن شرود النظرة يشى بما تعانيه فى داخلها ..

لم يعد لها فى القصور الفاطمية ما كان لها من آراء صائبة . لا تذكر أنه ندم ـ فى يوم ما ـ على الأخذ بمشورتها ونصائحها . ساء أمير المؤمنين أنها تريد أن تخضعه لسلطانها . أثاره ما نقله الأرصاد عن الناس فى الأسواق من أنه خضع لرأى ست الملك وهواها ، وأنه لا يأخذ قراراً ، ولا يصدر سجلاً ، إلا بعد أن يطلب موافقتها ..

شحب الوجه ذو القسمات الرائقة ، وغابت النظرة التى تربك من تحدثه . تجاوز العزلة فى كلمات هامسة لا تنتظر رداً . كانت تستدعى رجالاً ملثمى الوجوه ، ينصتون إلى ملاحظاتها وأوامرها ، وينصرفون . وكانت تبذل ـ بما لا يخفى على فهمها ـ للكاتب ، والموظفين ، وطائفة العطوفية فى داخل القصر ، وطائفة القيصرية التى تصطحبها فى المرات القليلة خارجه . لم تضع فى بالها أرصاد لا يفطن إليهم أحد فى داخل القصور الفاطمية ، يراقبون التصرفات ، ويتنصتون إلى ما تعلو به الأفواه ، وإلى الهمسات . يبلغون مقام أمير المؤمنين ـ فى اللحظة التالية ـ ما تفوح منه رائحة الدس والتآمر ..

لم يعد يناديها : ست الكل ، ولا يصفها بالسلطانة ..

أدركت أن حبها زال من نفسه . ضاق بنصائحها وتدخلها فى أمور الحكم . هو الحاكم بأمر الله . ليست مجرد تسمية . ذلك ما ينبغى أن يحرص عليه . هى امرأة ، والنساء موضعهن البيت . غاظه ما نقله إليه الأعين أن نساء القصور الفاطمية يتدخلن فى أمور الحكم . حتى العمة عبدة ، الابنة الثانية لجدها المعز ، لم يعد منصور يخفى تعجله موتها ، فيأمن تدخلها فيما ليس من شأنها ، ويرث ما تملكه من ذهب وفضة وجواهر وأمتعة لا حصر لها . ست الملك هى أخته . طالما بذلت له النصح فى سنى طفولته . اختلف الوضع ، فلم يعد على ست الملك أن تبذل نصحاً . صفة نساء القصور تعنى ـ أول ما تعنى ـ ست الملك . هل تدرك خطورة ما تفعله؟.

تنبه إلى أنه لم يحسب حسابها . أزاح من يعوقونه عن ممارسة الحكم ، وأهمل تدخلها فيما ليس من مهامها . لم يعد يعتمد على رأيها فيما يواجهه من مشكلات ، أو يلتجئ إليها . عمل على الحد من نفوذها ، وتدخلها ، ودفعها إلى التزام العزلة .

ولدت فى ٣٥٩ هـ . بعد الفتح الفاطمى لمصر بنحو عام . قدمت إلى مصر مع والدها العزيز فى ركب جدها المعز فى أواخر ٣٦٢ ..

كان أبوها العزيز يلجأ إلى رأيها فيما يواجهه من مشكلات . ظل لرأيها قيمته فى الأعوام الأولى من حكم أخيها منصور . تبدى الرأى حتى فى المواقف التى لا تطلب مشورتها . كانت فى السادسة والعشرين من عمرها ، وكان أبوعلى منصور فى الثانية عشرة . قبل - بالامتنان - هديتها : ثلاثين جواداً عليها سروج مرصعة ، ستاً وعشرين بغلة مسرجة ، ملغمة ، وخمسين خادماً ، منهم عشرة صقالبة ، وتاج مرصع ، وشاشية مرصعة ، وأسفاط كثيرة من طيب ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر . ظلت تمده - منذ وفاة أبيها - بالنصح والتوجيه ، تشير بما تراه الصواب ، تصد ميله إلى العنف بحكايات ترويها ، أو بإيماءات وتلميحات . ألفت استشارة الإمام لها فى الكثير من الأمور . أفادته آراؤها فى التخلص من ابن النعمان وابن عمار وبرجوان ..

الأعوام الستة عشر التى تفصلها عن أخيها أبى منصور تهبها الحق فى أن تشير ، وتنصح ، وتقرر ..

- ٢ -

قالت ست الملك :

- أعدى نفسك لمهمة أخرى ، أثق أنك ستؤدينها بما عرفته فيك من همة..

تقضت أيام حتى استوعبت أنها أصبحت واحدة من حريم الإمام الحاكم بأمر الله ، واحدة من ألوف الجوارى اللائى تغص بهن القصور الفاطمية . تحاول كل واحدة أن تكون لها الحظوة فى نفس القهرمانة . حذرتها ست الملك من أساليب التآمر والدهاء ودس السم والوشاية والنميمة والكذب . ذلك هو عالم الجوارى الذى لابد أن تتنفس هواءه فى القصر الفاطمى . لم يرها الحضرة ، ولا تعرفت إلى صورته ، وإن استقر فى بالها ما يرويه الخصيان والجوارى والخدم عن ميله إلى تعذيب من تلامس غضبه . " المحول " ، الرواق الخاص بحريم القصر الفاطمى . تنصت إلى الأحاديث ، وتتابع الأسئلة والأجوبة . توافق - فى نفسها - وترفض ، وتتأمل . تتحرك فى أرجاء القصر ، وتجلس ، وتقرأ ، وتنظر من أخصة المشربيات . لا تكلفها " القهرمانة " بعمل ما..

قالت القهرمانة :

- أنت ضيفتنا من عند أخت الحضرة .. فنعاملك معاملة الأضياف !..

ضايقها افتقاد ما تبلغه لست الملك . بوسعها أن تمضى إلى القصر الصغير . يتبعها الخادم النوبى ، فتروى ما تنصتت عليه ، أو شاهدته ، وتعود . داخلها الملل من حياة الطعام والرقص والغناء والرقص والنوم والاستحمام والتزين وترقب استدعاءات صاحب القصر . ألفت التردد على القصور التى يضمها القصر الكبير الشرقى : القصر الصغير الغربى ،

القصر النافعى ، قصر الذهب ، قصر الشجرة ، قصر الحريم ، قصر الشوك ، قصر النسيم ، قصر البحر . ألفت سحن نساء القصر الكبير الشرقى ، والقصور الصغيرة فى داخله : زوجات الحضرة وأخواته وبناته وعماته وجواريه . تنتقل ـ من طريق السرداب ـ بين غرف قصر الحضرة وقصر الحريم ..

تعثّرت فى هرولتها وهى تستعيد ما تهامست به الجاريتان في الحجرة المغلقة . اندغمت بعض الكلمات ، أو وصلت غير واضحة ، لكن ما استمعت إليه ـ خبرتها الآن طويلة ـ يشى بأن متولى الديوان ينسب إلى أمير المؤمنين ما لم يصدر عنه . يهمّه أن ينقل الخدم والجوارى ما يدسّه على الحضرة إلى أولاد الناس والعوام خارج قصور السلطان ..

اكتفت ست الملك بهز رأسها ، والإنصات . استوضحت كلمات قليلة ، وأشاحت بيدها :

ـ أحسنت .

حين تحدثت الجوارى عن سمل المشاعلى لعينى متولى الديوان ، وقطع لسانه ، أدركت أن ما روته لست الملك نقلته ست الملوك ـ بواسطة الرجال الملثمى الوجوه ـ إلى أخيها .

ـ ٣ ـ

قال الرواة : خلع الحاكم على الحسين بن جوهر ثوباً أحمر ، وعمامة زرقاء ، وأهداه فرساً بسرج ولجام من الذهب . لقّبه بقائد القواد ، ورد إليه التوقيعات والنظر فى أمور الخلق ، وتدبير المملكة ، وإنصاف المظلوم . جعله مقاسماً لفهد فى السلطة ، فلا ينفرد بأمور الدولة ، ولا ينسى موضعه

بالقياس إلى مقام الحضرة ، وإن زاد أعوانه ، فأشاعوا أن الحضرة فوض إليه تدبير ممالكه وكفالته ، وجعل له إمارة جيوشه وكفالة القضاة ..

جلس للوزارة يرتدى دراعة قصيرة مفتوحة من الأمام ، من النحر إلى أسفل الصدر بعرى وأزرار من لؤلؤ ، ووضع على رأسه عمامة ذات طبقات ، نزل طرفها فدار حول الحنك ، وتقلد سيفاً محلى بالذهب ..

قال لأعوانه :

ـ هيبة الوزير من هيبة الإمام ، واهتمام الوزير بهيئته تعبير عن هيبته !

ـ ٤ ـ

بدا مختلفاً عن سابقيه . هو الامتداد الجميل لأبيه جوهر . قام جماعة من الأتراك ، ينتظرون مقدمه . أوقف جواده ، واتجه إليهم بنظرة لوم :

ـ كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومماليكه ، وليس والله أبرح من موضعى ، أو تنصرفوا عنى ، ولا يلقانى أحد إلا فى القصر ..

منع استقبال الناس فى بيته ، وجعل خدماً من الصقالبة يتناوبون الوقوف على الطريق ، يمنعون الناس من السير إلى داره ، فلا تعرض الرقاع إلا فى القصر ، فى الموضع الذى حدده . لقبه الرسمى " القائد " دون تعظيم أو تفخيم . من يريد لقاء الحضرة تذلل له الطريق . شدد على أنه لا يجوز لأحد ـ مهما يغزر علمه ـ أن يعلم شيئاً من أمور الدين وفرائض العبادة ، بغير أمر من الإمام الحاكم بأمر الله ، القائم مقام النبى . ومن تجرأ ، فنطق عن الهوى ، اعتبر متعدياً وضالاً ، وحق عليه العقاب . أذاع سجلاً قال فيه ـ بعد البسملة ـ " معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين . إن الله ـ وله الكبرياء والعظمة ـ أوجب اختصاص الأئمة بما لا

يشركها فيه أحد من الأئمة . فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة ، سيدنا ومولاناً ، فقد أحل أمير المؤمنين دمه . فليبلغ الشاهد الغائب إن شاء الله " ..

نبه مسعود الطماوى إلى أن العرائض والشكاوى ترفع إلى أمير المؤمنين، وليس إلى أى موظف ، مهما تسمو مكانته . وكان إذا مثل بين يدى الإمام ، لا يثبت على قدميه فى حضرته . يتقافز على ركبتيه ، وهو يمضى مطأطئ الرأس ، فى اتجاه مجلسه . وفعل للخليفة كل ما كان من الخضوع والذلة والمسكنة . لا يناقش ، ولا يعارض ، وينفذ ما يأمره به أمير المؤمنين دون أن يوازيه بملاحظات ..

عين الحسين بن جوهر عبد العزيز بن محمد بن النعمان فى منصب قاضى القضاة ، خلفاً لأبيه ، وقصر عمله على ما تطلبه مهام الوزير ، فهو يكتفى بتقديم المشورة للخليفة ، وينفذ ما يصدره من أوامر . لم يعد ثمة وزراء ، إنما هم وسطاء يباشرون العلاقة بين أمير المؤمنين وبين الناس ..

قال الرواة إن إدارة الدولة صارت فى يد أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله . جعل الأعين على الحسين بن جوهر ، وحد من تصرفه ، فهو لا يتحرك إلاّ فى إطار لا يجاوزه .

كان أول ظاهرة لعشق الإمام الحاكم لليل ، عندما نظم مجلساً ليلياً يحضره الخواص وأكابر رجال الدولة . تطرح فيه القضايا والمشكلات ، وتؤخذ الآراء . الرأى الذى يجد فيه الإمام وجاهة ، يقرّه ويأمر بتنفيذه ..

أمر بأن تعلق القناديل على الدكاكين والدور ونواصى الحارات والشوارع..

صار له مظهر الجبابرة : الطلعة المهيبة ، والجسد الطويل ، المتين ، والعينان الواسعتان السوداوان ، وإن تمازجهما زرقة ، والنظرات الحادة ،

المتوجسة ، إذا التقت عينا محدثه بهما ، يخفضهما ، فلا يرتبك ، والصوت القوى يقتحم بالخوف من يقف أمامه . هو لم يسترد ملكه من ابن عمار وبرجوان وحدهما ، وإنما استرده من جماعات العسكر المشارقة والمغاربة ، فهو قد صار دائم الشك في ولاء من يعملون فى خدمته ، ويرقب - بعينى الحذر - من يسعون إلى الفساد والإفساد ..

- ٥ -

مضى من الجانب الشمالى للجامع العتيق إلى سوق القناديل . ثمة مسابك الزجاج ودكاكين الشمع والقناديل والمصابيح ..

البيت يتجه إلى الداخل . جدرانه المطلة على الطريق مصمتة . له فناءان مستقلان ، حتى تحتجب النساء عن الأعين الغريبة . كل فناء محاط برواقين من جانبيه ، والرواق يفضى إلى صالة واسعة تحيط بها أبواب خشبية ، مغلقة ، من ضلفة واحدة . دفع الباب . مضى إلى مدخل آخر ، ضيق ، طويل ، فى نهايته فناء واسع ، مترب ، حوائطه مطلية بالجير ، عليها رسوم أحجبة ، وأكف ، وقوافل حجيج ، ورسم للكعبة . تتوسطه فسقية معطلة ، وتحيط بها حجرات مفتوحة ، أو مغلقة . يعلوها طابق واحد يصله ببقية المبانى سلالم من ناحية اليمين ، وتمتد أمامها طرقة بامتداد المكان ، يحدّها سور من الحديد الأسود المتشابك . عرف أن زوجة الشيخ مصابيح تقيم فى واحدة من تلك الحجرات . أبناؤه وأحفاده يترددون عليه ، وإن أقاموا - بأمر منه - فى شوارع ودروب قريبة ..

صعد السلم ، ونقر بأصابع مترفقة على الباب الأول ..

تبين فى الضوء الخافت ملامح الشيخ مصابيح : الوجه الأبيض المشرب

بالحمرة ، والعينين اللامعتين تطل منهما نظرة هادئة ، والشارب المحفى ، والذقن البيضاء كهالة ، والعصفور الأزرق الموشوم على الصدغ ، والابتسامة الرائقة مثل شمس صغيرة ..

همس :

ـ المعلم أكرم الديرى ..

استطالت قامته فى ضوء القنديل المتدلى من السقف . تضاءلت الاستطالة فى دخوله من الباب ، حتى تلاشت تماماً ، وامتدت الاستطالة من الناحية الأخرى . الحجرة مستطيلة ، أقرب إلى الضيق . الأرض فرشت بكليم مصنوع من قطع القماش المتباينة الألوان . على الحائط مسماران علق عليهما ثيابه ، ورسوم لسفينة نوح والمخلوقات التى عليها . الكنبة الخشبية ذات الوسائد المحشوة بالقش ، للجلوس والنوم ، والكتب مكومة على الأرض ولصق الجدران ..

عرف الشيخ بنفسه : تاجر فى الكتب ، يقضى معظم وقته فى أسواق الوراقين ، يبيع ويشترى ويلتقى بالكاتبين والناسخين وطلاب القراءة . حفظ كتاب الله ، وصحيح الحديث وضعيفه ، وناسخ الحديث ومنسوخه ، وأخبار الرسول ، وعرف سير النبى ، وسير الخلفاء والصحابة والتابعين . يذكر زيارته لأرض الحجاز ، طوافه بالكعبة ، سعيه بين الصفا والمروة ، الوقوف على عرفات ، رمى الجمرات ، الارتواء من ماء زمزم ..

التقى بالشيخ مصابيح ـ للمرة الأولى ـ فى سويقة الوزير . صحبه ناسخ للكتب من مريدى الشيخ ..

كان يلتقى بمريديه فى السويقة . يعفيه الزحام من الأعين الراصدة والآذان المتنصتة . وكان يحرص على أداء الصلوات الخمس فى زاوية أول السويقة . أما صلاة الجمعة فيسعى لأدائها فى الجامع الأزهر . جماعات

المصلين تفترش الأزقة المحيطة بالجامع . يتلقون كلامه كأنه السحر . يعيب على موظفى أمير المؤمنين أنهم يفعلون ما لم يقض به الله ..

قال المعلم :

ـ ألم يكن ابن عمار أستاذه ؟ ألم يمنحه الأمان ؟

قال الشيخ مصابيح وهو يتأمل ندبة عميقة فى خد الديرى ، حدس أنها من ضربة سيف ، أو طعنة خنجر :

ـ كان برجوان وصيه وأستاذه ، لكنه عاملهم بالغدر الذى علمه إياه ، وعامله الناس به !

قال الرواة إن الشيخ مصابيح كان يعمل سقاء فى الجامع العتيق . وكان من مريدى الشيخ معتمد الدمنهورى . يجلس إليه ، بمفرده ، ومع الجماعة . يخلص فى تلاوة القرآن ، وقراءة الأذكار ، والاستماع إلى الدروس الدينية . ينصت إلى دروسه فى فقه الدين ، وفى معنى العدل ، وواجبات الحكام ، وحقوق المحكومين . يبحث عن القراءات التى يدله عليها . تبحر فى علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان . ما يستعصى عليه فهمه يوضحه له منير أبو المجد النساخ بسوق الوراقين . قرأ فى الفقه والحديث واجتهادات الأئمة الراسخين ، وكان كثير الحفظ ، كثير الرواية أيضاً . استضاء بنور العلم ، فصار بعيد النظر والرؤية ، واستقر فى يقينه أن العلم بلا قيمة ما لم ينقله المرء لغيره ..

أدرك ـ بكلمات الشيخ ـ أن الفقه الدينى سبيل المرء إلى الحياة الآخرة . أما الحياة الدنيا ، فلها طريق أخرى يجب على سالكها أن يتوخى الحذر ، وأن يفطن إلى المزالق والعثرات ، ويتوقع الغدر وفقدان العدالة ..

روى الشيخ مصابيح لخاصة مريديه أن الشيخ معتمد الدمنهورى ظهر له فى المنام ، ليلة قتله بتدبير ابن عمار ..

قال الدمنهورى :

ـ يا مصابيح .. ثأرى أمانة فى عنقك !.

لم يكن يعرف أنه رأى رؤية العين ما توهم أنه رآه فى المنام ..

بدا الشيخ مصابيح ـ من يومها ـ كأنه قد تحول عن مهنته . التزم العزلة، وفرغ نفسه للعبادة ، والتهجد ، وأداء الفرائض . إذا ترامى صوت المؤذن ، ترك ما بين يديه من أعمال ومهام ، وانصرف إلى تأدية الصلاة . وكان يداوم على الصوم كل اثنين وخميس ، على توالى الأيام . وقيل إنه كان يمتلك عصا النبى صالح ، تدور مع الشمس ، وفى اتجاهها . يعرف الوقت من تحركها ، فيؤدى كل صلاة فى وقتها ..

اعتاد الناس رؤيته وهو يجلس على مصطبة لصق الجدار ، خارج أسوار القاهرة الشمالية . يتحلقون حوله . يواصل الحكى والكلام ، ويستعيد الواقفون ما يقوله . يسير فى الأسواق والشوارع ، وبين الدكاكين والبيوت . يتحدث فى الناس ، يقرأ عليهم ألواناً من الرقائق والحديث والتفسير ، محملة بالإيماءات والتحريض . لا يقول شيئاً ، ولا ينصح بشىء إلا إذا أكده بآيات القرآن الكريم وأقوال الرسول ..

كان يطيل القيام والسجود والأدعية . يعلو صوته بما لم يألفه الناس فى أدعية المشايخ الآخرين . يطلب من الله أن يرحمه من عذاب الدنيا قبل أن يرفع عنه عذاب الآخرة . وكان يقول فى دعائه : يا رب ، اهبط بالرحمة على عبادك فى الدنيا ، فويلاتها أقسى مما تنذرنا بيوم الحساب العظيم . ويقول : دعوتنا ألا نلقى بأنفسنا إلى التهلكة ، فماذا نفعل حين تواجهنا تهلكات لا نقوى على ردها ؟ ويقول : إنى أثق فى واسع رحمتك ، لكننى أستغيث بك من ظلم الآخرين ..

قال الرواة إن الشيخ مصابيح كان يعهد إلى كبار مريديه بما يحرضون الناس عليه ، ثم يفرغ إلى مسائل الفقه . يدرس ويسمع ويجيب . يأمر

بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويعنى بتحقيق وجوه الحلال والحرام ، وإثبات حقوق الخواص والعوام ، ويشرح للناس ما غمض من أمور دينهم . يقتصر عليها ، فلا يبين أنه تشغله أمور الدنيا . قطع العلائق بينه وبين حياة الناس . ربما استغرقته ساعات وجد ، ينشغل فيها بما لا يراه أحد ، ولا يتبينه مخلوق ، يستوحى الغيب ، ويتصل بعالمه ، ويدرك مجاهيله ، فلا شأن له بأحوال الناس ، ولا بمشكلاتهم . ترك لمريديه تدبير المسائل الدنيوية ، وأمور المعيشة ، وإصلاح الأحوال ..

عرف عنه القسوة فى صراحته ، لا يدارى ولا يداهن ، ولا ينظر إلى الأمور من زاوية المجاملة ، أو الضعف ، أو الخوف من ردود الأفعال . وكان إذا رأى ما ينكره من آلات الملاهى والمجون وغياب النفس ، بادر إلى تحطيمه . لا يعبأ بصاحبه ، ولا إن كان فى بيت كاتب أو قائد أو أمير ..

وقال رواة إنه ادعى الانجذاب ليعلن رأيه ، ليعبّر عما بداخله فيما يراه ، دون خشية أذى . هو يبصر مالا طاقة لأعين الناس على مشاهدته ، وينصت إلى ما تعجز آذان البشر عن سماعه . انكشفت له الغيوب ، ورأى الملائكة رؤية العين ، واطلع على أرواح الأنبياء ، وعاين المعجزات التى خصهم الله بها . وقيل إنه كان على صلة بالجن ، يتحدث إليهم ، ويصدر لهم الأوامر ، ينفذونها على النحو الذى يطلبه ..

عمرت مجالسه بالعلماء والفقهاء والزهاد . ازدحموا عليه ، وترددوا على بابه . تزايد أعوانه . عهد بهم إلى منير أبى المجد . يجد فى النساخ أشد الناس حظاً من العلم . هو يقرأ ما ينسخه ، يستعيده إذا قرأه ثانية . تكثر قراءاته ، وتتعدد قراءاته لكل مخطوط يعيد نسخه . صار مريدوه يفعلون مثل فعله . يقفون فى الطرقات والمقابر والجوامع والمدارس والأسواق . وكانوا يجتمعون فى مغارة بالمقطم ، يخوضون ـ كما أبلغت الأعين مقام الحاكم ـ فى الفصول والأراجيف . ألقى الشيخ عصى المخالفة فى قلوب العوام ،

وترقب النتيجة . يحركهم بنظرات عينيه ، أو بإيماءة من رأسه ، أو بإشارة من يده . لجأوا إلى الحروف والرموز ، فلا تفطن الأعين إلى معانيها . وكان يحرص على بث أعوانه فى نواحى الطرق ، للتنبيه ـ بإشارة ما ـ إلى الملامح التى تثير التوجس ..

انتشر مريدوه وأتباعه فى كل مكان ، فى مصر والقاهرة والأقاليم ، يذيعون أفكاره وآراءه ودعواته ..

فتن به الناس افتتاناً عظيماً . وجدوا فى كلماته ما يشير إلى انفراجة الباب . لم يعد مقصداً لطلاب العلم وحدهم ، وإنما قصده الساعون إلى الخلاص مما هم فيه . وجدوا فى أقواله معنى جديداً للحياة . لم تعد الحياة توقعاً بالشر والأذى . ثمة ما يملأها بالإثارة والأمل والخيال وتوقع الخير ..

ـ ٦ ـ

قال الرواة إن الحسن بن عمار قتل فى ظروف غريبة . زعيم كتامة وأمين الدولة السابق ، قتله الغلمان الترك وهو يغادر قصر الحضرة ..

أذن له الإمام بأن يركب إلى القصر . عند انصرافه ، فاجأه الغلمان ، فقتلوه ، وحملوا رأسه إلى الحاكم داخل القصر ، وقتلوا أعوان ابن عمار من شيوخ كتامة ..

نهب العامة قصر ابن عمار . كان يضم الكثير من أوانى الذهب والفضة والجواهر والعنبر والطيب والثياب والفرش والمصاحف والكتب والصياغات الذهب والفضة والسراويل الديبقية والأشربة والأطعمة والبغال والنوق . انتزعوا الجوهر الذى رصعت به جدران الرخام المزدانة بالذهب ..

بدا المصير أمام الكتاميين ماثلاً فى الأفق . قدموا إلى القصر الفاطمى ، كاشفين رءوسهم ، مستغيثين به ، طالبين العفو والأمان ..

قبل الإمام توبتهم ، وكتب لهم سجلاً بما التمسوه : " .. أما بعد ، فإن أمير المؤمنين لما جبله الله عليه ، وفطره من الرأفة والرحمة بأولياء دولته ومن تحويه مملكته ، بالإحسان إلى محسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، لما رأى جماعتكم مستسلمين ومتنصلين مما سلف ، وراغبة سائلة للعفو عنكم ، وترك مؤاخذتكم بما كان منكم ، والاستئناف بكم ما استأنفه آباؤه الأئمة المهديون صلوات الله عليهم ، من أولّيكم من آبائكم وأجدادكم ، وجرت به رسومكم فى النفقة عليكم ، وهبة مسيئكم لمحسنكم ، ومفسدكم لمصلحكم ، عطفته عليكم عواطف رحمة خالقه لكم بعفوه عن جماعتكم . فأجاب سؤالكم فى إزالة ما استشعرتموه وحذرتموه ، وخفتم أن يكون أمير المؤمنين يؤاخذكم به ، وعفا الله ذو المغفرة ، عفواً لا تثريب بعده عليكم ، كما قال الله وهو أصدق القائلين ، حكاية عن يوسف عليه السلام : " لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين " . ووسمكم من الرضا بجديد الاختصاص لكم ، بإعادتكم إلى رسومكم ، والتكرمة بما أزال به ميسم السخط عنكم ، وأمنكم على أنفسكم بأمان الله ، وأمان رسوله ، وأمان أمير المؤمنين : فثقوا بذلك واسكنوا إليه ، ولتنشرح صدوركم وتطمئن قلوبكم ، وتراقبوا الله فى خلواتكم ، وأخلصوا نياتكم ، وليأخذ شيوخكم شبانكم بكف الأذية ، ولزوم الطريقة المرضية ، واعلموا أن ذلك لكم ما أخلصتم وحسنت طاعتكم ، وليسمع الشاهد الغائب ، إن شاء الله . كتب فى سنة تسعين وثلاثمائة " ..

الإمام إذن هو الذى دبر الاغتيال ، وهو الذى ترقب الرأس المفصول ..

لماذا ؟ ..

تحديد الباعث مجرد تخمين ..

قال رواة إن أمير المؤمنين لم يفعل إلا أنه استرد ما تصور ابن عمار ، ومن بعده برجوان ، أنه لم يعد فى قبضته . استرد إرادته وحكمه ، ودانت له مقاليد الأمور ..

وقال رواة إن الحضرة عني بإزاحة كل ذوى النفوذ . خشى انتقام ابن عمار لعزله وهو أقوى زعماء كتامة والدولة ..

وقيل ما يصعب تصديقه ولا ذكره ..

لكن قتل ابن عمار حلقة في سلسلة عمليات القتل . أمر غلمانه ، فنفذوها، أو نفذها بنفسه . آخر من قتلهم أمير المؤمنين على بن عمر العداس ، أقامه الحضرة للوساطة ، ثم سخط عليه ، وقتله ، وأحرقه بالنار فى السنة نفسها ..

تحدث الشيخ مصابيح عن عبادة الحضرة لكوكبى زحل والمريخ ، فهو يسفك الدماء تقرباً لهما ..

قال إن الشيطان ظهر للخليفة فى صورة زحل . ملأ حجرة نومه بوجوده. سأل الإمام ، وأجاب الشيطان المتخفى فى هيئة زحل . آمر الشيطان الحضرة أن تذبح له القرابين . تحدث الشيخ عن عفاريت القتلى التى تصرخ كل ليلة فى بقعة الدم ، وعن الأرواح التى تعلو فوق الرءوس ، فى البيوت التى أعدم أصحابها ، تغنى ، وتؤدى رقصات الموت . لن يغيب الرقص ، أو تسكت الأغنيات والصرخات إلا إذا حصل الموتى على ثأرهم . الثأر فى رقاب ذويهم ، ومن صمتوا عما لحق بهم ..

قال الأباريقى :

ـ إنه أسوأ من كل موظفيه .. فهو الذى يستطيع أن يدفعهم إلى الجريمة، أو يمنعهم من ارتكابها ..

هز الشيخ مصابيح رأسه دلالة الموافقة :

ـ أقسى الأمور أن تفعل ما تريد دون أن تتوقع رد الفعل ..

وداخل صوته أسى :

ـ الرجل يقتل وهو يدرك أنه لا أحد يستطيع أن يصل إليه ليقتله !

قال الرواة إن الشيخ مصابيح اطمأن إلى نبوءة عجوز فى تلال الدراسة، بأن الإمام يمضى فى نفق مظلم ، وأن الموت هو النهاية التى تترصده في نهاية القبو :

ـ ثقوا أن الرجل سيُقتل !

ـ ٧ ـ

غلب على الناس الخروج فى الليل للعمل ، وللفرجة ..

جعل عطف أمير المؤمنين من الليل للناس حياة ثانية . يلوذون بلطف جوه من حرارة النهار ، أو يطيلون أيامهم ، فهى تتصل . تنشط الأعمال والمعاملات ، وتنفق الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب والغناء واللهو . أمر الإمام الناس بالوقيد . صار الليل نهار القاهرة والفسطاط ، الأسواق والقياسر تسطع فيها أضواء القناديل والوقود والشموع الكبيرة حتى انبلاج الصبح . تزينت بأنواع الزينة . غصت بأنواع المأكولات والألبسة والمعاملات ووسائل البهجة والفرح . أمير المؤمنين ـ بمفرده أو فى موكبه ـ يقضى معظم ليله فى جولات بالشوارع والأزقة . يشق طريقه وسط الزحام ، لا يصد أحداً، ويخاطب الجميع . حين منع الجند اقتراب الناس من أن يصلوا إلى حيث يركب ، زجرهم الإمام ، وقال :

ـ لا تمنعوا أحداً ..

أمر بتعليق القناديل على أبواب الدور والدكاكين ، وفى جميع الطرقات ، وبالاستكثار من وقود المصابيح فى الشوارع والطرقات ، وأن يحمل الناس المشاعل والشموع والفوانيس فى الأسواق . وأمر بكنس الشوارع والأزقة وأمام أبواب الدور ، وحفر الموارد ..

أسرف الناس على أنفسهم ، وجاوزوا الحد . غلب النساء الرجال ، فهن يقضين فى الطرقات أضعاف ما ينفقنه داخل البيوت شاركن الرجال البيع والشراء والفرجة والتنزه وهن فى حال التبرج . نشأ من الزحام المختلط ما يعيب : أهملوا المعاملات ، وكشفوا ستر الحياء ، وانشغلوا بالزينة واللهو والمجون ، ومالوا إلى التهتك والخلاعة ، وكثر هواة الحظ والائتناس ، وتظاهروا بكل قبيح . وتجاهر البعض بالمسكرات ، وأفرطوا فى التعاطى ..

أصدر أمير المؤمنين سجلاً بمنع خروج النساء من البيوت بعد العشاء ، ومنع الرجال من الجلوس ـ أو الوقوف ـ داخل الحوانيت ، فهى تقتصر على البيع والشراء . ثم أبطل كل المعاملات ليلاً ، وعادت القاهرة إلى مألوف حياتها ..

ـ ٨ ـ

قال الرواة إن طارقاً طرق باب الحجرة التى أقام بها أبو على بن الحسن بن الهيثم فى خان الياسمين ..

قال الطارق :

ـ صاحب مصر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على الباب يطلبك ..

نقل إلى أمير المؤمنين قول ابن الهيثم : " لو كنت بمصر ، لعملت فى نيلها عملاً يحصل به على النفع ، فى كل حالة من حالاته ، من زيادة ونقص، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال ، وهو فى طرف الإقليم المصرى " ..

سير إليه الإمام ـ سراً ـ جملة من مال ، وأرغبه فى القدوم إلى مصر ..

أتى ابن الهيثم إلى القاهرة ومعه كتاب فيه حيلة إجراء نيل مصر عند

نقصانه فى المزارع ، وفكرة بناء سد على النيل ، اختار له موقعاً فى أسوان.

كان النيل قد قصر عن الصعود . لم يبلغ ارتفاعه أكثر من خمسة عشر ذراعاً . لجأ الناس إلى تخزين الطعام ، وانعدمت الأقوات ، وارتفعت الأسعار . أمر أمير المؤمنين بتثبيت الأسعار ، وإنزال عملة جديدة ، مرتفعة القيمة ، يتداولها الصيارفة . تردد على البيوت ، ووزع الأموال على الناس بنفسه . شدد فلا يباع القمح إلا للطحانين . وأمر الجند فكبسوا الحواصل والبيوت . ما يجدونه من قمح يوزعونه على الطحانين بالسعر الرسمى ..

خرج أمير المؤمنين للقاء ابن الهيثم . وقف الإمام عند قرية الخندق فى الطريق إلى القاهرة . لم يظهر التأفف ولا الملل حتى وصل ابن الهيثم فى جبته الواسعة وعمامته المتعددة الطيات . اخترق الموكب باب النصر ، تأكيداً للإجلال والتكريم . بعث معه جماعة من الصناع إلى موضع الجنادل الستة ، ليختبر إمكانية التنفيذ . نشر العالم أوراقه ، وتعرف إلى المواضع على الطبيعة ، واستمع إلى آراء الناس فى المدينة الجنوبية . تبين له ـ فى نهاية الأمر ـ أنه لن يستطيع أن يحقق ما أتى به إلى مصر من أجله ..

قال الرواة : ألغى الحضرة مواعيده ، واستقبال الوزراء والأمراء والولاة. خصص اليوم بكامله للعالم البصرى . يستعيد مقطعات النيل ، يتتبع الشعراء فيها أحوال النهر من زيادة ونقص ، ووفرة وجدب ..

قال الإمام :

ـ كيف رأيت أسوان ؟

وهو يظهر الاحترام الزائد :

ـ تحيا باطمئنان فى ظل رعاية مولاى أمير المؤمنين ..

أشاح الإمام بيده فى عدم اكتراث :

ـ لا أسـألك عن أحـوال البلد .. إنما أسـألك عن الموضـع الذى أرسلناك إليه.. هل يتفق مع الفكرة التى دعوت إليها ؟

وهو يمسد لحيته القصيرة :

ـ أخشى أن ما خطر لى يصعب تنفيذه ..

غرز فى وجهه عينين متشككتين :

ـ لماذا ؟

ظل ابن الهيثم صامتاً . خشى لو تكلم أن يخطئ ..

أعاد أمير المؤمنين السؤال :

ـ لماذا ؟

قال ابن الهيثم :

ـ أسباب فى طبيعة المنطقة تجعل التنفيذ متعذراً ..

أغمض الإمام عينيه ليستوعب معنى الكلمات :

ـ هل تغيب هذه الأسباب عن فهمنا ؟

غالب ابن الهيثم شعوراً بالعجز :

ـ إنما هى اختلاف بين ما خطر لى ، وما رأيته من الظروف الطبيعية ..

أردف فى لهجة مهونة :

ـ إرادة الله أن يصير أمر النيل إلى النهر نفسه من زيادة ونقصان ..

ثم وهو يجرى بلسانه على شفتيه ، كمن يعانى العطش :

ـ هذا الكتاب فيه حيلة إجراء النيل عند نقصانه ..

وضع الحضرة يده ـ فى ود ـ على كتف ابن الهيثم :

ـ إنما أريد بعلمك أن أقطع دابر المجاعات عن مصر ..

ثم وهو يشب بصدره إلى الوراء :

ـ تصورت أن لديك مشروعاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالات النيل زيادة ونقصاً ..

ـ ما رأيته يخالف ما بأوراقى وذهنى من أفكار أتيت بها ..

وضيق عينيه :

ـ عندما سرت إلى الإقليم بطوله ، ورأيت آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وجدت أنها على غاية من إحكام الصنعة وجودة الهندسة واشتملت على أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجز . أيقنت أن الذى أقصده ليس بممكن ، فإن السابقين لم يعزب عنهم علم ما علمت ، ولو أمكن لفعلوا ..

حدجه أمير المؤمنين بنظرة مستفهمة :

ـ كأنك اكتفيت بالحدس والتخمين ..

ـ بل وصلت إلى الجنادل قبلى أسوان . موضع ـ كما تعلمون ـ مرتفع ، ينحدر منه ماء النيل . عاينته ، وباشرته ، واختبرته من جانبيه . لم أجد أمره يمشى على موافقة مرادى ، وتحقق لى الخطأ عما وعدت به ..

بدا الإمام فى جلسته فوق الحمار أعلى من ابن الهيثم القصير القامة بالفعل . صعد ابن الهيثم على دكة عند باب الخان ..

نظر الحضرة فى الكتاب :

ـ أخطأت !.. إن مؤنة هذه الحيلة أكثر من منافع الزرع !

ثم وهو يعدل العباءة فوق كتفه :

ـ الزم موضع نزولك حتى نفيد مما قد يفتح الله به عليك فى أمور أخرى..

ومضى ..

## - ٩ -

دلف من بوابة حمام السيدة العمة . بوابة ضيقة زينت حوافها بزخارف ومقرنصات . لاحظ خلو الواجهة من منديل الكتان . عرف أن هذه فترة الرجال ، فلا يؤذن فيها للنساء بالدخول ..

طالعه فى المدخل رجل فى حوالى الستين . تركت الأعوام تأثيراتها على جسده وملامحه ، فهو أقرب إلى البدانة ، ووجنتاه متهدلتان ، وحركاته بطيئة، وأحاطت التجاعيد بالوجه الهضيم ، وحول العينين والشفتين ، وافتر فمه عن أسنان تساقط معظمها ..

خمن أنه المشرف على الحمام . تلقى منه ما يحمله من نقود . مضى إلى بهو فسيح . ثم إلى صالة واسعة مكسوة بالرخام ، تقابلت فى جنباتها المصاطب . فى الوسط ردهة مبلطة بالفسيفساء ، يتوسطها فسقية من الرخام ، يتوسطها تمثال لأسد تتدفق منه المياه . وعلى الجانبين إيوانات بها مصاطب مغطاة بالحصير . فى منتصف الجدار رسم تآكلت ملامحه بتأثير البخار المتصاعد من سخونة المياه ، وإن تناثرت ملامح ناقصة لأعين وأنوف وأيدى وأقدام وزخارف نباتية ..

أشار الرجل ، فمضى إلى الباب الأول . قاعة صغيرة مربّعة ، لامسته حرارة هادئة ، مضى فيها إلى بيت الحرارة ، توضحت فيه السخونة . قاعة تعلوها قبة ، مبلطة بالفسيفساء . بها أربعة إيوانات ، على هيئة مقاعد فى أرضية القاعة . اتجه ـ بعد ذلك ـ إلى المغطس . أحواض عميقة ، مربعة ، مملوءة بالماء الساخن ..

قال محروس الأباريقى عريف مهنة السقائين :

- أصبحت أباً منذ شهر ..

وبدت السخرية واضحة فى نبرات صوته :

- شغلنى أن أستمتع بالطفل قبل أن يمارس الخليفة هوايته فى قتله .. أو قتلى ..

وأطلق ضحكة قصيرة ، مرتبكة :

- لم تكن تشغلنى الحياة ولا الموت ..

وأسبل جفنيه :

- يهمنى الآن أن أحيا من اجله ..

هز المدلكاتى خضير المعلوف رأسه فى أسى :

- أعطى الرجل أذنه للوشايات ، تملى عليه قراراته ..

شكا الأباريقى من أن امرأته تهجر فراشه ، وترفض مداعباته وطلبه لها. لا تتصور أنها تلد أبناء ينشأون يتامى ، أو يقتلهم السلطان ..

وشاعت فى صوته نبرة أسى :

- إنه يقضى على الملل بقطع الرقاب وسمل الأعين وقطع الآذان وسلخ الجلد ..

قال المعلوف :

- اصبر على صاحبك السو .. يا يرحل يا تجيله داهية ..

قال الأباريقى :

- الغريب أننا نأمن على أموالنا فى عهد الحاكم .. لكننا لا نأمن على أرواحنا ..

قال الرواة : عانى الناس تناقضات أحكامه : عزل الحسين بن النعمان

عن القضاء . شغل رئاسة القضاء ومنصب داعى الدعاة . ظل الإمام يوليه ثقته ، ويدعم مكانته ، ويندب جماعة للركوب معه فى كل مجلس . شجر خلاف بين قاضى القضاة الحسين بن النعمان ومتولى المظالم عبد العزيز بن محمد بن النعمان . عانى المتقاضون تأثيرات الخصومة . بلغ أمير المؤمنين ما جرى . أخفقت محاولاته فى إصلاح ذات البين ، حتى تغيرت نفسه . عزل الحسين ، وعهد إلى عبد العزيز بمنصبه ، إضافة إلى ولاية المظالم ، وخلع عليه . ناله - بعد ذلك - غضبه ، فقتله ، وأحرق جثته ..

لم يكن الأباريقى يعيب على الإمام محاولاته لإقرار العدل ، وإنما كان يعيب وسائله لإقرار ذلك العدل . توالت حوادث القتل بما يصعب حصره أو متابعته . أخذ موظفيه بالظنة ، وأضرّ بهم على التهمة . قتل الكثير من الوزراء والمشايخ ورؤساء القبائل والقضاة والأعيان والوجهاء والخاصة والعامة . لم يسلم من القتل حتى أقرب الناس إلى الحضرة من أقاربه وخواصه ووزرائه وكتابه وغلمانه . واجهوا المصير القاسى بريب وشكوك واتهامات بالخروج عن السجلات والأحكام . قتل الإمام مؤدبه أبا التميم سعيد بن سعيد الفارقى وهو يسامره فى مجلسه . وقتل ابن أبى نجدة متولى الحسبة . كان بقالاً ، فلما تولى الحسبة أساء معاملة الناس ، وصادر التجار ، وجبى الأملاك ، وأخذ التركات والجوالى ، واستولى على غلات البلاد . عظم أمره ، واستفحل شأنه لعدم نظرائه ، وذاع صيته . بالغ فى التنعم . حتى مشيته صارت أقرب إلى الاختيال . اقتنى الطير والحيوان والزواحف . شيد لها أماكن خاصة تحيا فيها ، وابتاع الخصيان ، وغالى بهم ، وصيّرهم لخلوته ، واتخذ الجوارى لإنجاب الأبناء ، وللذة الجسد ، وللخدمة . فرق بين كل جارية وأخرى . السوداء تختلف عن الفارسية ، وكلتاهما تختلفان عن الرومية . أمر الإمام بإيداعه السجن ، ثم أمر بقطع لسانه ويده ، ثم بضرب عنقه . وقتل أبا على الحسن بن عسلوج المباشر

لشئون المال ، وأحرقه . تحدثت الأعين عن فساد مباشرته لوظيفته . ثم قتل وزيره فهد بن إبراهيم النصرانى . قيل إن الإمام أمر بقتله فى مؤامرة أجاد نسج خيوطها ابن العداس والى ديوان الخراج ، وأبو طاهر النحوى والى ديوان الحجاز . وشيا بفهد عند الحاكم ، وتحدثا عن الثروة التى تضمنت الأموال والجواهر والعبيد والإماء والخيل ، والتحف والذخائر التى لا تقدر بثمن ، وما يصعب حصره من الصحاف والمشارب والأباريق والقدور وأصناف الديباج والطيب وأحقاق الذهب . وقيل إن الحاكم طلب منه أن يعتنق الإسلام بعد أن أمضى فى وظيفته ست سنوات . رفض ، فقتله الحاكم . وقيل إنه لم يقتله لنصرانيته ، وإنما لأنه أسرف فى الأخطاء والتصرفات الشريرة ، وقتل أبا الحسن بن عمر العداس بعد أن خلع عليه ، وأمر بأبى غالب شقيق فهد بن إبراهيم ، فقتل ، وأحرق جسده لأقوال نقلت عنه ، وقتل الحسين بن طاهر الوزان بعد أشهر من إقامته فى النظر والسفارة . اتهمه بأنه استولى على ما فى بيت المال حتى نفدت الخزائن ، وضيّع الجواهر والنفائس والمواريث ، وأنه يبذل الأموال فى اقتناء الجوارى والعبيد ، يلبسهم الديباج ومناطق الذهب ، وقتل أبا طاهر محمود بن النحوى متولى أعمال الشام لشدة ظلمه . سلخه ، وحشا جلده تبناً ، وقتل صاحب المظلة الخادم الصقلبى زيدان لإعلان اعتزازه بأنه يمتلك ألفى جارية وطأهن جميعاً ، وقتل الفضل بن صالح أعظم قادة جيشه ، والشاعر على بن المندوفى . أمر بسل لسانه . عانى المشاعلى فى سل اللسان ، وعانى الرجل فى التألم ، حتى مات . وقتل العسكرى منجم الحضرة الخاص . غاظه تشوش نفسه ، فتصرف كأنه الحضرة . كان يحب المديح ، ويجيز عليه الأموال والهبات والخلع ، وقتل سهل بن كلس أخا الوزير يعقوب ، والقائد أبا عبد الله الحسين بن الحسن البازيار ، والمقداد بن جعفر ، والأخوين على ويحيى بن سلمان ، وقتل الكثير من الوزراء والكتبة والولاة والقضاة والعلماء والوجهاء والتجار وأولاد الناس والغلمان والخاصة والجند ..

سار الكتامية إلى باب الفتوح . كشفوا رءوسهم ، واستغاثوا بعفو أمير المؤمنين . تأثر الإمام من مسكنتهم . كتب لهم سجلاً بإعلان العفو . قرئ في القصر والجوامع ، وأعادهم إلى رسومهم ومكانتهم . لكن النهايات الدموية ظلت فى أفق الجميع ..

عانى الناس فى مصر والقاهرة رعباً لم يعانوه من قبل . تعددت البواعث التى تفضى إلى نهاية واحدة . ربما تزهق الحياة دون إعلان عن الذنب المقترف . اعتاد الناس مشاهدة الرءوس معلقة على خوازيق ، فى تلال الدراسة ، وخارج أبواب القاهرة . نوت مشاعر الدهشة للمشهد القاسى حتى تلاشت تماماً . لم يعد ما يلفت النظر ، أو يثير الدهشة ، وإن لم يترك الخوف من القتل موضعه فى النفوس . صار القتل هدفاً فى ذاته . يقتل لأنه يريد أن يقتل ، وإن لم تمتد يده إلى مال أحد من رؤساء دولته ، بعد أن قتلوا ، بأمر منه ، أو قتلهم بيده ..

قلل من تردده على أمه ، وتظاهر بانشغاله عن استقبالها . كان يحبها ، ويخشى - فى حال موته - غدر ست الملك بها . يغضبه أنها تحنو عليه كطفل . تكثر من النصائح والتوجيهات ، والتدخل فى أمور الحكم ، وتظهر الإشفاق . قتل ابن عمار وبرجوان لأنهما فرضا وصاية ثقلت عليه . هو ما لا يستطيع أن يفعله مع أمه . اكتفى بمط المسافة بينها وبينه ، فيصيب - إلا بالمصادفة - لقاؤهما ..

كان لعبه فوق الشجرة آخر عهده بالطفولة . منذ ألبسه برجوان العمامة صار مسئولاً عن أمور البلاد ..

تعالت المناشدات ، والتماسات العفو ..

صدر - حتى لا تصبح الأوضاع فوضى - ما طلبه الناس من سجلات الأمان . قرئت السجلات فى القصر والجوامع ، وفى الأماكن التى يعيش

فيها الديلم والنقباء والروم المرتزقة والغلمان الحاكمية والشرابية والمرتاحية والبشارية وسكان الأحياء وأهل الحرف والأسواق ، وطوائف العطوفية والجوانية والجودرية والمظفرية والصنهاجية والميمونية ، وأصحاب الإقطاعات والمرتزقة ..

صارت لأمير المؤمنين أطوار وخواص مدهشة ، ونزعات لا قبل لأحد على تصورها . أكثر الركوب إلى الأسواق فى الليل والنهار . أصدر سجلات بمنع الناس من أكل الملوخية والترامس والجرجير والدلينس والمتوكلية ، وتحريم ذبح الأبقار السليمة إلا فى أيام عيد الأضحى ، لا يذبح إلا ما كان بعاهة أو لا يصلح للحرث ، وتحريم بيع الفقاع وعمله على أى نحو ، ومنع صيد السمك الذى بلا قشر ، أو بيعه ، وتحريم دخول الحمام بلا مئزر . أمر بوقود القناديل فى الفسطاط والقاهرة . ألزم به أصحاب الدور والدكاكين ، وأمر به على أبواب الشوارع والأزقة . أمن التجار أذى اللصوص . ألفوا ترك دكاكينهم مفتوحة ..

روى أن كيساً من النقود به ألف دينار ، وقع بالقرب من جامع ابن طولون . ظل الكيس فى موضعه أسبوعاً ، لا يجرؤ المارة على أخذه ، حتى عاد إليه صاحبه ، فأخذه ..

## ـ ١٠ ـ

ركب القاضى عبد الحكم العلامى من داره بجوار الجامع الجديد من الناحية البحرية ، بعد صلاة المغرب ..

تقدم الموكب الهائل جماعة من علماء الدين ، فى أيديهم الشموع ، ووجهتهم المنظرة التى يجلس فيها أمير المؤمنين الحاكم . مضى الموكب

ناحية باب الفتوح داخل السور الفاطمى الكبير . بلغ باب الزمرد من القصر، فى رحبة العيد . الشهود وراء القاضى ، وبين يديه الشمع المحمول موقداً من خزانة الحضرة . فى كل جانب ثلاثون شمعة . وعلت أصوات المؤذنين بذكر الله ، وبالدعاء للخليفة والوزير ..

وصل الموكب إلى القصر . خطب ـ أمام بابه الكبير ـ أئمة جوامع القاهرة ومصر الكبرى وعلماء الدين عن فضائل ليالى الوقود الأربع المباركة فى أول رجب ، ومنتصفه ، وأول رمضان ، ومنتصفه ..

جاء الحاجب من داخل القصر بإذن الانصراف ..

مضى الموكب ـ بنفس هيئته ـ عبر الشوارع ـ إلى دار الوزير . أذن لهم بالدخول . سلموا على الوزير الحسين بن جوهر ، وألقى الخطباء الثلاثة كلمات تليق بالمناسبة ، ودعوا للوزير ، ثم انصرفوا ..

تعددت مجالسه : مجلس لحوائج السلطان ، مجلس لأصحاب الحديث ، مجلس لأصحاب المسائل ، مجلس لحوائج الناس . ينادى الحاجب على أرباب الظلامات . يدخلون فرادى أو جماعات . يبلغ العدد حد الإحاطة بالدعوى أو الشكاية أو المظلمة . يجيد الإنصات . يرجع إلى العلماء فى مجلسه . يبدون آراءهم مشفوعة بقناعات . لا يقضى بأمر دون الرجوع إلى المشورة وطلب الرأى ، ولا يأخذ الجانى إلا فى جناية ظاهرة ، بالعديد من الآراء المتفقة . وكان رأيه ـ فى النهاية ـ هو الفيصل ..

أصدر سجلات تشتمل على الضمانات التى تكفل الحد من طغيان الموظفين ، وسوء تصرفاتهم ، وإسرافهم فى الإنفاق من بيت المال ..

شدد فى توطيد الأمن والنظام ، وقمع الفساد والفوضى . أمر بقطع العدوان ، ورفع الظلم ، ونفى الأذى ، وعمّر الريف ، وأصلح الترع والجسور، وعنى ببناء المساجد والربط والمدارس ، وعين من يقوم بخدمتها . سامح

الناس بالبواقى ، وأسقط الرسوم الجائرة . رسم بإنشاء الزوايا التى تأوى الفقراء والمحتاجين وأصحاب العاهات والمطلقات وكبار السن والعميان ، وبعث بالصدقات إلى البيوت الفقيرة ، وبذل الخلع والأنعام ، وعمت منحه وهباته جميع الناس ، واعتاد الجلوس ـ فى وقت معلوم ـ فى شباك بالقصر الفاطمى ، يوزع الصدقات على هيئة أموال وكسوات . أمر ، فأغلقت دكاكين سوق الشماعين ، التى يجلس فيها ـ ليلاً ـ زعيرات الشماعين المعروفات ..

عرف عنه إدامة الصوم بالنهار ، والتهجد بالليل ، وكثرة البر والصدقات، وقضاء الوقت كله فى صالح الناس . لم يكن يرد أى متظلم ، ويفتح أبواب بيته لمن يطلب المساعدة ، أو يسأل الحاجة . وإذا خرج للنزهة والترويح عن النفس ، أحاط به ذوو الشكايات والمتظلمون ، لا يبدى التململ ولا الضيق وهو يقرأ عرائضهم وظلاماتهم . ويأذن لهم بالسعى إلى أرباب الوظائف ، من بابه ، وبواسطته . وعنى بمراقبة كبار الموظفين أشد المراقبة ، والتحرى عن سلوكهم . رصد الأعين عليهم ، ينقلون إليه كل ما يصدر عنهم من أقوال وتصرفات ..

جعل لنفسه أعواناً ، ينفذون أوامره . رتب عريفاً على كل حرفة ، وفى كل سوق ، يقبل قوله فى كل شئ ، وإن اشترط فيه أن يكون أميناً ، ثقة ، عارفاً بأصول الصنعة وأسرارها . يحفظ لأجل صنعته ما يجب أن يحفظ من أمورهم ، ويجرى أمورهم على ما يجب أن تجرى عليه . يطالع المحتسب بأخبار أهل صنعته ، ويفتقد ما يجلب إلى السوق من السلع ، وعمليات البيع والشراء ..

اكتفى التجار بإسدال الستار على دكاكينهم ، لا يخشون خطر اقتحامها، ولا سرقة شىء منها ..

تأكيداً لمكانة المحتسب ، وما ينتظره على يديه من خير للناس ، فقد خلع عليه فى جامع الأنور ، على المنبر ..

حين ضُبط المحتسب الجزار سعيد الفارسى يبيع لحماً مغشوشاً ، أمر ابن جوهر أن يجلد الرجل أمام دكانه ، وسط جيرانه وزملائه من التجار . أهمل الهمسة المحذّرة بأنه خال فهد بن إبراهيم . نحن مجتمع العدل ، ومن يخطئ فلابد أن يخضع للعقاب . يقتصر على ما حددته شريعة الإسلام . لكن الجند أسرفوا فى فعلهم . وضعوا الرجل فى قلب رحبة باب العيد . انتزعوا لحم جسده بكلابة محمّاة بالنار . لامست الكلابة الموضع من الجسد، فعلت رائحة اللحم المحترق . وضعوه فى حفرة تتوسط الميدان . صبوا على جسده دلوات من الرصاص المنصهر والزيت المغلى والشمع المشتعل ..

كان فهد إبراهيم قد أفلح فى تنظيم الدواوين . أشرف بنفسه على جميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين ، واستحدث وسائل غير مسبوقة فى تحصيل الضرائب والمكوس وجمع الخراج . لم يكن يرتشى ، أو يرتزق ، أو يقبل الهدايا ، أو ينفق ديناراً من أموال الخلافة فى غير موضعه ..

كان مجاملاً . لا يتقاعس عن أداء واجب ، ولا إغاثة ملهوف ، ويشارك فى الأعراس والعزاء وحفلات الختان وسبوع المولود وعودة الحجاج . لم يكن يشعر مع موظفيه بالكلفة ، ويخالطهم كأنه واحد منهم ، وأنعم عليهم ، وكبرهم ، وعظمهم ، وأعطاهم . وكان يقصد ـ فى بعض الأوقات ـ بيت أحد خدمه ، ليهنئه بمولود جديد ، أو ختان ، وكانت هداياه إلى الجميع موصولة، وإن اكتفى ـ فى مناسبات الوفاة ـ بواجب العزاء . لم تتحدث الهمسات عن ميله إلى اقتناء الجوارى والعبيد ، وعرف عنه التعفف عن أموال الناس ، والتورع عن قبول الهدية لأن ذلك رشوة ..

أنزله الناس من نفوسهم منزلة كبرى ..

فسدت الأمور على الكاتب عصام الدين الزعفرانى ، وضاع من يديه كل

ما كان يسعى إلى تحقيقه من فرص . أمر أعوانه فترصدوا لابن جوهر فى طريق المقابر أسفل المقطم . وثبوا إليه بالمقارع . ضربوه حتى كاد ينتهى . امسكوا بكاحليه . علقوه فى خطاف ، ورأسه إلى أسفل . ألقوه فى حفرة أعدوها ، وأهالوا عليه التراب . كاد يقضى نحبه ، لولا أن أنقذه قارئ يتلو القرآن فى حوش قريب . هرع ناحية الأنين المكتوم ، يخترق صمت الظهيرة . طوّح كومات التراب بما خلّفه الرجال وراءهم . ظهرت الأصابع تهتز ، وتشى بحياة صاحبها . أنعم الحسين بن جوهر على القارئ مبارك السلامى وجعله من خاصة أعوانه .

## - ١١ -

من كان وراء قتل فهد بن إبراهيم ، ثم من بعده على بن عمر العداس الذى حل محله ؟.

ظل فهد فى منصبه ست سنوات ، ثلاث منها فى خدمة برجوان ، ثم قتل الإمام فهداً . ثم قتل من حل محله بعد تسعة وعشرين يوماً . قال الرواة إن الحضرة أنصت إلى وشاية أبى الحسن بن العداس ، فأمر بضرب عنق فهد بن إبراهيم ، وأحل ابن العداس محله ..

لما شاهد الإمام ما عرضه غالب أخو فهد فى سقيفة القصر من مال أخيه ، سأل عنها . أنبأه الخدم بحقيقتها ، فقال :

- إنّا لم نقتله على مال ..

وأمر بردها إلى أولاد فهد .

ولما جاءت الأنباء بأن أبا غالب تكلم ، بما يسئ إلى أمير المؤمنين ، أمر بقتله ، وإحراقه .

ثم قتل الإمام ـ فى الشهر التالى ـ أبا الحسن بن العداس ، وأضرم فيه النار . اتهمته الوشايات بأنه اقتطع لنفسه ـ منذ تولى منصب الوساطة ـ إقطاعات لا نهاية لحدودها ، واستولى على ما ليس من حقه فى ميراث رجل عن أبيه . اعترف القاضى بما فعل ، وتذلل : العفو والتوبة ..

أمر الإمام به ، فضرب عنقه ، وأحرق ..

ألف أمير المؤمنين الحاكم التآمر ، وانفرد الحسين بن جوهر بتدبير الأمور . رجح الرواة أن يكون أمر القتل قد صدر بوشاية من الحسين بن جوهر ، لأن الحضرة ولاه الوساطة وحده بعد قتل ابن العداس . ثم عزله الإمام ..

ـ ١٢ ـ

قال الرواة إن الإمام أمر بقتل الحسين النعمان ، وإحراق جثته . ظل يشغل منصب القضاء خمسة أعوام ونصف . كان يجلس بين يديه فى مجلس قاضى القضاة خمسة من الحجاب ، اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد يُنفذ الخصوم إليه ، فلا تتأخر العدالة أو تبطئ . ثم شجر خلاف بينه وبين متولى المظالم عبد العزيز بن محمد النعمان . لم يقف الحضرة على بواعث الخلاف ، وإن تيقن أن وراءه سوء تصرف وفساد . كتب الإمام إلى الحسين النعمان بغضبه لما جرى ، وأكد ثقته فيه ، وأنه هو صاحب الرأى والتصرف فى عمله . أمر فلا يتقدم أحد قاضى القضاة فى مجلس ، سواء كان من أرباب السيوف أو الأقلام أو أصحاب العمامة . ضعّف له رزقه وصلاته وإقطاعاته ، وشدد عليه ، فلا يأخذ درهماً من أموال الناس ، ولا يظلمهم . لكن الخلاف بين قاضى القضاة ومتولى المظالم زاد اتساعاً ، فلم يعد من اليسير رتقه ، وتشوشت صورة الحسين النعمان ، فعين عبد العزيز بن النعمان فى منصبه ..

قال الرواة إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أمر بإنشاء شونة كبيرة مما يلى الجبل ، ملئت بالسنط والبوص والحلفا ..

اقتحم الخوف عمال الحاكم من الكتبة وأصحاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى وخاصة الناس وعامتهم . صدقوا الشائعة بأن الحاكم يعد لإحراقهم . زحفوا فى جماعات حتى باب قصر الحضرة . علت الأصوات بالاستغاثة ، وطلب العفو . أذن لهم الحسين بن جوهر بالدخول . تسلم منهم رقعة يلتمسون فيها الأمان . عاد إليهم الحسين بموافقة الإمام على ما طلبوا ، وأمرهم بالعودة إلى أعمالهم ودورهم ، وأن يأتوا فى الصباح لتلقى سجل العفو ..

فى اليوم التالى صدر سجل لثلاث طوائف : المسلمين ، المسيحيين ، اليهود . لكن الخوف انتقل كالوباء إلى العوام والخاصة على اختلاف طوائفهم . خرجوا بالاستغاثات وطلب الأمان ، ومضوا إلى قبر الخليفة العزيز بالله . انضم إليهم التجار وأرباب المهن والحرف . توالت السجلات بالعهود والأيمان والمواثيق لكل المهن والطوائف ، وصدرت سجلات لسكان الحارات ، قرئت على سكان الشوارع والعطوف والدروب والأزقة والخلاء ، وعلى الباعة والمشترين والمارة فى الأسواق : " هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله : إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين ، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل

والدم والمال ، لا خوف عليكم ، ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلاّ في حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه . فليوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى . كتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة ، وسلم تسليما كثيراً " .

قال الرواة إن الإمام لم يكن جاوز العشرين ، لكن تصرفاته أحلت الرعب في نفوس الخاصة والعوام . توقعوا القتل في كل لحظة ، بصرف النظر عن وجود السبب أو غيابه . لم يسلم أحد من الخواص ولا العوام من القتل ، ونقض سجلات الأمان التى أعلن التزامه بها ..

قال الشيخ مصابيح إن اختفاء جثث القتلى ، فلا يعثر لهم نووهم على أثر ، لأن إهراق الدماء للتقرب إلى الكوكب زحل ، وطالعه المريخ . ما كان الحضرة يخوضه من أحاديث وهو يجلس ـ وحده ـ في الظلام ، طرفه المقابل شيء متحرك ، ينطق ، فتغيب عنه ملامح البشر . يخاطبه الإمام بالقول : يا سيدى زحل !. ولعله ـ في تقدير الشيخ مصابيح ـ هو الشيطان نفسه ، متشبها في صورة كوكب جماد ، لا يتحرك ولا ينطق ..



نقصت مياه النيل . اقتصرت الزيادة على ستة عشر ذراعاً وأصابع . أجدبت الأراضى . تعطلت عن الزراعة ، فهلك الزرع . ونقص المحصول ، وعجزت الحكومة عن جباية الخراج . حتى الماشية أصابها الهزال ، ونفق الآلاف دون أن يقوى أصحابها على فعل شىء . قل إلى حد الندرة ، ثم تلاشى ، قوت الناس من أنواع الحبوب ، وسائر الخضروات ، وما تنبته الأرض . أضاف انقطاع المطر إلى نقص النيل . بلغ القحط حتى الأماكن

التى تعتمد على مياه الأمطار ، وما يظل منها فى باطن الأرض . جفت الأعين والآبار ، وعزت الأقوات والأدوية ، وقل وجودها ، وعز وجود الدواب ، وهلكت المراعى . ارتفعت الأسعار ، واشتد الغلاء . شكا الناس من قلة الخبز وسواده ، ومن غلاء الدقيق والأرز . انتقضت الأعمال لتعدد الفتن ، وكثرتها . ثم بطل البيع والشراء ، وغلّق أكثر الأسواق ..

انشغل الناس بتخزين الغلال ، واشتد تزاحمهم على الأفران ، وبيعت الأراضى والعقارات بالأرغفة . عمل التجار حسابهم لما تأخر النيل فى الفيضان . قبضوا أيديهم على الغلال ، وامتنعوا عن بيعها حتى تزيد أسعارها ، وعنى كبار موظفى الدولة بتخزين السلع بما يزيد عن احتياجاتهم ، فزادوا من تفاقم الأزمة ..

خرجت النساء منشرات الشعور يلطمن فى الشوارع ، ولاذ المئات بالجوامع والمساجد ، يتضرعون إلى الله ليغفر زلاتهم وخطاياهم ، يتشفعون بآل البيت ، وبالأولياء . أم الفقهاء وأرباب العمامة ومؤذنو الجوامع جموع المصلين فى صلاة الاستسقاء ..

لم يجد الناس وقتاً للتقاضى ، فخلت مجالس القضاة ، ولم تعد القياسر والخانات والوكائل تجد من تؤويه . ضج الناس ، وابتهلوا إلى الله ..

اجتمع الناس على أبواب القصور الفاطمية ، وكثرت رقاعهم . عزت رقاع الأعين إلى مقام أمير المؤمنين ، شدة المعاناة ، إلى ما استشرى فى البلاد من أنواع الفساد والرشوة والبرطيل ، وشراء الذمم والضمائر ، وكثرة المصادرات ، واستلاب أموال الناس ، وسرقة حقوقهم . أعرض كبار موظفى الدولة عن مصالح الخلق . مالوا إلى التغاضى لقاء شراء الذمم . فشا سوء التدبير ، وفساد الرأى . عانى الناس كثرة المغارم ، وتنوع المظالم . أغمض المحتسب ـ بالرشوة ـ عينيه . سكت عن جشع التجار ، ومغالاة أرباب الحرف والصناعات فى رفع أجورهم ..

قدم من القرى إلى القاهرة والفسطاط خلق عظيم ، يجأرون من الجوع ، ينشدون الطعام الذى يحفظ حياتهم . أخلى المزارعون قراهم ، وتركوا زراعاتهم فى الأرض ، فهلكت ، وعم الخرب مدناً وقرى يصعب حصرها ..

تجرأ الناس على كبار موظفى أمير المؤمنين ، فذهب وقارهم ، وكثرت حوادث الاعتداء على الأمراء والكتبة . كبس العامة القصور الفاطمية وهم يصرخون : الجوع .. الجوع .. نحن أحق بسماط مولانا ..

تصدى لهم الخدم الصقالبة . تحمل المهاجمون الأذى . هجموا على المطابخ والمخازن والإهراء . اختطفوا الأطعمة ، وتقاتلوا . نهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الخبز واللحم والحلوى . حتى القصاع والأوانى الفارغة عادوا بها إلى بيوتهم . لم يعد فى المخازن السلطانية شئ من الغلات ، ولم يبق ما يلتمس إخراجه للناس من المخازن ..

هجم عبيد القصور الفاطمية على سماط عيد النحر ، فنهبوا جميع ما فيه. بلغ النهب الاسطبلات الملكية ، فنهبت حتى اختفى ما كان بها من طعام مخصص للدواب .

انتشر الزعار والحرافيش وقطاع الطرق ، وتعاظم المخالفون والتشويش. تعذر الانتقال فى داخل البلاد إلا بركوب الخطر الجسيم . أمر متولى الشرطة بإغلاق أبواب القاهرة ، كى لا تدخل إليها جماعات الشغب .

أفتى الشيخ مصابيح لأعوانه ، وطالبهم بأن يبلغوا الناس أن أكل القطط والكلاب ليس حراماً . أكل الناس القطط والكلاب وما لا يؤكل من الميتة والجيفة والروث والبعر . هموا أن يأكلوا البشر ، كما حدث فى عهود سابقة . تفاقمت الأرزاء . عمت الأمراض والحميات سائر الناس ، وماتوا على الطرقات . تلاها حدوث الوباء . اتسع فشمل معظم البلاد ، وبما لم يكن يتصوره أحد ..

شغل الناس بالوباء عن مزاولة أمور حياتهم . عم القحط ، واستولى الجوع على الناس ، وبلغت الشدة بهم مبلغاً عظيماً . تفشى الموت فى الناس. هلك الحرث والنسل . هلك حتى الكثير من كبار رجال الدولة والوجهاء والأعيان . عملت الدكك والتوابيت لتغسيل الموتى للسبيل ، وصار الناس يحملون جثث الموتى على ألواح الخشب والأبواب ..

عجزت الأسر عن تكفين موتاها ، ودفنهم ، ولجأت أسر إلى طرح من أخذهم الوباء في النيل . طفت الجثث على سطح النهر متورمة ، منتفخة ، وظلت مئات الجثث ملقاة فى العراء ، وفى داخل البيوت ..

أقفرت البنايات من السكان . دب الخراب إلى الكثير من الحارات ، وبدت بعض الشوارع والعطوف والأزقة أشبه بالمقابر المكشوفة . زاد تعفنها من انتشار الوباء الذى أسرف فى فتكه ..

صار الناس يحملون الموتى جماعات ، يلقون بهم فى حفر كبيرة ، أعدوها على عجل . أقدمت الشرطة على حفر الحفر والآبار ، وألقت فيها جثث من لم يسأل عنهم ذووهم .

أغلقت ست الملك أبواب القصر الصغير على من بداخله من جوارى وخدم. شددت عليهم بأن يجتنبوا لقاءات الناس خارج أسوار القصور ، ولا يتزاوروا مع أصدقاء أو معارف ، أو ينزلوا إلى الأسواق . أذنت للأطباء بالتردد على أجنحة الحريم . وأذنت لطبيبها الخاص بأن يدخل قاعات الجوارى لإجراء فحوصات ..

قال الرواة إن عينى ست الملك التمعتا بغضب ربما لم تظهره من قبل ، وبدا فى صوتها ما اقتحم نفس خيرات بالخوف ..

قالت ست الملك فيما يشبه الحشرجة :

ـ هل تعرفين أنى أميزك على أربعة آلاف جارية ؟

هزت خيرات رأسها وهى تهمس :

ـ أعرف ..

قاطعتها :

ـ وها أنت تتصرفين بما يثير غضبى ..

رفعت عيناً متسائلة وخائفة وصامتة . بدت أقبية المطابخ بعيدة عن الحياة خارج القصور الفاطمية . كميات هائلة من الدقيق واللحم والزيت والحلوى . تراها خيرات ، لا تعرف مصدرها ، ولا تسأل عن المصدر ..

رمقتها الجهة العالية بنظرة مرتابة :

ـ ألم تأخذى من الأقبية لناس المدينة ؟

شعرت بأذنيها تسخنان :

ـ ليس بالضبط .. حملت معى طعاماً من الأقبية ..

ـ إلى أين ؟

وهى تتقى مواجهة نظرتها :

ـ إلى ناس السوق وأنا أحمل رسالة مولاتى إلى القاضى أبى الفتوح فى الجودرية ..

ارتعشت شفتاها :

ـ هل أذنت لك ؟ هل أذنت لك القهرمانة ؟

وانعكس انفعالها فى ارتجافة اليدين :

ـ أخذ اللصوص كل ما فى المخازن ، لا يوجد فى الأقبية إلا جرايات القصور ؟

غالبت خيرات مشاعر الارتباك :

- حاولت أن أخفف معاناة الجماعة ..

علا حاجبا ست الملك فى تساؤل مستغرب :

- هذا شأن الكاتب ومتولى الشرطة والمحتسب وغيرهم من الموظفين ..

أطرقت لتخفى دمعة :

- أعترف بأنى أخطأت ..

صرخت الجهة العالية :

- إذا عدت إلى ذلك الفعل - أو مثله - فلن تفلتى من عقابى !

حين تفاقمت استغاثات الناس ، وازدحموا بالآلاف بين القصرين ، يسألون أمير المؤمنين التدخل ، ركب الإمام دابته ، وخرج من باب البحر ..

واجهه الناس بالصيحات :

- الجوع .. الجوع .. يا أمير المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك .. فالله الله فى أمرنا ..

قال لجموع الشاكين :

- إذا كان الغد ، أتوجه إلى جامع راشدة وأعود ، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعاً - يطؤه حمار - مكشوفاً من الغلة ، لأضربن رقبة كل من يقال له إن عنده شيئاً منها ، ولأحرقن داره ، وأنهبن ماله ..

خاف التجار مغبة التحذير ، إن لم يعرضوا ما فى مخازنهم من سلع ، ويبيعونها بلا مبالاة ..

أشد ما أثار غضب الإمام ، تضاعف أرباح الباعة والتجار وأرباب الصنائع . أفادوا من تخزين الطعام ، وبيعه بأعلى الأسعار ..

باشر الإمام الأمر بنفسه ، وأخذ فيه بالحد . حصل المحتسب على رخصة بأن يجاوز ضرب الطحانين والخبازين بالسوط ، إلى فصل الروس عن الأجساد .

أصدر أمير المؤمنين سجلاً بألاّ يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته ، وصدرت سجلات بتحديد أسعار القمح والمواد الغذائية الأخرى . من يخالف فهو عرضة للقتل . أبلغته الأعين أن القاضى عبد الصبور الأشعث احتكر الغلال فى شونة هائلة بناحية إطفيح ، وعهد إلى خدمه ببيعها للميسورين بأسعار مرتفعة . أمر الإمام بأن يضرب مائة سوط ، ثم تقطع يداه ورجلاه ، ويكوى ، ويضرب عنقه ، ويرفع رأسه على خشبة ، وأمر بمصادرة أمواله ، وحرمان ورثته من كل ما خلفه من متا ع وأموال . وأمر الإمام بقتل التاجر فلان وإحراقه . وأمر بقتل عريف الخبازين ، لأنه لم يحسن أداء عمله . خير أمير المؤمنين أرباب الغلات بين ما فرضه من سعر فيه فائدة محتملة ، ولا بأس بها ، أو أن يمتنعوا عن البيع ، فيختم على غلاتهم ، ولا يمكنهم من بيع شىء منها ، حتى تفسد ، أو يصادرها ، ويبيعها لحساب الدولة .

خشى الباعة من تسوس الغلة المخزونة ، أو استيلاء الديوان السلطانى عليها . قنعوا بالأسعار التى حددها الإمام نفسه . لم يستشر وزراءه ، ولا عنى بآرائهم .

تملك الغضب أمير المؤمنين ، لما اتصل به من معارك بين الكتبة وقادة الجند . أمر ، فمثل فى حضرته راشد أبو جنينة متولى الحسبة ، ونهاد الحلبى قائد المئين ..

واجههما بنظرات مشتعلة :

- الناس فى الشوارع يجأرون بطلب الطعام ، وأنتم مشغولون بالاستيلاء على ما ليس من حقكم ..

قال الحلبى فى لهجة معتذرة :

- للجنود رواتب من الطعام يجب أن تصل فى مواعيدها ..

قال الإمام :

ـ وما الذى أخرها ؟

أومأ قائد الجند بذقنه إلى متولى الحسبة ..

أعاد الإمام السؤال :

ـ ما الذى أخرها ؟

قال راشد أبو جنينة :

ـ مولاى يتفقد مخازن الأطعمة بنفسه ..

قال الإمام :

ـ ألا يوجد ما يكفى رواتب الجند من الطعام ؟

قال أبو جنينة :

ـ نحن نحرص على سد ما ينقص المخازن السلطانية ، ليظل جنود أمير المؤمنين يحيون فى رغده ..

ـ هذا كلام لا أفهمه . تسرقان الطعام ، وتحرضان على اقتتال الجند والناس ..

وأشار إلي كاتب الدست الشريف :

ـ لا أريدهما فى منصبيهما ..

ثم وهو يتحسس مقبض خنجره :

ـ ولا أريدهما فى الحياة من أصله !

قرأ متولى الحسبة الجديد دواس بن يعقوب الكنانى سجلاً فى شوارع مصر بإسقاط جميع المكوس عن جميع أنواع الغلات الواردة إلى سواحل مصر الفسطاط ..

لم تهدأ نفس أمير المؤمنين إلا بعد أن تدارك الله البلاد ، وأغاثها ، بكثرة

ماء النيل . عم الرخاء البلاد كلها برحمة من الله ـ سبحانه ـ . كشف عن الناس ما عانوه من أيام قاسية . امتلأت الإهراء والمخازن بالغلال ، توفر الخبز في الأسواق ، وانخفض سعر الدقيق ، وانحلت الأسعار ، وجاء الله بالفرج . تيسر الخير ، وسكنت الفتنة ، وانكشفت الشدة ..

لم يخرج أحد من مصر لأداء الحج في هذه السنة .

ـ ١٥ ـ

لماذا تغيرت نفس أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على الحسين بن جوهر الصقلي ؟

قيلت روايات كثيرة ..

ما تتحدث عنه معظم الروايات أن نفس الحضرة مالت إلى التوجس والشك وتوقع الخطر . لم يعد يأمن حتى الأقربين . القتل هو الوسيلة لاجتثاث الشر من جذوره ..

لم يدرك أبو الفضل صالح بن على الروذبارى باعث اختيار الإمام له ، بدلاً من قائد القواد الحسين بن جوهر الذى عزله . أضاف سجلاً العزل والاختيار إلى ما لا يتوقعه حتي أقرب الناس إلى الحضرة من أفعاله . لما تولى الحسين ، حُمِل على جواد مسرج ولجام ذهبى ، وقيد بين يديه ثلاثة جياد بمراكبها ، وحمل بين يديه خمسون صماحاً من كل نوع . رافقه وتبعه الأصحاب والحواشي والأمراء والأماثل والأعيان وأرباب الصنائع ..

تولى الروذبارى النظر فى سائر الأمور التى كان ينظر فيها ابن جوهر . لقّبه أمير المؤمنين بثقة ثقات السيف والقلم . نظر فى الأمور ، ودبّر الأعمال، وحفظ وجوه المال . قلد نفسه الخراج ، وجميع الأموال والحسبة والسواحل

والأعشار والجوالي والأحباس والمواريث والشرطتين وغير ذلك . وكان ينظر في رقاع المرافقين والمتظلمين . يوقع بيده في الرقاع ، ويخاطب الخصوم بنفسه ..

قال الرواة إن الحسين بن جوهر كان في منصبه ، حين اجتمع سائر أهل الدولة في القصر بعد ما طلبوا . خرج الأمر أن لا يقام لأحد . وخرج خادم من عند الإمام ، فأسرّ إلى صاحب الستر كلاماً ، فصاح :

ـ صالح بن علي ..

قام صالح بن علي الروذباري متقلد ديوان الشام . أخذ صاحب الستر بيده ، وهو لا يعلم هو ولا أحد ما يراد له ، فأدخل إلى بيت المال ، واخرج وعليه درّاعة مصمتة ، وعمامة مذهّبة ، ومعه مسعود ، فأجلسه بحضرة قائد القواد ، وأخرج سجلاً قرأه ابن عبد السميع الخطيب ، فإذا به رد سائر الأمور التي ينظر فيها قائد القواد حسين بن جوهر إليه . لما سمع من السجل ذكره ، قام وقبل الأرض . فلما انتهت قراءة السجل ، قام قائد القواد ، وقبّل خدّي صالح ، وهنأه ، وانصرف ..

ـ ١٦ ـ

قال الرواة إن الإمام أمر الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بأن يلزم كل منهما داره . منعهما وأولادهما من الركوب . هرب ابن جوهر ـ بالخوف وأولاده وصهره ـ إلى جبل المقطم . ظل داخل كهوفه ثلاثة أيام ، ثم لاذ بقبائل بني قرة في نواحي الإسكندرية..

أمر الإمام بمصادرة أموال الفارين ، وإن كتب إلى ابن جوهر كتاباً بخط يده قال فيه : إن آبائي اشتروا أباك من التجار وأعتقوه ، وجعلوه قائداً مظفراً يفتح البلاد . وقال : لقد جعلتك أنا نفسي وزيراً وقائداً ، وأطلقت يدك

فى دولتى . لذلك فأنا أتعجب من تبطّرك وتركك النعمة . وقال : لم يكن فى نيتى الغدر بك لأحصل على ما بحوزتك . وقال : إن مثل هذا الادعاء تبرير لسوء تصرفك نحو ولى نعمتك ، فلو كان قصدنا قتلك ، لتم ذلك بيسر . وقال: إنى أدعوك إلى العودة . أما إذا لم تحضر فإنى سألاحقك بالاختطاف، وقد أعذر من أنذر . ثم عفا عنهما ، وأذن لهما فى الركوب ..

طلب الحسين ـ لكى يعود ـ أن يعفى الحضرة وزيره ابن عبدون متولى السفارة والوساطة . اتهم الحسين منصور بن عبدون بأنه أظهر الغدر فى أفعال كثيرة ..

قال الرواة : تغيرت نفس الإمام ـ بوشايات ابن عبدون ـ على صالح بن على الروذبارى ثقة ثقات السيف والقلم . ألزمه بالبقاء فى داره ثمانية أشهر، وكتب له أماناً لحياته ، ثم قتله بعد ذلك فى نفس السنة ، وقتل غالب بن ملاك متولى الشرطتين والحسبة ، وقتل الكثير من الكتبة والخدم . وعين ابن عبدون لينظر فيما كان ينظر فيه الروذبارى من الأعمال . أعلن أمير المؤمنين فى مجلس بالقصر الفاطمى الكبير قرار تعيين منصور بن عبدون فى منصب الوساطة . أمر ، فقرئ السجل على الحضور . سمح له بالتوقيع عنه ، والنظر فى أموال الدولة . لقّبه بالكافى ، وخلع عليه ..

أنشأ ابن عبدون ديوان المفرد ، توضع فيه الأموال المصادرة من رجال الحكم الذين تتغير عليهم نفس الإمام ، ويتعرضون لعقابه . وأوكل إليه الحضرة الديوان الخاص ، يعنى بنفقات الحضرة والقصور ..

قال أمير المؤمنين عن ابن عبدون : ما خدمنى أحد ، ولا بلغ فى خدمته ما بلغه ابن عبدون . ولقد جمع لى من الأموال ما هو خارج فى أموال الدواوين ثلاثمائة ألف دينار ..

صرف الإمام وزيره عن النظر فى الأعمال ، تلبية لرجاء الحسين بن جوهر . زاد الحضرة إلى أمر العزل أمراً بعزل ابن عبدون ، ومراجعة أعماله وحساباته . وعين مكانه أحمد بن القشورى الكاتب لتولى أمور الوساطة والسفارة . وكتب بخطه سجل أمان ، أثنى فيه أمير المؤمنين عليه لما أسداه من خدمات ، وكتب لعامليه السابقين بالأمان والعودة ..

ـ ١٧ ـ

قال الرواة إنه لم تنقض أشهر على عزل ابن عبدون ، حتى أصدر الإمام سجلاً باعتقال الرجل ، وقتله ، وإلقاء جسده للكلاب ، ومصادرة أمواله . قال إنه فعل ذلك لسوء تصرف ابن عبدون وخبثه ، وإن تهامست الشائعات بإيغار صدر الحاكم على كاتبه . الحسين بن جوهر هو الذى حرض الحضرة على ابن عبدون . حين أدرك أنه لا يمكنه القضاء عليه ، أخذ يدس له عند الإمام . صرف همته فى تحريك حفيظته . همس فى أذنه بتصرفات معيبة ، ومكائد ، ومؤامرات ، ومحاولات لتجميع العوام فيما ينتويه ، ويخطط له . روى ما حدث ، وإن سربله بتلفيقات . أودع فى نفس الحضرة كرها خالصاً على ابن عبدون . أمر الإمام بقتل ابن عبدون بعد مدة قصيرة من توليه منصب الوساطة ..

لم يخلف ابن عبدون أموالاً ولا عقاراً ولا زراعات . تكفّل بعض ذوى المروءة والإحسان بالإنفاق على زوجتيه ، والصغار من أبنائه ..

## ـ ١٨ ـ

قال الرواة إن مطاردة جند الإمام للحسين بن جوهر ، أحدثت ـ فى الأسواق ـ تأثيرها الذى لم يكن يتوقعه الإمام نفسه . لابن جوهر مكانته فى نفوس الناس . هو ابن فاتح مصر ، ومؤسس دولة الفاطميين . ضجوا ، وأغلقوا الدكاكين ، ولاذوا بالمساجد والجوامع والساحات والميادين ..

عانى الحسين بن جوهر التردد فى العودة إلى القاهرة . ثم دخلها فى يوم معلوم . أعد له الإمام استقبالاً طيباً . شارك فيه كبار رجال الدولة ، بمن فيهم الوسيط القشورى . استقبلتهما على أبواب القاهرة حشود الناس..

شق الموكب شوارع القاهرة ، تحيط به طوائف العسكر ، على رأسهم الرايات الحاكمية . دخلوا القصر الفاطمى ، ومثلوا بين يدى أمير المؤمنين . أمر فقرىء سجل أمانهما علناً ، وأشهد أمير المؤمنين قاضى القضاة على نفسه بالوفاء بنصّه ، وأعاد للحسين لقب قائد القواد ، ورد إليه كل ما كان قد أمر بمصادرته من أمواله وعقاراته وغيرها ، وكتب له أماناً قرىء فى الجوامع والمساجد والأسواق ، وبعث به ابن جوهر إلى مكة ، فعلق على أستار الكعبة ..

## ـ ١٩ ـ

قال الرواة إن الإمام استدعى ابن القشورى ـ بعد عشرة أيام من تقلده الوساطة :

ـ لمن الإمامة فى هذه البلاد ؟

فى صوت يرعشه الخوف :

ـ سيدى هو أمير المؤمنين ..

واجهه بعينين متقدتين :

ـ أنت إذن تعمل فى خدمتى ..

ـ أنا عبد مولاى ..

ـ لكنك تبذل همتك فى رعاية أمور الحسين بن جوهر ..

وأسكت ابن القشورى بإشارة من يده :

ـ وتبالغ فى تعظيمه كأنه أمير المؤمنين ..

عصته الكلمات ، فأعاد القول :

ـ أنا عبد مولاى ..

قال الإمام من بين أسنانه :

ـ اضربوا عنقه ..

لبث القشورى فى الوساطة عشرة أيام . ولى أمير المؤمنين ـ بدلاً منه ـ أبا القاسم الحسين بن على المعروف بالمغربى . لكنه أسرف فى أذية الناس . فلما شعر بتغير نفس الحضرة عليه ، هرب إلى مكة ، فانتقم منه الإمام بقتل أبيه وعمه وأخويه . ثم كتب المغربى قصيدة أظهر فيها توبته ، فصفح الحاكم عنه .. لكن أجله حان قبل أن يعود إلى مصر ..

ـ ٢٠ ـ

لم يطمئن الحسين وعبد العزيز إلى عفو أمير المؤمنين ، والسجل الذى منحهما الأمان . لم تخرج عمليات القتل عما ألفاه قبل أن يغيبا بالفرار . يهب سجل الأمان ، يعقبه أمر الموت . احتميا بالظلمة فى الفرار مع من يعولانهم ..

أمر الإمام ، فانطلق الجند فى طلبهما . لم تدركهما الجياد . أنفذ لهما كتب الأمان . آمر - فى الوقت نفسه - بمصادرة كل ما بحوزتهما من أموال ومتا ع ..

قال الرواة إن الحسين وعبد العزيز ظلا - لبضعة أشهر - يركبان إلى قصر الحضرة . استقرت الطمأنينة فى داخلهما بتوالى الأيام ..

استبقاهما قائد الجند - ذات مساء - لأمر تريده الحضرة . قتلا - بعد انصراف الناس . أعاد الإمام أمره بمصادرة دارى الحسين وعبد العزيز وأموالهما . حملت الأموال إلى الديوان المفرد . واستعيدت الأمانات ، والسجلات التى كتبت لهما ..

لم يضم الحضرة ما صادره من أموال الناس إلى ماله . أنشأ الديوان المفرد ، تودع فيه الأموال المصادرة ، ممن يأمر بقتلهم ، أو يقتلهم بنفسه ، ترد إلى أصحابها متى ثبتت براءتهم ، أو تنفق على مصلحة الجماعة ..

فاجأ الإمام خاصة الناس وعامتهم بقتل ابن جوهر . ثم قتل أولاده الذين فروا إلى الشام ، وكاتبوا - كما أكدت التقارير - باسيل ملك اليونان ..

## - ٢١ -

قال الرواة إنه بعد أن افتتحت دار الحكمة ، آمر آمير المؤمنين الحاكم بأمر الله بنقل مكتبة القصر التى أنشئت فى عهد العزيز إليها ، أكثر من مائتى ألف كتاب ، تضمها أربعون خزانة ، ويعمل فيها عدد كبير من النساخ. وأمر موظفى القصور المعمورة أن ينقلوا إلى دار الحكمة كل ما تضمه من المجلدات والمخطوطات والكتب التى تعنى بالفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث النبوى والتواريخ والسير والنجامة والروحانيات والكيمياء وألوان الآداب والعلوم ، وكتب علوم الأوائل فى فقه

الدين والفلسفة وفقه اللغة . نقلت إلى الدار مجلدات ومخطوطات من أفضل ما تضمه الجوامع والمساجد وخزائن العلماء والأعيان . دفع أمير المؤمنين المقابل الذى يغرى بالقبول . تنامت ، وتضاعفت ، فى أشهر قليلة . شملت كل ما يضيف إلى معارف المترددين على الدار وعقولهم ..

فتح أبواب الدار لمن يرغبون فى القراءة ، وتيسير الأحبار والأقلام والأوراق ، ونسخ الصفحات التى يعنيهم الاحتفاظ بها . وقف عليها من أملاكه الخاصة ، وعين رواتب مالية ثابتة للموظفين ومصاريف الأدوات ، وأجرى الأرزاق على طلاب العلم ، وخصص للأساتذة والطلبة ما يعينهم على الحياة الطيبة من جراية وافرة ، مستمرة . وخصص لها البوابين والفراشين وموظفى الخزائن ، وأوقف عليها ضياعاً وخانات وحمامات وبساتين ودوراً".. إنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وإنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ، والجامع بالمقس اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها مثل تاريخ هذا الكتاب . منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعاً ذلك غير مقسوم . ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ، فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، جميع الدور المعروفة بدار الحرق الجديدة ، الذى كله بفسطاط مصر .. "

قال أمير المؤمنين :

- هذه الدار مهمتها تخريج الدعاة للمذهب الإسماعيلى ..

ملاصقة للقصر الصغير ، بجوار باب التبانين . علقت الستور على أبوابها ونوافذها ، وفى الممرات . ورصت على أرففها المجلدات والمخطوطات

المحلاة بالذهب والفضة . قسمت إلى مجالس للقرآن والعلوم الدينية والفلك والطب والنحو وعلوم اللغة . جعل فيها قاعات واسعة للدروس ، وقاعات أصغر حجماً للمذاكرة ، وترويح النفوس ، ومصلى يسع الأساتذة والطلبة ، بالإضافة إلى المرافق من مطابخ وحمامات . تولى التعليم فيها مدرسون في كل العلوم والآداب والفنون . أضيفت إلى الجامع الأزهر ، وجرى فيها تدريس الدعوة الباطنية ، تأويل نصوص القرآن والحديث ، معرفة ما وراء معانى الألفاظ ، تعلم مبادئ الدين الصحيحة ، تأكيد حق الإمامة الفاطمية بيقين لا يقبل النقاش . حلقات الدرس المنظمة تبدأ من الصباح إلى موعد أذان الظهر . قد يعود الطلبة إلى حيث يقيمون ، أو يواصلون تلقى الدروس بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب ..

شدد أمير المؤمنين على وجوب فهرستها ، فلا تختلط كتب فقه اللغة بكتب فقه الدين ، ولا كتب الطب بكتب الأدب ، ولا كتب المشاهير بكتب المجهولين من الناشئة . حظر تناول الطعام أو الشراب فى أثناء القراءة كى لا ينالها التلف . ودعا إلى مداومة تطهيرها من العشب وحشرات الورق ..

تزاحم الناس على أبواب الدار فى أيامها الأولى . مات الكثيرون من التدافع ، وتحت الأقدام . ثم اقتصرت زيارتها فى الأيام التالية على الخواص وأرباب العلم للقراءة والنسخ . أفاد مما تحويه من علوم أعداد من المنجمين وأصحاب النحو واللغة والأطباء ..

وفد إليها الطلبة من أقطار العالم الإسلامى . يدرسون الدعوة الشيعية ، وعلوم اللغة والمنطق والجبر والحساب والأخبار والطب ..

تردد أمير المؤمنين على الدار . يطيل الوقوف أمام المجلدات والمخطوطات النادرة . يتأملها ، ويشير بنسخها ، أو العناية بها . ينصت إلى موظفى المكتبة ، يعرضون عليه ما يواجههم من مشكلات ، فيأمر بحلها . وكان يستمع إلى المحاضرات ، ويشارك فى المناقشات ، ويخلع على من يتوسم

النباهة في أسئلتهم ومداخلاتهم ، ويدعو الأساتذة من الفقهاء وعلماء الرياضة والأطباء إلى مناظرات . كل طائفة تدخل بمفردها ، وتجرى المناظرة في وجوده . ويخلع أمير المؤمنين ـ في النهاية ـ على الجميع ..

كان محباً للعلماء والشعراء والأدباء ، يحرص على دعوتهم وحضور مجالسهم . له مجلس يومَ الاثنين من كل أسبوع ، يحضره العلماء والقضاة، يناقشون أمور الدين والدنيا . ينزّه مجالسه عن اللهو والهزل ، ويرفض سماع الأحاديث إلاّ بإسنادها ، وكان بعد أن يفرغ من استقبال رجالات الدولة ، يبدأ في قراءة أخبار العرب والعجم ، وأخبار الأمم السالفة ..

إذا حان وقت الصلاة ترك ما بين يديه ، واتجه إلى القبلة ، ويحرص على أداء الصلوات في جماعة ، يترك لقاضي القضاة الإمامة ..

كان يحرص على حضور الموالد الستة : الموالد النبوى ، مولد الإمام علي، مولد الحسن ، مولد الحسين ، مولد فاطمة الزهراء ، مولد خليفة البلاد. وألف الناس رؤية المواكب والجلوات في ليلة الإسراء والمعراج ، وطلعة المحمل، وسفر الحجاج ، وعودة الحجاج ..

الموكب يتقدمه العلماء ورجال الطرق الصوفية . روعة الذكر والموسيقا والغناء . ترتيل القرآن ، وإنشاد الموالد ، والتغنّي بالأهازيج الصوفية ، ومدائح الرسول ، والتسابيح . من حوله صبيان الركاب ، حوالي ألفي رجل ، لهم اثنا عشر مقدماً ، يتميزون عن بقية فرق الحرس بالعمائم الكبيرة ، والمناديل المشدودة حول الخصور ، والسيوف المذهبة ، المصقولة ، في الأيدى، كأنهم جناحان تداخل ريشهما فلا أحد يستطيع أن يصل إلى موضع الإمام ..

لم يكن في تصرفات أمير المؤمنين ما يشي بتوجس ولا عدوانية ولا شذوذ. يركب إلى الميدان . يجلس على السرير ، فتعرض عليه الخيل ، والقراء بين يديه . يدخل الشعراء لإلقاء قصائدهم ..

كانت له ـ منذ صباه ـ قدرة على تذوق الشعر ، وتمييز الجيد منه ، والتوقف عند البيت النادر ، أو المعنى الذى يثير الإعجاب . وكان يتابع نظر برجوان وكاتبه فهد فى رقاع المتظلمين وأرباب الحاجات . حتى تخلو القائمة من ذوى الشكايات . يقبل أمير المؤمنين على تناول غدائه ، ثم يتقدم أبو العلاء فهد . يقبل قدميه ، ويعرض ما لديه من رقاع ـ بتوجيه برجوان ـ حتى يتم قراءتها . يوقّع الحاكم فى أعلى كل رقعة برأيه وتوجيهه . يحملها فهد إلى الديوان ، لتجد سبيلها إلى التنفيذ ، دون مراجعة ولا إعادة نظر ..

ظل الناس يزدحمون عليه ، حين خروجه من جامع الأزهر . يطيل الوقوف معهم ، يأخذ الرقاع ، ويجيب عن الأسئلة ، ويعطى الصدقات والهبات ..

غلبت الحماسة مصلياً فى الجامع العتيق . أكد أن أمير المؤمنين أظهر من العدالة ما لم يصدر عن كل السلاطين السابقين ، حتى أبيه وجده ..

أمن الناس على أموالهم وبيوتهم . وكانوا يصبون على موكبه ماء الورد من داخل البيوت ، ومن فوق الأسطح ، ويشعلون له الشموع والقناديل على طول الطريق ..

منع ضرب الطبول والأبواق حول القصور الفاطمية ، فهم يطوفون ويراقبون الأحوال دون ضجة ، وأعتق كل من بحوزته من الرقيق ، ووهبهم ما كانوا يحملونه فى حال الرق ، ليكون مالاً لهم فى حال العتق . ورصد للمساجد فى أنحاء البلاد ما تحتاج إليه من نفقة لإجراء الشعائر ، وأنشأ مصلى العيد فى سفح المقطم . جهزه بما لا يوجد فى جوامع ومساجد أخرى . وكان يقصده للصلاة والتأمل . وأصدر سجلاً يستنكر فيه من يصفه ـ فى المكاتبات ـ بأنه " مولى الخلق أجمعين " .

- ٢٢ -

قال الرواة إن ست الملك لاحظت تبدل أحوال الإمام ، فهو يفقد أعصابه إن تملكه الغضب . إذا تحكمت فيه نوباته ، تلعثمت الكلمات على لسانه ، فبدت كالغمغمة ، ويكثر من الحركات والإشارة بلا سبب ولا ضرورة . ويروى حكايات غير مفهومة . يبدأ جملاً لا يتمها . يستغرق فى شرود يمضى الوقت دون أن يفيق منه . وقيل إنه كان يعتريه جفاف فى دماغه . فلا يسمع إلا ما يريد سماعه ، ولا يرى إلا ما يريد مشاهدته ، ولا يثبت على حال واحدة ، ولا يستقر على رأى أو تصرف ، ولا يهب ثقته ، ويعاقب بالظنة ، وربما تداخل عنده الابتسام والغضب والعنف فى لحظة واحدة ..

لم يعد يخفى ظمأه إلى الدماء ..

قبض على جماعة هائلة من غلمانه وكتبته وخدمه الصقالبة ، داخل القصر . قتل قائد الجند الفضل بن صالح الذى أخمد ثورة أبى ركوة ، وأحرق جسده ، ونثر رماده فى الهواء . وقتل رجاء بن أبى الحسين لأنه صلى التراويح فى رمضان . انتزع من جسده قلبه ولسانه وأحشاءه الداخلية ، ألقى بها الجند فى قاع النهر . وتغيرت نفسه على الكاتب الحسينى الشريف فقطع رأسه ، وسلخها ، وأرسلها إلى أهله . أخذ على الحسينى أنه جعل موظفيه وأعوانه من ذوى السمعة السيئة ، لا يظهرون إلا فى الأماكن المشبوهة ، ويفرضون الرشا والإتاوات ، وينصبون أنفسهم بديلاً للقضاء والشرطة ، ويضايقون الناس فى معايشهم ، ويسيئون إلى أمير المؤمنين بما يذيعون من سجلات مكذوبة ، ينسبونها إليه ، ويذيعونها فى الأسواق . وأمر الحضرة بقتل النساخ هانى نصوح . اتهمه بأنه يستعين بخياله ، فيحوّر ، ويغيّر فى بعض التعبيرات ، ويحذف ما يخل بالسياق ،

ويضيف العديد من الأحداث الخاطئة ، وغير الصحيحة ، ويخترع القصص والحكايات والأحداث . يكتب ما لم يرد فى كتب التاريخ ، وما قد يصل إلى الخرافات والأساطير والحكايات التى لا يصدقها العقل ..

توالت السجلات بقتل الكثير من الرواة لميلهم إلى الروايات المكنوبة ، وابتزازهم أموال الناس . قتل أعداداً من الوزراء ورجال الخاص . ارتج على والى قوص . سمل عينيه ، حتى سالتا على خديه ، ثم عراه من ثيابه . هوى بالسيف على أعضائه التناسلية ، فانبثق الدم . صرخ فى الخدم الذين همّوا بالاقتراب :

ـ دعوه ينزف !

أبلغه الأرصاد أن والى الفيوم يقلد الأعمال للأقارب والأتباع ، ويؤثر مرافقيه وأعوانه وخدمه على منافع الناس ، ويعطى لنفسه حق التولية والعزل والنظر فى بيت المال والمظالم بالولاية . فوض إلى نفسه مصائر الناس ، وتدبير الأمور برأيه ، وإخضاعها لاجتهاده ، وجعل نفسه واسطة بين الله والناس فى تطبيق أحكامه ، واستأثر بالنيابة فى إنفاذ الحل والعقد . أباح الصوم برؤية الهلال لمن يريد ، لا يشغله نفى من عجزوا عن الرؤية . وأباح الفروج والدماء والأموال ـ عرى الجند الوالى من ثيابه ، وربطوه فى قواديس ساقية . ضربوا الأبقار ، فأسرعت فى الدوران . غطس الوالى فى الماء ، وعلا . ثم غطس وعلا . تواصل الدوران حتى خفت صراخ الوالى ، وتلاشى..

أمر بقتل علماء السنة الموجودين بدار الحكمة . كانوا يجتمعون فى دار الحكمة لتدبير المكائد ، وليس للاطلاع والدرس . قال إن الدار أنشئت للقراءة والجدل والمساجلة ، وأن تكون مثوى للمجالس العلمية ، الكلامية والفلسفية ، وليس لتدبير الفتن والمؤامرات . شُنِق على بوابة متولى الحسبة أسامة بن محمد اللغوى ، والحسين بن سليمان الأنطاكى النحوى . ظل الجسدان على

الباب ثلاثة أيام ، ليتاح لأهل مصر والفسطاط رؤيتهما . فر الثالث عبد الغنى بن سعيد . حظر أمير المؤمنين الجدال والمناظرات والأهواء . عاقب عليها ، وأمر بأن يقتصر ما يفعله زوار دار الحكمة على سماع القرآن ، وقراءة أحاديث الرسول ، وقصص آل البيت . وأمر الوراقين ، فلا يبيعون كتب الفلاسفة وأهل الجدل ..

صار جعفر المعلوف من حواشى أمير المؤمنين . ضمه إلى الأستاذين المحنكين ، فهو يقوم بخدمات خصه بها الإمام دون سواه . اتهمه الحضرة بأنه يعيد على الناس ما يتحدث به أمير المؤمنين إلى خواصه ، وما يعهد إليه بفعله . جرده من جميع مناصبه وسلطاته ، وأسقط ألقابه ، وصادر ثروته ، وأمر بإيداعه السجن . فر من الجند قبل أن يصلوا إليه . مضى إلى باب الفتوح ، وكشف رأسه ، واستغاث بعفو الإمام حتى أذن له بدخول مجلسه . سأله عما فعل . أربكته هيبة أمير المؤمنين ، فتلعثم ، وغابت عن ذهنه تفاصيل سأله فيها ..

قال الإمام :

ـ سملوا عينيه فلا يشاهد ما يرويه ، واقطعوا لسانه فيصون السر !

هو مثل الطبيب الذى يلجأ إلى البتر فيحفظ للجسد عافيته . بلغ السيف أعناق الوسطاء والقضاة والكتبة عندما ظهر فى تصرفاتهم ما يريب ، أو امتدت أيديهم إلى أموال الدولة ، أو عاملوا الناس بالظلم والقسوة ، وأطار السيف أعناق من خرجوا بالتمرد والثورة ..

لم يعد يفرق بين مرتكب الذنب الصغير وفاعل الجريمة الكبرى . فى باله ، ما تعلمه من أوصيائه حتى تنبه إلى ما يفعلون ، والصراعات بين طوائف الجيش ، ومؤامرات القصور الفاطمية ، وتدليل أمه ، ومحاولات ست الملك للتسلط . حملت تصرفاته الناس على غاية الهيبة له ، والخوف منه . صار له من الهيبة ما استقر بمكانته فى النفوس .

امتدت الهمسات عن الناس الذين اختفت آثارهم ، أو سجنوا ، أو خضعوا للتعذيب . وامتدت يد القتل إلى العلماء ورجال القصر من الأساتذة والخدم الصقالبة والحشم ، وألوف من الوجهاء والأعيان والتجار والكافة ..

قيل ـ ولعلها واقعة مكذوبة ـ إنه رأى امرأة تحمل طفلها وهى تعمل فى القصر . بدا الطفل شاغلاً لها عما بيديها . أخذ الولد منها ، وضرب به على الأرض حتى مات . اصطبغ النيل بالدم ، وحملت المياه جثث البشر .

ـ ٢٣ ـ

تسللت خيرات ـ فى سكون اللحظة ، والملل ـ من باب الساباط إلى مطبخ القصر ، قبالة القصر الغربى . خلا من الطباخين والطباخات . تأملت الأتون الكبير فى الجانب ، والطواجن والسواطير والسكاكين والمغارف والأوانى والأوعية ، والبهارات فى المهارس ، وروائح الطبيخ والشواء . وثمة قدور حديدية ونحاسية معلقة على الجدران ..

رنا إليها الطباخ الواقف أمام القدور بنظرة أرعشتها .. صقلبى السحنة. له بشرة صافية ، موردة ، وأنف أقنى . وعينان زرقاوان فيهما جرأة ، تحت حاجبين كثيفين ، وشعره الحنطى ينسدل إلى ما تحت كتفيه ، وعلى جانب فمه ابتسامة سخرية ثابتة ..

كان قد صرف لها ما طلبته من خزانة التوابل : البهارات والأعشاب والزيوت والكافور والمسك والزعفران وماء الورد وماء الورد ..

قالت تدارى ارتباكها :

ـ أريد أن أتعلم ..

قال الطباخ :

ـ كما تعرفين .. كل شئ هنا بأمر مولاتنا ست الملك ..

ـ لا أريد العمل ، وإنما أريد التعلم ..

وهى تنحى وجهها عن اتجاه نظراته :

ـ مجرد أن أشغل وقتى ..

زوى عينيه ، وحدق فيها ، كأنه يستعيد الملامح التى لم تصله للوهلة الأولى ..

ـ ما اسمك ..

ـ خيرات ..

ـ وأنا مسعود ..

وقفت وراءه ، تتأمل ما يحركه بالمغرفة فى الوعاء الكبير :

ـ ما هذا ؟

ـ ثريد ..

وأفسح موضعاً أمامه :

ـ انظرى ..

مالت برأسها تحدق فى فوران الماء حول قطع اللحم . ابتسمت لتشممه رائحة شعرها الكستنائى المنسدل على كتفيها وظهرها ..

ـ عطر جميل لا يليق بالمطابخ ..

ألفت السير ـ متباطئة ومتأملة ـ فى الإيوانات والقاعات ، إن خلت من الحركة . اعتادت الدخول والخروج من الباب الذهبى بالقصر الكبير ، ومن الأبواب العشرة الأخرى تحت الأرض : باب البحر ، باب السريح ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح ، باب

الزلاقة ، باب السرية . تكرر قدومها إلى المطابخ . تنظر إليه ، وينظر إليها . أحست أنه يعريها بعينيه ، ينزع عنها ثيابها ويتأمل المنخفضات والبروزات..

التصق - هذه المرة - بظهرها . طوقها بساعديه ، وجرى بأصابعه على ظهرها . تسللت اليد إلى الصدر تداعبان ثدييها ، ثم البطن تمسدانها . قبل رقبتها من الخلف . أدارها بحيث تواجهه . بدأ جسدها يتخلى عن صلابته ، حتى استكانت فى حضنه ، وعلا ذراعاها ، فأحاطا بما تحت كتفيه ..

مال بقبلاته على وجهها . ضغطت شفتاه على قسمات الوجه . دفعها إلى غرفته الملحقة بالمطابخ . لم يبادلها كلمة واحدة . ظلت يداه تجوسان فى جسدها ، تستكشفانه : الصدر والبطن والردفين والساقين . حتى الشعر تخلله بأصابعه كأنه يمشطه . حتى القدمين نزع الخف منهما ، ودلّكهما بأصابع راجفة ..

حاولت أن تتملص ، لكنه واصل الضغط على جسدها . تخاذل ساعداها عن دفعه ، ثم أحاطت خصره - فى اللحظة التالية - بذراعيها . فك أزرار ثوبها من الخلف . مسد امتداد ظهرها . شعرت بملمس أصابعه حول سروالها الداخلى تنزعه من فخذيها ..

قال لها : أنت جميلة . وقال : أنت من حوريات الجنة ، ولست من نساء العالمين . وقال : لو أن الخليفة رآك لاستبدلك بمن صرفهن من المحظيات ..

ثمة ما يشبه الخدر سرى فى جسدها . أغمضت له عينيها ، وفتحت فاها. أهملت خشونة يديه ، واحتكاك شعر ذقنه ببشرتها . لم تعبأ بالرائحة التى اقتحمت أنفها من جسده - تمازج البصل والبهارات والثوم والقلى - ولا باللعاب الذى سال من بين شفتيه على كتفها ، وتماوجت المرئيات ، واهتز الجسد ، وتوالت ومضات النشوة ، وتناهت موسيقا عذبة لم تتبين مصدرها ، وحلقت من فوقها طيور صغيرة ، ملونة ..

ضايقتها قبلته وهو يخلى ساعديه من إحاطة خصرها . لم يمهلها حتى ترتدى سروالها . دسه فى يدها ، وربت ردفها وهو يدفع بها خارج الحجرة:

ـ نلتقى غداً ..

ترددت على المطابخ فى الأيام التالية . ربما سبقته إلى الحجرة . تتأمل أثاثها القليل ، أريكة لصق الجدار ، فوقها مرتبة ومخدتان ، وطاولة ، وحقيبة من القماش ، وحلة نحاس ، وأطباق ، وتراصت جوار الحائط صناديق خشبية وأقفاص وسلال . وتدلت من السقف مسرجة خافتة الضوء ..

يطالعها بابتسامته المقتحمة . يتأكد من إغلاق الباب ، ثم يقترب منها . تجوس شفتاه فى جسدها . تختفى فيهما الحلمتان ، والهالتان البنيتان من حولهما . تداعب أصابعه ما بين فخذيها . تغمرها النشوة حتى وهو يجردها من ملابسها ..

لم تتبين دافعها للتردد على حجرة مسعود . ليس الفضول ، ولا معاناة الملل ، ولا إرضاء اللذة الغامضة تتمازج مع شعورها بالقرف . لعلها الرغبة فى الاكتشاف تدفعها إلى ما لم تتصور أنها تفعله ، ولا تدبرت نتائجه . تمضى فى اللعبة إلى نهاياتها . تترك له جسدها قطعة صلصال ، يشكلها على النحو الذى يريده . لا يشغلها إن كان الصقلبى يأمن حجرته مما قد يودى بحياتهما ..

ـ ٢٤ ـ

أذن الإمام للقاضى أحمد الخرقانى بالمثول بين يديه . دخل القاضى قاعة الملك ، ومثل بين يدى أمير المؤمنين ..

قال الإمام :

ـ هل أعطاك كاتب الدست ما خلعناه عليك ؟

أغرى أمير المؤمنين بدعوته إلى تولى القضاء ، ما تحدثت به الأعين عن حلقات الدرس التى لم تكن تنفض فى بيته المطل على بركة الفيل ، وأنه كان عالماً بعلم الأصول . صار بيته قبلة الكثيرين من العلماء وطلبة العلم والناس العاديين ، ينصتون إلى أحاديثه ، ويأخذون على يديه من الفتاوى والأحكام فى أمور الدين والدنيا ..

قال القاضى :

- عطف مولاى تجاوز كل الخطايا والخلع ..

وتحسس الكلمات ، يخمن وقعها :

- تمنيت لو أن صلتى جاءت كتباً من خزانة الكتب الفاطمية ..

أومأ الإمام إلى كاتب الدست ، دلالة أن ينفذ ما طلبه القاضى ..

قال القاضى :

- أثق أنى سأفيد الملكة من قراءتى لهذه الكتب ..

وتضاءل فى وقفته :

- أما القضاء ، فلا قدرة لى عليه ..

وغالب تسارع أنفاسه :

- قال الله فى محكم آياته : " إناً عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها " ..

قال الإمام :

- أكمل الآية " وحملها الإنسان " ..

- ذلك ما لا تقوى نفسى الضعيفة عليه ..

قال الرواة إن القاضى أحمد الخرقانى آثر أن يبتعد بنفسه عن طريق السلطة . خشى أن يشغل أحكامه إرضاء مزاج الخليفة ، وتبرير سجلاته ..

قال أمير المؤمنين :

ـ لولا وقوفى بمعرفتك وكفايتك ما فوضت إليك أمر القضاء ..

أردف فى نبرة تسليم :

ـ لأنك تطلب العلم ، فأنا ألبى مطلبيك !

ـ ٢٥ ـ

لم تعد المطابخ فى الصورة التى ألفتها . عرفت ـ من أحاديث ست الملك ـ أن الحضرة قل طعامه من المطابخ الملكية . عطل الأسمطة التى يجلس فيها كبار موظفيه ، وعطل المطابخ فى أحيان كثيرة . يأمر ، فيقتصر طعامه على ما تدعو إليه حاجة الجسد . حتى ولائم عيد الفطر أبطلها . سكتت النيران فى المطابخ ، فصاحب القصور أول من يجب أن يأكل ما تطهوه ..

قال مسعود :

ـ نسيت الطهو وتحولت إلى خادم يحمل ما يكفى لسد جوعه من بيت السيدة الوالدة ..

لم يعد أمير المؤمنين يكتفى بأكل خدم المطابخ من الأنواع نفسها التى يطبخونها . يخشى أن يستبدل بالأطعمة ما يؤذيه . يأكل مسعود مما يطبخه ، ويأكل رئيس الطباخين من الطعام نفسه ، ثم تتذوقه قهرمانة القصر الفاطمى . تضع الطعام جوارها بما يكفى لظهور النتائج القاسية على الطباخين . لم يعد يأكل طعاماً إلا إذا تذوقته القهرمانة أمامه ..

استبدل بالكؤوس التى يشرب فيها كؤوساً من حجر اليشب . من خواصها الوقاية من السم . توضع فيها الأشربة . إذا كان بها شىء من السم ، تغير لونها ، وافتضح أمر الفاعل .

قال مسعود :

ـ كان يعلن إعجابه بطريقتى فى سبك الطعام ، وفى نوعية البهارات التى أضيفها إليه ..

وارتجفت ملامح وجهه :

ـ ثم بدأ التخوف من أى مذاق يراه غريباً ..

ونفخ فى استياء :

ـ ثم لم يعد يأكل من عمل المطابخ ..

ورنا إلى خيرات بنظرة متأملة ، كمن يحاول سبر مشاعرها :

ـ لمولاتنا ست الملك كلمتها النافذة عند حاشية القصر ..

أومأت برأسها :

ـ طبعاً ..

ـ من هؤلاء الحاشية حامى المطابخ ..

غرزت نظرة فى عينيه :

ـ ماذا تقصد ؟

أدار وجهه يتقى نظرة التوجس :

ـ ليتها تأمره بأن يعيد ما اقتصه من راتبى ..

ـ هل أخطأت ؟

ـ يحاسبنى على توقف المطابخ ..

أدارت نحوه ملامح غاضبة :

ـ من تتصورنى ؟!

وتداخلت فى صوتها بحة غريبة :

ـ لو أن الجهة العالية عرفت أنى أعرفك ، ربما أنهت قدومى إلى المطابخ .. وربما أنهت حياتى نفسها ..

شكا لها نظرة الخدم والعبيد وأهل مصر . يكرهونه مثلما يكرهون كل الصقالبة . هو ـ وأبناء جنسه ـ خواص خدم الإمام . يندسون وسط الناس ، ينقلون إليه الأخبار ، ويمنعون عنه الأذى ..

قال الرواة إن مشاعر القلق والخوف تملكت نفس الشيخ ظل الأمان إمام الجامع الجديد . لم يهبه الجند فرصة السؤال ، ولا التحدث إلى آل بيته . مضوا به فى شوارع ودروب وعطوف . تابع الناس الموكب بنظرات متسائلة . بدّل الجند ما ألفه من الطريق إلى مجلس أمير المؤمنين . دفعوه داخل الأقبية أسفل القصر ، فإلى حجرة تغطت بباب من قضبان الحديد . كانت الحجرة خالية إلا من أربعة كلاب ، لم تهب القاضى فرصة التلفت . تناوشته، وألقت به على الأرض ..

قال الإمام وهو يضحك :

ـ فلتعوض الكلاب جوع الأيام الفائتة ..

واصلت الكلاب التهام القاضى بأفواه نهمة . لم يعد إلا نثارات دم ، وبقايا عظام ..

قال الرواة إن أمير المؤمنين أبا على منصور ـ لما ضاقت به الأمور ـ شكا إلى الشيخ ظل الأمان ما يعانيه . كان أمير المؤمنين شغوفاً بمجلسه ، ولا يصبر عنه . صار مؤنساً لأمير المؤمنين ، ورفيقاً لجولاته فى الأسواق ..

لم يعد الإمام يطيق البقاء بمفرده . تكلم عن أشباح تظهر له ، تتراقص أمام عينيه ، وتقترب منه . تطالعه فى ظلمة الردهات والأبهاء والقاعات والأقبية والحجرات ، أو فى أضوائها الخافتة ، وأحياناً فى غرفة نومه ـ حين يغلقها عليه . تتحرك فى تداخل النور والظلمة ، تتقافز على الأرض ، وفوق

الجدران ، وأعلى السقف ، أشباح تومض ملامحها بما يذكره برجال أمر بقتلهم ، أو قتلهم بنفسه . تثبت نظراتها عليه ، تخيفه ، تطارده . يعيد النظر والتحديق ، فتتلاشى الأشباح المتماوجة ، كأنها لم تكن ..

ربما استيقظ من نومه على نداءات وصيحات وأصوات استغاثة . يتلفت مفزوعاً . لا يطالعه إلا الصمت والوحدة . تمتد يده ـ بتلقائية ـ إلى الناقوس الصغير بجواره . يمسك يده فى ظل الخوف من الأثر الخاطئ فى نفوس الخدم . ظهر له برجوان وهو يمضى فى الطرقة الموصلة بين قاعة الحكم وأجنحة النوم ..

لم يعد الأمر مجرد خيالات ، عندما توهج الضوء من مصدر غائب ، فملأ المكان . دهمه خوف حقيقى . كتم صرخة ، لو أنه أطلقها تنوى صورة المهابة فى أعين الخدم والجوارى ..

فكر فى أن يجرى إلى خارج القصر ، إلى المطابخ ، أو معسكرات الجند. إلى أى موضع فيه ناس ..

التقى بابن عمار فى أثناء سيره الليلى خارج القصر . بدل طريقه ـ فى اليوم التالى ـ اختار السير وسط البنايات والأسواق . الحراس يتبعونه ، يضعون أيديهم على الخناجر والسيوف ، يتأهبون لكل تصرف يستهدف أذية الإمام ..

تواصلت الأيام ، فلم يعد يدرى إن كانت الأطياف تظهر له فى اليقظة ، أو المنام . تداخلت الأجساد التى تلتف بأردية شفافة ، وبالنيران ، والدخان. تموجات من الأطياف والأشباح والأرواح والشياطين والموتى ، تتجول فى القاعات والردهات ، تتقافز فوق الجدران وعلى الأسقف ، تصعد السلالم وتختفى ، أو تعود ثانية . طالعه طيف الشيخ ظل الأمان يرمقه بنظرة ثابتة فى الظلام السادر . سيوف تطيح بالرقاب ، وخناجر تبقر البطون ، وأفواه

تصرخ بآخر ما عندها ، بشر يخرجون من تحت الأنقاض ، وجيف يقذف بها مد الموج . تطايرت نعوش ، وتداخلت وجوه وقرون وحوافر وأظلاف ، وتراقصت هياكل عظمية ، وانفرجت الأنقاض عن جثث التفت بأكفانها ، وحطمت الحيوانات المفترسة أقفاص الحديد ، وهاجمت من صادفته ، وخرجت العناكب والفئران وديدان الأرض من أعشاشها وجحورها . طارت ، وركضت ، وصاحت ، وتعالت أصواتها بالغناء ، وتكثفت الغابات فشعر بالاختناق . ثمة ما يشبه الدخان ، وطيور سوداء ، ورؤوس جمال ، وشعور هشة ، وذقون مرسلة إلى الأرض ، وسحن شائهة الملامح ، وأعين مشتعلة بوميض النار ، وأفواه يقطر منها الدم ، وأجساد عارية ، تسلخت جلودها ، وفقئت أعينها . ورقصات مخبولة كأنها لجن . تترامى أصوات ـ من أماكن غير معروفة ـ تناديه باسمه منصور . تسقط صفات الإمامة والخلافة ، وما استقر الناس على التحدث به عنه . تتحسس راحته نقاطاً ، تساقطت من السقف ، تقرفه لزوجتها . يترامى صهيل جياد ، وقرقعة حوافر ، وصليل سلاسل وأغلال وقيود ، وطرقات أبواب ، واهتزاز جدران ، وفرقعات ، ونداءات ، وصيحات ، وصرخات ، ورفع أذان ، وصيحات تكبير ، وصليل سيوف ، وبكاء مكتوم ، ونشيج ، من أماكن يصعب عليه تحديدها ..

قال الإمام إنه يشعر بالوحدة فى غياب القاضى عن مجلسه ، حتى لو خلا إلى نفسه بعيداً عن مجلس الحكم . صارحه بأن أفعال ابن عمار وبرجوان وغيرهما من الوزراء والكتبة ، ربما تسببت فى تعقيده ، وكثرة هواجسه ، وميله إلى سفك الدماء ، وقال إن القتلى صاروا كوابيس وأحلاماً فى يقظته ، يراهم رؤية العين ، ويراقب تصرفاتهم وأفعالهم ، ويفهم ما يصدر عنهم من كلمات . وحده هو الذى يشاهد وينصت . أشار إلى المواضع ، فهمست الكلمات المتحيرة . كان قد أزمع ـ حتى لا تهتز صورته فى أعين الخدم ـ أن يغلق شفتيه على السر فى داخله . ثم لم يعد أمامه إلا أن يفض ما بنفسه ، فروى للشيخ ما يعانيه .

قال الشيخ ظل الأمان :

- إن الجن مذكورون فى القرآن ..

قال الإمام :

- إنهم أناس أعرف سحنهم ..

سأل الشيخ :

- هل هم من عبيد مولانا ؟

- هذا ما أظنه ، وإن كنت لا أذكر متى التقيت بغالبيتهم ، ولا أين التقيت بهم ..

غالب الشيخ تردده :

- لعلها أشباح من نالهم مولانا بقصاص عدله ..

أضاف للنظرة الغاضبة :

- ذكرتم الظالمين ابن عمار وابن جوهر ..

شوح الإمام للشيخ بيد مرتعشة :

- لا أريدك فى مجلسى !..

تغيرت نفس الحضرة على القاضى ، لأنه لم يصن ما خصه من أسرار ، ولم يحفظها من الضياع والشيوع ، حتى نقلتها إليه العيون من همسات الناس فى الأسواق . تأكد من خيانته ، فأمر بقتله ، وقتل من يلونون به ، واستصفى أموال الجميع ..

- ٢٦ -

## عيـد الفطـر ..

خرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على ميدان بين القصرين . يضع على رأسه عمامة من الجوهر ، ويحيط به - كالجناحين - حرسه من الركابية ، وحمل الخدم والجند من داخل القصور الفاطمية شارات الخلافة ليشاهدها الناس فى الشوارع : أسلحة مذهبة ومفضضة ، ومغطاة بالجلد ، أعلام من الحرير المخطط بالذهب ، هوادج تحيط بها ستائر حمراء أو صفراء ، سروج وأطواق وجلاجل محلاة بالذهب والفضة ، قلائد عنبر ، الكثير من الصفافير والنقارات والصنوج والأبواق والمداخن ، أطقم برسم الدواب الكثيرة ، ليس بينها ما لونه أسود ، فلا يتذكر الناس أيام العباسيين . يسبق الركب مباشرة ، حملة الآلات الخاصة : المظلة المرصعة بالأحجار الكريمة ، المذبتين العظيمتين ، السيف ذى القبضة المرصعة بالجوهر ، الرمح المغلف باللؤلؤ ، الدرقة المزينة بالذهب - كانت للشهيد حمزة بن عبد المطلب - الدواة من الذهب الخالص ..

ألف الخروج إلى الاحتفالات الدينية : المولد النبوى ، رأس السنة الهجرية ، الذهاب إلى الحج ، والعودة منه ، موالد الأولياء ، رؤية الهلال وليالى رمضان ، ليالى الوقود الأربع : ليلة أول رجب ونصفه ، وليلة أول شعبان ونصفه . إذا سار فى موكب معلن ، سبقه الأعوان يطرقون أبواب الدور ، يأمرون الناس أن يظهروا الفرحة : يكنسون أمام دورهم ، ويعلقون القناديل ، وينشرون البيارق والأعلام ..

زين تجار القاهرة والفسطاط أمام دكاكينهم ، وفى الطرق القريبة ، بما تقتضيه تجارة كل منهم ، يطلبون البركة بنظر الحضرة ..

احتشد فى الميدان مئات من كبار موظفى الدولة ، وقادة الجيش ، ورجال الأسطول ، وأرباب الرتب والتغييرات والسيوف والأقلام ..

اصطف العساكر والفرسان فى الرحبة أمام باب الريح ، فى أيديهم البيارق والسيوف . ينتظرون أمير المؤمنين عند خروجه من باب الذهب ، يرافقون موكبه إلى جامع الأزهر . دق الطبل ، ونفخ البوق ، وضرب الكوس . خرج قبل موعد الأذان . على رأسه المظلة بشدة الجوهر والطيلسان . ارتدى درّاعة مفتوحة من الأمام . من النحر إلى أسفل الصدر ، حلّيت بأزرار من فصوص اللؤلؤ . أحاط بالركب مقدمو صبيان الركاب . اثنان فى جانبى الشكيمتين ، واثنان فى عنق الدابة من الجانبين ، واثنان فى ركابه ، والمؤذنون يتلون القرآن . وثمة المئات من صبيان الركاب حول الموكب ، عليهم المناديل الطبقيات ، ويتقلدون السيوف المحلاة ، وشدت خصورهم بالمناديل ، وفى أيديهم السلاح . عرف عنهم أنهم يقتلون فى الحال من يأمر الحضرة بقتله . نثرت الورود على الركب ، ورش ماء الورد ، وتضوعت روائح المسك والعود والعنبر من المباخر الموقدة على أبواب الدكاكين ، وفى أيدى خدم أمير المؤمنين والصبية ..

مضى الموكب إلى جامع الأزهر . جهز الجامع لاستقبال أمير المؤمنين بإطلاق البخور ، وإغلاق الأبواب ، ووقوف الجند عليها . لا يفتح أى باب إلا إذا تثبت الجند منه . أم أمير المؤمنين موظفيه وقواده ووجهاء الناس فى صلاة العيد . ثم ألقى خطبة الجمعة ، وبدأ رحلة العودة إلى القصر ..

حرص على أن يعطى أرباب المساجد التى مر عليها ، كل واحد ديناراً . عمت الصدقات المساكين ، وفرقت الرسوم على ذوى الحاجة ..

أمر للوزير صالح بن على الروذبارى بجوائز ، وخلع عليه ما يرتديه يوم العيد . لم يتخل عما استنه أبوه وجدّه ، فكان يخلع على وزرائه فى عيد النحر ، وفى غرة رمضان ، وفى أول جمعتين منه ، وفى عيد الفطر ، وفى موسم فتح الخليج ، وعيد الغدير ..

أكثر من منح الألقاب . فاق فى ذلك ما كان يمنحه أبوه وجده . وزع الخلع والكسوات على إخوته ، وأبناء وبنات عمومته والأمراء المطوقين والأستاذين المحنكين والمتميزين وكاتب الدست الشريف ومتولى حجبة الباب وأرباب العمامة والقلم والشعراء ..

اتخذ أسلوب الاستمالة والتشجيع بهبات الأموال والألقاب ليخلص رجال الدولة فى أداء أعمالهم . فى باله أفعال ابن عمار وبرجوان وغيرهما من كبار الموظفين . فى عهده ، وعهد أبيه وجده ، جعلوا الفساد والتضييق على الناس صورة الحكم ، وأساءوا إليه . جذور الفساد ممتدة إلى ما قبل أيام حكمه . بدت مستعصية الحل ..

وجد فى الإنعام على كبار الموظفين من المنح والهبات والعطايا ، ما يغريهم بالتخلى عن الرشوة والبرطيل وفساد الذمم . وحين رفض كاتب المالية صرف أموال الدولة حتى لا تضيع ، أملى أمير المؤمنين بتوقيعه : " المال مال الله عز وجل ، والخلق عبد الله ، ونحن أمناؤه على الأرض ، فاطلق أرزاق الناس ولا تقطعها ، والسلام " ..

ارتدى الوزير الخلعة : رداء أحمر اللون ، ومنديلاً ، وعقداً منظوماً بالجوهر . شق شوارع القاهرة . دبر له غلمانه موكباً من باب النصر إلى قلب القاهرة . اكتظت الطرقات بالجموع الهاتفة ، وغصّت الأسطح والنوافذ بالوجوه المنطلقة ..

مضىْ الركب حتى دخل من باب القنطرة إلى باب الوزارة ..

قال الرواة إن صالح بن على الروذبارى أوكل إلى نفسه النظر فى القضايا التى يعجز القضاة عن إبداء الرأى فيها ، وإصدار الأحكام التى تحفظ لكل صاحب حق حقه . يفتح أبواب بيته لأصحاب الدعاوى والمتظلمين. يدرس القضية من كل جوانبها . يتأنى فى إصدار الأحكام ، فلا يشوبها غرض أو تفضيل ..

أشاعوا أنه استبد بالأمور ، فهو يجلس فى منصة القضاء ، لا ليعدل ، وإنما ليصدر أحكام الإعدام بما يرضى نوازعه وميوله إلى قتل عباد الله . اشترى بيتاً تطل نوافذه على رحبة العيد . لا يغادر موضعه حتى يفرغ المشاعلى من تصفية من دفع بهم إليه . يصفق بيديه فور جلوسه على الكنبة لصق النافذة . يطلب شراباً للارتواء ..

- ٢٧ -

صار أحمد الكناس شجى فى حلق صالح بن على الروذبارى . لاحظ إن إشرافه على الخراج يسّر له مطلق التصرف فى أمور البلاد . جمع فى يده كل المناصب الدينية والسياسية والحربية . صار عزل الولاة وتوليتهم بأمر منه ، لا يعرض على أمير المؤمنين ، ولا يمهر بخاتمه ، وبقاء الولاة فى مناصبهم رهن برضا الروذبارى عنهم . كفى أمير المؤمنين أمر الاهتمام بالدولة ، وانفرد بالتدبير ..

أظهر الكناس مؤاخذته على عدم اهتمام الروذبارى بمشكلات العوام . غضبه من حرص الوزراء على أن يحتفظ كل واحد بالنفوذ والسلطان فى قبضة يده . لكن الروذبارى شغله جمع الأموال لنفسه ، ولأسرته . أبطل أمر الوزارة والدواوين ، وأبطل بيت المال . استأثر بالأمر كله لنفسه . يأمر ، وينهى ، ويوافق ، ويرفض ، ويمنح . الأموال تحمل إليه . يحصل على نسب من المصادرات والضرائب التى تأخرت جبايتها . اعتبر استردادها جهده الذى يستحق المكافأة . ضاعف المكوس على الأراضى والحوانيت والحمامات والمعاصر والطواحين ، وكبس بيوت الناس بالمشعل والشمع . أهمل شئون الدولة ، وجعل همه متعه الخاصة وممارسة الألعاب . وعمل على أن يختفى الكناس من الحكم ، أو أن يختفى من الحياة كلها ..

عرف أحمد الكناس أن الروذبارى يدبر له ، فعاد إلى القاهرة من بيته الريفى بناحية سرياقوس . تتبع ما قيل ، فلم يصل إلى طرف خيط ينتهى به إلى من عهد إليهم الروذبارى بتنفيذ التآمر . أهمل الأمر جميعاً ، وعاد إلى سرياقوس ..

صار يلزم الحذر ، ويحتاط لتوقعات خافية . استرضى حراسه وجنوده بالأموال ليتجنب خروجهم عن طاعته . حرص على سد أبواب القصر بالمزاليج ، وإغلاق النوافذ والكوات ، وجعل للقصر أبوابه الواضحة ، والخفية، تفضى إلى ممرات ومسالك ، متعرجة ومتقاطعة ومتشابكة ، تتشابك فيتوه فيها من يدخل القصر للمرة الأولى ، أو هو من غير سكانه . تنتهى ببوابات صغيرة ، تنفذ إلى الخلاء ، أو الجبل ، أو أطراف المدينة ، فيسهل الفرار فى أوقات الخطر . يصعب وصول جند الخليفة إليه ، إذا تغيرت نفسه عليه ، فطلب اعتقاله أو قتله . يواجهون التيه ،فيسبقه خدمه إلى الباب الذى يغيب من أمامه الخطر . وكان يمضى فى طريقه على ظهر الجواد ، لا يتلفت ، ويعطى انتباهه لكل حركة أو نأمة . يدرك أن الأعين تراقبه فى الشوارع والميادين والجوامع ، ومن وراء الجدران . تتعرف إلى من يلتقى به ، ومن يجالسه ، وتلتقط الكلمات والتصرفات والإيماءات ..

هجم عليه جنود الروذبارى وهو يسلم جسده لاسترخاء القيلولة ، فى بيته المطل على الحقول . قاوم ، وحاول التملص ، والإفلات من حصارهم وأذيتهم. تكالبوا عليه بسيوفهم ، فقطعوه إلى مزق من اللحم والدم ، تناثرت فى القاعة الفسيحة ، فصبغت الأرض والجدران باللون الأحمر . لم يبق سليماً إلاّ الرأس . حمله الجنود على رمح ، ومضوا به فى شوارع سرياقوس ، يسبقهم مناد يقول : هذا جزاء من تتغير عليه نفس الوزير !..

عرف عنه ميله إلى محبة العلماء والكتاب ، فهو يقرّبهم ويحسن إليهم ، ويفرق عليهم الخلع وصرر المال . وكان قصره موئلاً لهم ، يقوم إذا دخلوا

عليه ، يحتفى بهم ، ويقعدهم إلى جانبه ، وإن مال إلى التكليف ليظهر هيبته. أكثر من إنشاء الرتب والزوايا والخانقاوات ، وأكثر من الصدقات ، وفرق فى أهل العلم والدين أموالاً كثيرة . عرف عنه الذاكرة الحافظية ، والقدرة على الاستيعاب . وكان عالماً بالعلوم الشرعية والأدب ، حافظاً لكتاب الله ، ولأحاديث الرسول وأخبار السلف والصالحين ، وحكايات المتقدمين . وكان يلازم تلاوة القرآن فى رمضان ..

لم يطلب أحد عونه إلاّ أجابه . وكان يجود بالمال قبل أن تصل إلى يده .

كان يهمل توقعات المنجمين . وكان يقول : إذا حل الموت فلن يكون مفاجأة . كل البدايات تنتهى إلى الموت ..

بنى لنفسه مسجداً وضريحاً ، عليه قبة عظيمة ، زين الواجهة بالشبابيك الجصية ، والمقرنصات ، والنقوش ، والزخارف ، وآيات القرآن ، وصفح الجدران بالذهب من الداخل والخارج ، وأسدل عليها ستور الحرير ، وتدلت فى الصحن قناديل الذهب ..

ألف ـ فى حضرة أمير المؤمنين ـ ألا يتحدث إلا فيما يسأله فيه . وكان الإمام يوقره ، ويجعل له فى نفسه موضعاً طيباً ..

بلغ نبأ مقتله القاهرة ، فحزن الناس . أخلى المقعدون أماكنهم ، وأغلق التجار دكاكينهم ، وسرت بين الناس حركة طارئة ، وتعطلت الأسواق أياماً متوالية ، حتى نادى المنادى بأن يعود كل شئ إلى ما كان عليه ، ليدبر الناس أمور معيشتهم ..

ـ ٢٨ ـ

قال الرواة إن ست الملك لم تستطع المفاضلة بين الكاتب معروف الشامى والكاتب حافظ أبو طرطور بحيث تبقى على أحدهما . بدت تصرفات الكاتبين شراً خالصاً ، لا سبيل لدفعه إلاّ باجتثاثه . نبت شيطانى ، من الخطأ

معالجته أو تهذيبه . أزمعت أن تترك تصفيتهما لهما ، كل منهما يدبّر للآخر حتى يغتاله ..

مضت خيرات فى السكك والأزقة والدروب والعطوف . تلاحق خطوات الخادم فى هرولة تثير التراب تحت قدميها ، ولا تتيح لها الالتفات ، لكنها تعرفت إلى ما لم تكن رأته من الأسواق وزحام المارة والمساجد والقياسر والروابط والمتاجر والطواحين والحمامات والأفران والمناظر والمتنزهات والمدافن ..

اخترقت - فى تعدد المشاوير التى عهدت بها إليها ست الملك - أبواب القاهرة الثمانية : باب النصر ، باب الفتوح ، باب زويلة ، باب المحروق ، باب البرقية ، باب سعادة ، باب الفرج . اعتادت مصاطب الدكاكين وزحام الأسواق والبيع والشراء والمساومات والنداءات والصيحات وباعة الذهب وسن الفيل والفضة والأبنوس والخزف والأثاث والحرير والملابس القطنية والأوانى والجبن المقلى والحلوى والقرنفل والنارجيل والفلفل الأسود والزنجبيل والقرفة والعنبر واللبان والنحاس والسلاح والأعلام والخناجر والعصى والأحجار الكريمة ، وملاعيب الحواة وصندوق الدنيا وخيال الظل وصيحات المجاذيب ، واختلاط أصوات طيور الزينة فى أقفاصها ، وروائح العود والصندل والكافور والبهارات والشواء والعرق والقمامة والروائح الغريبة والبراز المتناثر فى الأركان ..

دست الرقعة فى صدرها ، يسبقها الشعور بالمغامرة ، تخالطه - فى الفترة الأخيرة - ما لم تستطع تحديده . ربما الرغبة فى فعل الشر ، وإن لم ترسم له ملامح محددة . تعانى العطش إلى ذراعى مسعود القويتين ، وحضنه ، وقبلاته التى تمسح جسدها ، والنشوة التى أجاد التعرف إلى مواضعها . أزال عنها غلالات لم تكن تراها ، ولا فطنت إليها . ذلك ما كانت تنتظره ، وتتوق إليه ، وإن لم تفطن إلى ملامحه من قبل ..

لم تعد تطيق البعد عنه . أذاقها من فنون الغرام ما قذف بها فى دائرة السحر . تراه فى داخل الأكواب والكؤوس ، والتماع أوعية الذهب والفضة ، وفى زوايا الردهات والسراديب والأقبية . حتى فى التكوينات التى يصنعها تمازج الأضواء والظلال فى قصور الحريم . تشرد فى ما قد يهبه لها فى زيارتها التالية إلى المطابخ . كان يذكر ـ مثلها ـ ومضات من طفولته ، الفترة التى سبقت قدومه إلى مصر ، والتحاقه بالخدمة فى القصور السلطانية حتى عمل فى المطابخ . لا يعى مساحات يطمئن إليها قبل أن يستجلبه القراصنة بطريق البحر .

وهو ينتزع ابتسامة باهتة :

ـ أعرف أنى من صقلية ، لكننى لا أعرف موضع صقلية على الخريطة ..

ـ أنا لا أعرف أين ولدت ، ولا من هما أبواى ، وإن كنت على يقين أنى لم أولد جارية ، وأن اسمى هو جلنار ..

فى بالها ـ الآن ـ صرخات ، وحشرجات ، ودماء ، وأجساد مقطوعة الرءوس ، وصدور مخترقة بالسيوف والخناجر ، وبطون مبقورة بالحراب . فى بالها الخادم الصقلبى الذى قتله الإمام بخنجر فى يده . اقتحم عليه المطابخ وقتله ، عندما تبينت عيناه شعرة دقيقة فى الحساء . انتتر بالغيظ ، ومضى فى طرقات القصر ، لا تشغله النظرات المتسائلة ، أو الخائفة . كان الخادم الصقلبى يقلب الطعام فى الأوعية ..

ـ ما عملك هنا ؟..

انتزع مسعود الكلمات من قبضة الخوف :

ـ أخدم مولاى فى المطابخ ..

صرخ :

ـ وتدس له الوسخ فى طعامه ..

ثم وهو يدفع الخنجر فى صدره :

ـ من يفكر فى إيذائنا نؤذيه فى حياته !..

ألفت دفعه لها داخل الحجرة المتصلة بالمطابخ ، يحتضنها ، فيفجر النشوة فى جسدها . قتله الإمام فلم يعد هناك ، لم تعد تقدر أن تتسلل إليه فى المطابخ ، ولا فى أى مكان ..

أزمعت ـ من يومها ـ أن تثير الصواعق والحرائق والبراكين . تفرض الذل على من يستحقه . تجتذبه برائحة الطعام ، يتشممها ، ولا يتذوقها . يمنى النفس بما لا يحصل عليه ..

ـ ٢٩ ـ

وقفت على ناصية الطريق المفضى إلى رحبة باب العيد ..

حبست أنفاسها لرؤية الكاتب معروف الشامى قادماً من جهة باب النصر..

تنبهت لصوت خطوات من درب الفرحية .

واصل كل منهما النظر إلى صاحبه . يتوحش منه ، ويخونه ، ويترصد له. استل الشامى خنجراً من الجراب الجلدى المربوط أسفل ساقه ، وتأهب للانقضاض :

ـ يا ابن الفاعلة !

تلقى أبو طرطور ـ بخنجره ـ ضربة الخنجر المتجهة إلى صدره . انتتر الخنجران بعيداً . ارتمى الشامى على خنجره ، فالتقطه ..

رأى أبو طرطور الخنجر ، فأبطأ من خطواته . تراجع إلى الوراء بتلقائية، يتلمس جداراً ، أو شيئاً جامداً يستند إليه ، ثم اندفع برأسه وكتفيه. علا فى اصطدامه ببطن الرجل صوت أقرب إلى الخوار . تلقى

ضربة الخنجر بضربة فى كتفه . انزلق الخنجر من يده . ارتطم بجدار ، وانتثر إلى أرضية الطريق ..

لم يعد أمامه سوى أن يعارك بيديه . يلجأ إلى قوته البدنية وحدها ، رأسه ويديه وقدميه . يستخدمها بما يتيح له أذية خصمه ، وإن أعوزه صفاء الذهن ، ليغزل النسيج ، فلا يثقب ، أو يتمزق . تراشقا بنظرات محملة بالكره وهما يلهثان ..

استجمع الشامى - فى اللحظة التالية - كل طاقته ، واندفع - برأسه - ناحيته وهو يطلق صرخة عالية . سقط فوقه . اشتبكا فى عراك . تداخل الجسدان . تمرغا على الأرض . خلت يدا كل منهما من السلاح ، فطال صراعهما . لم يعد أحدهما يسيطر على جسد الآخر ، فيؤذيه ، أو يقتله . لجآ إلى اللكمات والركلات والعض ، وانبثق العرق ، والدم ..

قاومت خيرات الخوف وهى تستند إلى جدار ترقب مشهد العراك الدامى..

طال اقتتالهما . بدا أنه لن ينتهى . تفادى أبو طرطور - بقفزة إلى الوراء. ركلة اتجهت إلى صدره . ثم كور قبضته . قذف بها رأس الشامى . قاوم الشامى تخاذل جسده ، وتهيؤه للسقوط على الأرض ..

أطلق صرخة مكتومة ، وسقط متكوماً ..

قالت ست الملك :

- نحن لم نفعل إلا أن أعدنا إليهم بضاعتهم !

## - ٣٠ -

ضبط المزملاتى محروس الشربينى متلبساً بالتلصص على النساء فى حمام الذهب . قيل إنه صنع ثقباً فى الباب الموصل إلى الحمام ، ينظر منه إلى النسوة وهن يستحممن . اقتيد إلى بقعة الدم ، بشهادة من رأوه ، وبدون محاكمة ..

أصدر السلطان سجلاً ـ فى مساء اليوم نفسه ـ بمنع نزول النساء إلى الحمامات ..

تحولت الحمامات إلى مواخير . شدد على رجال الحسبة ، ففيها يتم الوضوء الذى يمهد لفريضة الصلاة . منعوا النساء من الدخول إليها عرايا بلا مئزر ، ومنعوا اختلاط الرجال والنساء . من ضبط فى الحمام بلا عمل ولا طالب ، عوقب بالضرب فى موضعه ، أو خارج الحمام ..

حظر خلو رجل بامرأة ليست له بمحرم . عاب على النساء خروجهن إلى مواضع اللهو والفرجة ، حيث يختلط النساء بالرجال ، وينكشف ستر الحياء. أصغى لنصيحة الشيخ عابد الشامى إمام المقس بوجوب منع خروج النساء على ذلك النحو السافر .

زاد إلى وظيفة العجائز فى ترددهن على البيوت ، فهن يتبعن النسوة العابثات ، ويستعلمن عنهن ...

توالت السجلات بألا تكشف امرأة وجهها فى طريق ، وبتنظيم دخول الحمامات . ثم توالت المحظورات : منع اللهو والمسكرات ، ومنع النساء من الغناء والنشيد ، ومن الجلوس فى الطرقات ، والاجتماع على شاطئ النيل ، والخروج إلى أماكن المرح مع الرجال . منع ـ فيما بعد ـ وقوف الرجال فى طرقات النساء ، وشدّد ، فلا تجلس امرأة على باب دارها . التعزير عقوبة المخالفة . يتأكد عماله من نفاذ أوامره فى الأسواق والباحات وضفتى النهر. وأمر بمنع النساء من الخروج فى يوم عاشوراء . اختفت مظاهر جماعات النوح والبكاء على الحسين ، وإنشاء المراثى ، ووضع المسوح . ثم قال الإمام:

ـ امنعوا النساء من مغادرة البيوت إلا لضرورة ..

وعض شفته السفلى ، وأفلتها :

ـ حظرنا عليهن التبرج ..

والتمعت عيناه ببريق وحشى :

ـ مكان المرأة هو البيت ..

وعلا صوته الراعد :

ـ لا تغادره إلاّ إلى القبر ..

عاب على النساء خروجهن إلى الشوارع سافرات بدون حجاب ، ونزولهن إلى الأسواق ، واختلاطهن بالرجال ، وإقبالهن على شرب الخمر . تجمّع النساء يأتى فى الخروج من الحمامات العمومية والمقابر والأسواق والجلوس على شاطئ النيل وركوب المراكب مع الرجال . ومنع النساء من النظر عبر الكوات ، أو من فوق الأسطح ..

حدد أمره ، فالمرأة تلزم بيتها ليلاً ونهاراً ، فيما عدا ليالى رمضان . يسمح للنساء فيها بالخروج لزيارة الآباء أو الأعمام أو الأخوال . لا يفرق الأمر بين الشابة والعجوز . يتقدم كل سيدة خادم ، يحمل فانوساً تضيئه شمعة ..

أهملت النساء أمره بعدم الدخول الحمام إلاّ بمئزر ، فأمر بإغلاق حمامات النساء . استثنى من أوامره النسوة الذاهبات للحج ، وللأسفار خارج القاهرة ومصر الكبرى ، والإماء فى سوق الرقيق ، وغاسلات الموتى ، والأرامل المقعدات فى الأسواق . أضاف إلى ما سبق أمره بعدم صنع الخفاف للنساء حتى يعوق خروجهن ، وليضمن تنفيذ أوامره بإلزامهن البيوت . وأمر بإغلاق الأسواق نهاراً ، وفتحها ليلاً ..

أضاف من بين أسنانه :

ـ ليت الرسالة تصل إلى ست الملك فتلزم قصرها ..

لم أتثبت من رواية ـ لعلها فرية ـ عن خروج نسوة إلى الشوارع ، بتحريض من أزواجهن من التجار والباعة والأعيان والعلماء . حثا النسوة تراب التظلم والشكوى على الرءوس التى خلعت أرديتها ونشروا الشعور ، وعلت أصواتهن بالنحيب والنشيج والبكاء ، وخمشن الوجوه ، ولطمن الخدود، واستغثن برحمة أمير المؤمنين ..

ترامى تلاغط نسوة ، من داخل حمام عمومى ، والحضرة فى جولة بالأسواق . أمر ، فسد الجند عليهن باب الحمام بالحجر ..

قال المعلم محروس الأباريقى :

ـ ليته يفرض القيود على النساء لأسباب دينية ..

وضم شفتيه يغالب ضحكة :

ـ يروى الكثير عن العقدة التى تملى عليه تصرفاته ضد النساء ..

قال الشيخ مصابيح :

ـ لو أنه كذلك ما أخرج من قصره أمهات أولاده وجواريه ..

كان الإمام قد أمر ، فخرج من القصر الفاطمى الكبير أعداد من أمهات الأولاد والمحظيات والجوارى والعبيد من القصر الفاطمى الكبير . أعتق سائر ممالكه من الذكور والإناث . حررهم لوجه الله تعالى ..

أمر ـ فى الوقت نفسه ـ بالقبض على جميع أملاك زوجته وأمه وأخته وعماته وخواصه من النساء ، وإقطاعاتهن وأموالهن ..

قيل إنه أراد ـ بأوامره ـ أن يشمل عدله أهل بيته ، كما قرره على بقية الناس ..

أخذت ست الملك ـ فى السر ـ أم ولده أبى الحسن ، والولد نفسه . أسكنتهما بقصرها ، فلا يطالهما أذاه ..

## ـ ٣١ ـ

قال حارس البوابة الخارجية للقصر الغربى ، وهى تنقر ظهر يده بإصبعها :

ـ لو أن الخليفة فطن إلى مواهبك ما تركك ..

وعرك أذنها بترفق :

ـ ربما وهبك حريتك وجعلك زوجته ..

لم تعد تكتفى بمغازلة الرجل الواحد . أزمعت أن تغرى كل الرجال . تطيل النظرة المحرضة ، الموافقة ، تذهل الجالس إليها ، أو الواقف أمامها ، عن نفسه . يوافق ـ دون مناقشة ـ على ما تريده . يصمت عن دعاباتها القاسية ، ويهمل تصرفاتها المثقلة بالعدوانية

قال لها الخادم أمين حمروش فى القصر الفاطمى الكبير :

ـ أذهل يوسف النسوة ، فقطعن أيديهن .. لا أدرى ماذا أقطع من نفسى فى ذهولى بجمالك ؟!..

أجادت كشف ما يثير ، وبذل الإيماءات ، وتهدج الصوت ، والنظرات ، الداعية ، والصمت الذى يعنى البوح . تعطى الإحساس بأنها ستهب نفسها فى اللحظة التالية . تبتز الوقفة الساكنة ، الذليلة ، ويدها تهوى بما يصل إليها من أدوات المطبخ . تضرب ، وتضرب . الألم فى الجسد العارى ، المرتعش ، تخالطه اللذة ، والأمل فى اللحظة المشتهاة يكتم الرفض ..

يقتحمها الشعور بالنشوة إذا انعكس على وجه الرجل ما يشى بأنه أهين، أو أنه طعن فى رجولته . تغالب الخوف من أن يؤذيها من تقدم على إيذائه . ترفق الفعل بالبسمة فى مساحة وجهها . تعبّر بالملامح عن وعد

اللحظات الهانئة . يتسع الأمل لمن يسرف فى التذلل . ربما دفعت النائم فوق قدميها ، أو تدفعه عنها فى ذروة عناقه لها . تحيا اللذة لانكساره وتذلله . تقتحمها المشاعر الصاخبة فى خضوعه ، واستكانته ، وقبوله ما تمليه عليه . من يوافق على أن تلبسه زى النساء . يناديها : سيدتى ..

أهملت انتماء شهاب النعمانى إلى قبيلة كتامة . دفعته إلى ارتداء ثوب امرأة ، وشرب الماء من جردل أذابت فيه قطعاً هائلة من الملح . ظلت على وقفتها الساكنة فى مواجهة لهاث أنفاسه القريبة ، حتى أيقن أنها ترضى بقبلته . ثم فاجأته بضربة سكين فى أعلى الكتف . شغله انبثاق الدم ، فلم يعن حتى بأن يتوعدها ..

هى الآن تهتاج لرائحة المغامرة . الدهشة ، والاكتشاف ، وتوقع ما لا تدركه ..

## ـ ٣٢ ـ

استدعى الإمام أولاد الحسين بن جوهر . لم يدهشوا ـ لطول ما اختبر الجميع أفعاله ـ حين وعدهم بالجميل ، وخلع عليهم . الثقة الضائعة حفّزت أولاد الحسين الثلاثة للفرار إلى الشام . استغاثوا بحاكم انطاكية البيزنطى. مضى وراءهم أعوان الحاكم . لاينوهم ، وأخذوهم بالحيلة ، حتى أفلحوا فى فصل رءوسهم عن الأجساد ، وألقيت تحت قدمى الإمام . قال الرواة إن أشد ما بقى من طفولة الإمام فى شبابه وكهولته ، كثرة تنقله من حال إلى حال ، وأنه كان لا يكظم غيظه عند الغضب ، ويؤاخذ على اليسير من الذنب..

شدد الحضرة ، فلا يتصرف أحد من موظفيه ولا قادة الجند إلاّ بأمره . يتسلم السجل ممهوراً بتوقيعه . لكن حلقات المكائد والدسائس والصراعات

اتسعت . كثر السعى والوشايات عند الإمام . قصرت مدد الوزراء . تعددت عمليات الملاحقة والترصد فى الظلام والهرب والاختفاء ، وعاش الجميع فى ظل المصادرة والسجن ، وتعددت حوادث الانتحار والقتل داخل القصر ، حوادث غامضة ، فلا أحد يدرى بواعثها ، ولا من قام بالقتل . لا شأن للتوقع بفساد ولا معايب فى تسيير الأمور ، إنما هى محاولات للوقيعة تتغير بها نفس الحضرة . كل وزير يشغله التخلص من الوسطاء والكتبة والأمراء المنافسين ، أو الذين يتوقع منافستهم ، ولو فى غاية الأفق ..

لم يعد للألقاب التى يمنحها الإمام لوزرائه وولاته قيمة يستندون إليها . كان القتل ماثلاً فى نهاية الطريق ، لا تحول بينهم وبين بشاعة النهاية خلع ولا ألقاب ولا عبارات ثناء . لم يكن يبخل بالألقاب الضخمة وذات الرنين ، على الوسطاء ، ثم ما يلبث أن يقتلهم ، أو يأمر بقتلهم . تحول العنف إلى جزء من طبيعته ..

لم تعد الشماتة متاحة لأى من الذين يحيون فى زمانه . شابت الوحشة طباعه . من رضى عنه اليوم ربما قطع لسانه ، أو سمل عينيه ، أو أزهق روحه . يؤاخذ بالخطأ الصغير نفس مؤاخذته للذنب الذى يصعب إسقاطه . روع الخواص والعوام . حتى العلماء الذين كان يأنس إلى مجالسهم . يناقشهم ، وينصت إليهم ، ويفيد من كلماتهم ، لم يعودوا يأمنون أذاه . تتغير نفسه فى اللحظة التى تبدو فيها هادئة ومستقرة . لم تعد تصرفاته مفهومة ولا مبررة ، إنما هى ضربات عشوائية لا تفرق بين مرتكب ذنب وعابر سبيل . بدت قراراته كأنها وليدة اللحظة ، أو عفوية . ما يطرأ على ذهنه ينطق به ، ويأمر بتنفيذه ، أو يقدم على الفعل بنفسه . يأمر بالسجل ، ثم ينقض أحكامه ، ويعلن الرأى ، ثم يرجع عنه ..

- ٣٣ -

قال الرواة إن النساء لم يرتدعن عما نهى عنه أمير المؤمنين . أظهر دلائل الغضب والحاجب يقرأ ما فى الرقعة ..

سبع سنوات مضت ، والنساء - صاحبات الشكوى - حبيسات البيوت ، لا يجدن من يعنى بأمورهن ، وفيهن من لا زوج لها ..

أمر ، فلا يخرجن من البيوت بالكلية ، وحظر صنع الأخفاف ، وحرم النظر من طاقات البيوت ، أو من فوق الأسطح ، أو الوقوف فى مداخل البيوت ، أو على أبوابها . زاد فحظر على النساء أن يبكين وراء الجنائز ، أو يخرجن نائحات بالطبل والزمر . وأصدر سجلاً بمنع النساء من زيارة القبور، ومن النظر من النوافذ والطيقان . تستثنى القابلة لمن تلد ، والغاسلة لمن تموت ، والمتظلمة للقضاء ، والمسافرة إلى الحجاز ، أو التى تدفعها للسفر ظروف قاهرة ، والأرامل اللائى يبعن الغزل ، والإماء اللائى يتبعن السادة ، أو النخاسين ، للبيع فى الأسواق . شمل السجل كل النساء ، بصرف النظر عن أعمارهن ومكانتهن الاجتماعية . لم يستثن إلا الخبازات والقارئات والقابلات والغسالات والمكفنات . حتى المعددات لم يعد من المسموح لهن بالنزول إلى الطريق . ترفع المرأة - التى ترغمها الظروف - رقعة بطلب النزول إلى جناب الحضرة . يصدر التصريح ، فينفذه متولى الشرطة . من تخالف الأوامر تؤدب عن طريق صاحب الشرطة ..

عانت النساء قسوة السجلات . ضاقت الحياة بمن غاب ظل الرجل عن حياتها ، فهى لا تستطيع أن تتصرف . التبصير بحقيقة الأوضاع يساعد على انفراجة الباب ، وفتحه ..

قبل أن يعلو صوته بقرار الغضب ، قال متولى الديوان :

ـ رفع التجار إلى مقام مولانا رقاعاً تشير إلى ما تعانيه تجارتهم من كساد ..

ثم وهو يخفض رأسه فى تأدب :

ـ معظم ما يبيعونه يشتريه النساء ..

عقد حاجبيه ، ثم قال :

ـ من يشغله بيع تجارته ، عليه أن يحمل سلعه إلى الدروب .. تشترى النساء ما يردنه من وراء حجاب ..

أمر بأن يحمل الباعة إلى البيوت ما تطلبه النساء . تدلى المرأة ما تضع فيه الثمن ، وتصعد بما يضعه البائع من سلع . شدد السجل ، فلا يظهر من المرأة إلا ذراعها مكفناً بغطاء . أذن للعجائز أن ينقلن إلى البيوت كل ما يباع فى الأسواق . شدد ، فلا يفوت العجائز شىء مما يجرى . يطالعن الحضرة بما يرينه ويسمعنه . يرفعن إليه الأخبار والهمسات والشائعات . نفذ من قبض على زوجة شقفة النجدى المزملاتى بناحية سوق البزازين . مضى الجند بها ، وبنساء سبقنها فى الحبوس ، إلى شاطئ النيل ، فأغرقوهن ..

أشارت ست الملك على النساء ، فجززن شعورهن ، وأرسلن النوائب إلى مقام الحضرة ، لعله يعفو .

زاد تقديم الرقاع من النساء والتجار وأولاد الناس والعوام . أراد من يجهله السخرية ، فجعل الرقاع فى أيدى مثالات من الورق ، دلالة أن النساء حبيسات البيوت ، فهو احتجاج على أمر الإمام ..

أمر الإمام العبيد بإحراق مدينة مصر ..

## ـ ٣٤ ـ

انحنى الخادم ، فقبل قدمها المتدلية من الكنبة الخشبية ، المستندة إلى الجدار . تمسح بخده وشفتيه فى الساق العارية . سحبت قدمها ، ودفعته فى وجهه . تماسك . تساند على الحائط . أدركت أن إرادة الرجل قد بلغت أقصى ما تحتمله من تماسك ، وأنه يعانى لحظات الرغبة فى السكوت عما يراه ..

قالت بنبرة ملونة :

ـ أداعبك ..

نوى الغضب فى وجهه :

ـ حياتى فداء لك ..

وهى تربت رأسه :

ـ أعرف إنك تحسن الغناء ..

فى نبرة متذللة :

ـ هل أغنى لك ؟

استطرد كالمنتبه :

ـ من يعزف ؟..

ـ أدندن .. وتغنى ..

غمزت بعينها ، وأردفت :

ـ غن : تقول بنو العباس ..

شرد كالمتذكر :

- تقصدين قصيدة ابن هانئ الأندلسى ؟

- تذكرها ؟

أنشد فى نبرة متعثرة :

تقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟

فقل لبنى العباس : قد قضى الأمر

وقد جاوز الإسكندرية جعفر

تصاحبه البشرى ، ويقدمه النصر ..

لم يكن الخادم الذى يتبعها فى طريقها إلى حيث تنقل رسائل ست الملك قد تبدل منذ فترة طويلة . تخرج ، وتدخل ، من باب الزهومة غربى القصر الكبير . يجلس لصق جدرانه تجار ومقعدون ، ويفضى إلى ساحة صغيرة ، تتفرع منها شوارع وأزقة . أحدها سوق تمتد - متعرجة - إلى سور القاهرة..

التقطت النظرة المتطلعة ، المتشهية ، وهى تعدل النقاب على وجهها . أعادت ما فعلت ، وهى تميل إلى العطفة المفضية إلى قلب السوق . بحلقت عيناه بما اجتذب انتباهها . ضحكت فى غنج متعمد ، أثاره . هى تعرف أنه مثل برجوان - يكتفى بالتطلع أو الملامسة العاجزة . ينساق فى تصور الأغنيات ، والرقصات ، والتأود ، ومناوشة الرغبة ، وتلامس الأجساد العارية، وملاعبة عرائس البحر ، وجوارى الحكايات القديمة ، والتحليق فى عوالم السحر ..

توقفت لتعدل الثوب على جسدها كله . رفعت نهديها براحتين مترفقتين ، وتأكدت من تلهف نظراته ..

وافق الخادم على الخطوات المتلكئة في متابعته لها داخل الأسواق ، وأمام الدور والدكاكين والزحام وتلاغط النداءات والشتائم والأدعية . ألفت ـ مثلما ألف الناس ـ رؤية الرءوس المقطوعة المثبتة فوق الرماح ، والأجساد المعلقة على أبواب القاهرة ، وأسواقها ، بعد شنق أصحابها ، أو توسيطهم، أو تعليقهم أحياء حتى يدركهم الموت ..

الهاجس في داخلها يتوق إلى ما لم يجهدها تبينه . هي تتسلى بإلقاء حبل الغواية . إذا تشبث الرجل به ، شدته بآخر عزمها . تطيح بما تصور أنه في قبضته . يعمق شعورها بالنشوة تأمل إمارات الخيبة . تريد أن تنفس القيظ ، وتعبث ، وتنتقم . لا صورة محددة رسمت ملامحها . ما تريده يحوطه الضباب ، وإن يحركه الرغبة في مجاوزة المألوف . تسكت عن ملامسة الأجزاء الظاهرة من جسدها ، وعن الكلمات المحملة بما لا تريده ، لكنها تبعد عن اللحظة ، بشرود في مسعود ، وتلاحق صور لقاءاتها به . هي تنتقم من الذين عاشوا بعد أن مات ..

لماذا مات ، وعاشوا هم ؟!

لاحظت القهرمانة شوق نظرتها المتحيرة في المطابخ . تتابع الحركة بين المخازن والمطابخ . أحمال الأرز والسكر والحنطة والدقيق والتوابل ، وأقفاص الطير والخضر والفاكهة ، وسلال السمك ، ولحوم الحيوان التي تنقل للتقطيع والطبخ فور ذبحها حتى لا تفسد ، وتنظر إلى عمليات الذبح والعجن والطبخ والتخبيز . تتظاهر بأنها تعطي الأمر اهتمامها . يداخلها إحساس بأنه ـ في لحظة ما ـ سيطالعها مسعود بقامته الطويلة ، وعينيه النفاذتين ، وأنفه الأقنى ، وشعره الحنطي ، يلغي ـ بظهوره ـ كل ما روى لها عن مقتله . ينقذها من القبر الذي أطبقت جدرانه عليها . يقودها ـ ثانية ـ إلى طريق النشوة والسحر ..

همست القهرمانة بأن تسقط سيرة الخادم الصقلبى . التقطت الأعين قوله بأنه من حق الصقالبة أن يتساووا بالكتاميين ..

لم تعد عيناها ترى غيره . تراه حتى وهى مغمضة العينين . هو فى بالها حين تجلس تحت قدمى ست الملك ـ هل تفطن إلى سرها ؟ ـ وعندما تخلو إلى نفسها فى حجرتها ، وإن أخذها الشرود ..

ظلت تتردد على المطابخ ، تتوقع أن يطالعها مسعود ..

ـ ٣٥ ـ

أشار المشاعلى ، فأمال الرجلان رأس الكاتب الحنفى غزلان إلى الخلف . لاحظ الشيخ أبو البركات قسوة التصرف فى جحوظ عينى الكاتب ، وبروز عروق البشرة المصفرة ..

فتح الرجلان شدقى الكاتب ..

اقترب المشاعلى حتى لامس الموسى اللسان . جرى عليه ، فانبثق الدم والصرخات . أخلى الرجلان وجه الكاتب ، وضغطا على كتفيه ورأسه المائل. بدا كأنهما سينتزعان شعر رأسه . بدّل المشاعلى سيخاً طال مكوثه فوق النار بالموسى المغموسة فى الدماء . قاربه من العينين المبحلقتين . أغمضهما الكاتب بعفوية . دنا من العينين المغمضتين ، وأومأ إلى الرجلين برأسه . جذبا الوجنتين إلى أسفل . جرى بالسيخ على العينين ، فانطفأتا . صبغ الدم الأحمر أرضية القاعة وجدرانها ، وثياب المشاعلى والرجلين والشيخ بركات . ظل الشيخ ـ بقلة الحيلة ـ يردد القول :

ـ ترفق فيما تفعل ، فهو صديق العمر .. ترفق فيما تفعل ، فهو صديق العمر ..

كان الشيخ أبو البركات قد دفع لخادم أمير المؤمنين أبى الرضا سعد . والى التردد على بابه ، حتى وجد لنفسه منفذاً بين من حملوا هداياهم . وسطه - كما يفعل المترددون على البيت - في العفو عن الكاتب الحنفى غزلان . اعتذر أبو الرضا - لما كرر أبو البركات الزيارة - بأن أمير المؤمنين أصر على سمل عيني الرجل وقطع لسانه ..

قال الإمام :

- إن كان الرجل يهم من وسّطك لنا .. فادعه إلى حضور تنفيذ إرادتنا ليخفف مصابه .

## - ٣٦ -

قال غين للخليفة إن الشيخ عبد القيوم السروجي يتحدث لمريديه عن المشاهد الغريبة التى يراها الإمام فى صحوه ومنامه ..

أدرك الحضرة أن السر الذى خص به الشيخ ظل الأمان لم يمت بموته . أمر بوضع الشيخ عبد القيوم فى السجن ، فلما تذكره ، أمر باقتياده إلى مجلسه . لم تعد العمامة تعطى حق التوقير ، ولا الإفلات من العقاب إذا زل لسان عالم الدين ، أو أقدم على ما يجب محاسبته عليه ..

دفعه الجند أمامهم ، وخطواته متعثرة . طال بقاؤه فى السراديب السفلية، حتى بهره ضوء الشمس حين خرج إلى الضوء . لم تعد عيناه تقويان على مواجهة أشعتها . تيبست مفاصله من الحركة المحدودة فى الزنزانة الضيقة..

أمسك خادمان بيديه وراء ظهره . أمال ثالث رأسه - بيده - إلى الوراء ، وفتح فمه باليد الأخرى . صب فيه رصاصاً منصهراً ، وصوت الإمام يعلو : حتى لا تذيع سراً ائتمناك عليه ..

صرخ الشيخ لأولى القطرات ، ثم اختلج جسده ، وسكن ..

قال الرواة إن عتمة الليل حملت معها فى جولة الإمام خارج القصر رءوس أشباح لبشر وحيوان وطير ، ورؤى متماوجة ، وتكوينات لم يرها من قبل . تتخايل له ، وتخايله . وترامت من مصدر لا يتبينه ، أصوات هامسة ومتحشرجة . وقال الرواة إن المشاعلى فاجأ الإمام - فى رؤية منامية - بالميل عن الرجل الذى أعد للقتل ، والاتجاه إلى الإمام بنظرة متوعدة ..

- ٣٧ -

قال رواة الأخبار إنه حين دعت ست الملك محبوبة الدلالة إلى القصر الغربى ، فلأنها عرفت دورها فى التعرف - بأوامر الإمام - إلى أحوال النساء من ترددها على البيوت . بضاعتها أدوية الشحم والعقم ، وما يغزر الشعر ، ويسرى بالدماء فى الوجوه . نقل إليه العجائز ما يجرى بين جدران البيوت ، من ضروب المجون ، وأساليب اللهو والخلاعة ، والتبذل والتهتك ، والغواية والإفساد ..

قالت ست الملك :

- انقلى إلى الخليفة ما يريده ..

وهزت سبابتها فى وجه المرأة :

- وانقلى إليه ما أريده ..

خص الإمام العجائز من الدلالات بالتردد على بيوت من يرشحهم للوساطة . يظهرن التردد على النسوة للخدمة ، أو لبيع ما فى الأسواق . ينقلن ما يرينه من أحوال البيت ، وظروف حياة المرشح للوساطة . يقضى الإمام بأن يعهد إليه بالمنصب ، أو يمنعه عنه ..

قالت محبوبة :

ـ لم يعد قلبى يطاوعنى على كلمة الحق ..

وشت ملامح الجهة العالية بعدم فهم :

ـ لماذا ؟

ـ كان الخليفة يمنع الوظيفة . هو الآن يقتل بلا وظيفة ..

ـ ٣٨ ـ

قالت ست الملك :

ـ خذى هذه الرقعة إلى أخى منصور ..

دست خيرات الرقعة فى صدرها ، ومضت بالقرب من الإسطبلات السلطانية . يترامى من داخلها صهيل الجياد ، ووقع حوافرها ..

خرجت إلى شوارع وأسواق . نفس الشوارع والأسواق والدروب والعطوف التى كان يمضى فيها معها الخادم النوبى ، حين يصحبها إلى قصر الإمام ..

استعادت صورة الحضرة مما كانت ترويه ست الملك ، والجوارى والخدم: الجسد العملاق ، العينان الواسعتان ، السوداوان ، تمازجهما زرقة ، النظرات الحادة . إذا تحدث بدا صوته جهيراً يحمل الخوف إلى الواقف أمامه ..

فضح الصمت السادر صوت احتكاك نعليها بالأرض الرخامية . خلعت النعلين ، ومشت حافية . أهملت تصاعد برودة الرخام من باطن قدميها إلى رأسها . همها أن تصل إلى حيث يجلس أمير المؤمنين ..

الكاتب نو الحاجبين الأشيبين ، استقبلها عند الباب المغلق - فى داخل القصر - وطلب أن تسلمه الرقعة ..

- الرقعة من مولاتنا ست الملك ..

- أوامر سيدى الإمام أن أفض كل الرقاع ، وأبلغه بما فيها ..

وهو يجيل عينيه فى الرقعة :

- ألم يكن أبو القاسم الجرجرائى فى خدمة مولاتنا ست الملك قبل أن يعمل عند غين خادم مولانا الإمام ؟..

قالت :

- أنا لا أترك الحريم ..

وهو يتفحصها من تحت حاجبيه الأشيبين :

- غين من الخدم السود .. يؤذن لهم بدخول الحريم ..

## - ٣٩ -

فى مساء اليوم ، تحدثت ست الملك - وخيرات جالسة تحت قدميها - عن أمر الإمام بقطع يدى الجرجرائى . تركت له حرية الانتقال إلى خدمة غين ، لأن أبا منصور كان يخص خادمه الأسود بعطفه وثقته . ولاه أمر الشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة ، والنظر فى جميع الأموال والأحوال . لقبه بقائد القواد ، وأن يكاتب بذلك ، وعهد إليه بتنفيذ السجلات التى تصدرها إرادته : مطاردة المسكرات ، منع بيع العسل والملوخية والفقاع ، حظر الملاهى واجتماع الناس فى المآتم ، والسير خلف الجنائز ..

سخط الإمام عليه - فى أعوام سابقة - فأمر بقطع يده . وحين مرض -

فيما بعد ـ ركب الحضرة لعيادته ، ووهبه خمسة آلاف دينار ، وخمسة وعشرين جواداً . ثم تغيرت نفس الإمام ثانية على الخادم غين ، فصرفه عن الشرطتين والحسبة ، وأحل مكانه حامل المظلة مظفر الصقلبى . أمر ـ بعد أيام ـ بقطع يده الثانية . قطعها المشاعلى ، وحملها إلى الإمام فى طبق . تأثر الإمام لمرأى اليد المقطوعة ، وتذكر ما فعله غين فى خدمته . بعث إليه الأطباء لمداواته . ثم تغيرت نفس الإمام لسبب لم يظهره ، فأمر بقطع لسان الخادم . قُطع ، وحُمل إلى الإمام فى طبق ، ومات الرجل من جراحه ..

ـ ٤٠ ـ

لم تتصور أن الإمام يقطع ميدان بين القصرين ليقف أمامها بعينى الغضب :

ـ هل بدّلت المواكب طريقها من قصر أمير المؤمنين إلى قصر الوصية عليه ؟

قالت ست الملك :

ـ أنا حبيسة قصرى ، ولست وصية على أحد ..

ـ كل ما يجرى هنا أعرف به فى الليلة نفسها ..

وارتجفت عضلة فكه :

ـ كل من استدعيتهم إلى هذا القصر ذهبوا إلى جهنم ..

التفت ـ بعفوية ـ إلى حيث غابت خيرات وراء الباب المغلق . هل يقصد الدلالة محبوبة ؟

ـ أنا لم أستدع أحداً .. إنما هم خدم يذهبون ويجيئون ..

وهو يضغط بقبضة يده على مقبض السيف :

ـ لئن اقترب رجل من هذا المكان فسأصفّى عمره ..

وهدر صوته :

ـ إنهم متآمرون وخونة .. لابد أن ينالوا جزاء الخونة والمتآمرين ..

وواجهها :

ـ أحذرك من مضايقتى ..

ـ لم أفعل ما يضايقك ..

ـ لا تجعلى نفسك وصية على الحكم ..

تفادت النظر إليه ، فلا يفطن إلى ما تعانيه :

ـ أشفق عليك من توالى الأحكام والقوانين الجائرة ..

صرخ :

ـ لا تحركى غضبى بهذا الكلام ..

رف على ذهنها أمره بقتل ابن النحوى ، متولى ديوان الشام ، لما دخلت عليه برسالة من ابن القلانس العامل بخدمتها ، يستصرخها ، ويشكو لها ما نزل به من ظلم ، وما يعانيه أهل الشام من ظلم ابن النحوى .. ماذا جرى ؟

قالت :

ـ أنا لا يعنينى من الأمر إلاّ ملك آبائى ..

أضافت :

ـ حين قدم جدى من المهدية كان قد قطع أواصره هناك باعتزام أن يستمر حكم الفاطميين فى مصر ..

وتداخلت فى صوتها بحة غريبة :

- دولة الفاطميين وجدت لتبقى ..

وملأ الاستياء ملامحها :

- هل أنتظر حتى يتأذى ملك أبينا بأخطاء عشرين عاماً ..

هز رأسه بما يعنى رفض سماع أية كلمة :

- تصرين على إغضابى .. أبونا مات .. أنا الآن أمير المؤمنين ..

ثم من بين أسنانه :

- الحاكم بأمر الله ..

اتجهت إليه بنظرة دامعة :

- يا أخى .. احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك ..

ظل على حبه للظلمة ، بعيداً عن قاعات القصر وأجنحته وأقبيته وسراديبه . الأشباح المتراقصة والأرواح لا تفرق بين ضوء وظلمة ، ولا بين نهار وليل . هى تطلع له حين يخلو إلى نفسه ، بلا خدم ولا ركابية . حتى جب الصحراء المتسربل بالظلمة ، صار ينفرد فيه بنفسه وتأملاته . لا يخشى أرواحاً ، ولا أشباحاً متراقصة ..

كان ليل القصور الفاطمية كائناً حياً ، له ملامحه وترددات أنفاسه . يعانى قدوم الليل بأشباحه وخيالاته ، وتماوج الأضواء الشاحبة والظلال ، والكوابيس التى يقضى - بخوفه منها - بقية الليل صاحياً . يتعمد السير - بمفرده - فى القاعات الواسعة ذات القناديل المضيئة . يبتعد حتى عن الدهاليز الطولية ، الضيقة . تفضى إلى قاعات القصر وحجراته وأفنيته وحدائقه . استوحش من الأقبية الحالكة الظلمة ، تتخللها ، لا يستطيع المرء

أن يتبين فيها شيئاً . تقود إلى الأفنية المختلفة ، وإلى قاعات القصور ، وقاعة الذهب . الشمعدانات فى الأركان والزوايا تتحرك من أماكنها . السجاجيد المفروشة فى الردهات الطويلة ، تطوى بيد غير مرئية ، وتفرد ثانية . قطع الأثاث تتقافز وتختلط . الثريات المعلقة تتراقص بالضوء والظلال، تصنع تموجات وتكوينات على الأسقف والأرض والجدران . ما يشبه الأرواح أو الشياطين تتصاعد إلى الأسقف ، تومض بأعين نارية ، تقذف فى الهواء بالخناجر ، وتستعيدها . تزيح الأثاث من موضعه لتؤدى طقوسها المذهلة حوله وفوقه . تختلط ، وتتشابك فى رقصات محمومة . تملأ القاعات بأنفاسها ورقصاتها ، تسد بها النوافذ والأبواب . يترامى - من الحجرات المغلقة على الجانبين - وقع أقدام ، وتداخل ضحكات ، وبكاء ، وتلاوة آيات من القرآن ..

استغاث بالحراس ، فلم يسمعوا ما سمع ، ولا رأوا ما رأى ..

كانت المشاهد تتحرك ، والأصوات تعلو فى وقفة الحراس والخدم ، ينكرون ما يراه ويسمعه ..

أمر ، فنقل الخدم جلوسه من قاعة الذهب إلى الإيوان فى البراح والسعة..

فاجأها بالسؤال :

- لماذا لا تتزوجين بدلاً من هذه الحياة التى تثير الأقاويل ؟

أذهلها أنه تناسى - فى غضبه - حرصها على ما التزمت به كل النساء الفاطميات . لا زواج ، فلا ينحرف ملك الفاطميين - ذات يوم - إلى أصلاب غير فاطمية . أهملت احتياجات الأنثى ، اجتثتها من داخل نفسها ، كأنها راهبة فى عقيدة خاليها . شغلها اتصال حلقات السلسلة - فلا تتكسر بمصادفة يثيرها التوقع . جالست أرباب العامة والقلم ، وطغت على من

يتذكرون ، ولقيت الوزراء والأمراء والكتبة وخواص الناس والقضاة والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث والنحاة والشهود وأرباب المعارف والمعانى والأسرار . أخذت عنهم جميعاً . لم تتطلع عين إلى ما فوق الأرض ..

اتجهت إلى الناحية المقابلة ، تمسح دمعة طفرت فى عينيها ..

- ٤١ -

قالت ست الملك لعينى خيرات المتسائلتين :

- ألم أقل لك إنى أعلم الناس بأخى منصور ؟.. قتل اليوم القاضى مالك بن سعيد الفارقى ..

زوت عينيها، تحاول الاستعادة :

- الرجل الذى درس لسيدتى فقه الشيعة ؟..

أمنت بهزة من رأسها :

- كان مؤدبه هو أيضاً !

وزفرت :

- اتهمه بما يجعلنى على ثقة أن أخى منصور جن ..

المتحدثة هى الجهة العالية ست الملك . تتحدث عن أخيها أمير المؤمنين منصور الحاكم بأمر الله ..

ما دورها غير الإنصات ؟ وماذا تستطيع فى الأمر كله ؟..

حظرت ست الملك على القاضى مالك بن سعيد الفارقى أن يدخل قصرها . نقل إليها النسوة شائعات - صدقها الإمام - بأن القاضى يخلو بها فى تردده على القصر ليدرس لها فقه الشيعة ..

قالت النسوة : إن الحضرة لم يصدق أقوال الناس . وطالب القاضى بأن يقطع الألسنة الكاذبة . معرفتها الأكيدة بميل نفس أخيها للتبدل ، دفعها إلى حسم الموقف فى بداياته ، فتقضى على الآثار المحتملة . وبخها لأنها أذنت لطبيبها الخاص أن يكشف عليها دون وجود وصى يتابع ..

قالت ست الملك :

ـ أشار إلى الأتراك بعينيه ، بعد أن كان قد أمرهم بقتله . قال إن المؤدب داخله فى أمور الدولة ـ كما يفعل الوزراء ـ وقرأ الرقاع ..

وضربت باطن كفها بقبضتها :

ـ السبب الحقيقى أعرفه . إنها وشاية حقيرة صدقها أخى ..

قال الرواة إن الناس غلبتهم الدهشة ـ صار الخوف شعوراً مقيماً ـ حين أعلن عن قتل قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى . تناثرت الشائعات بأن أمير المؤمنين اتهمه بموالاة ست الملك سلطانة ، وأنه تدخل ـ بما لا يتفق مع وظيفته ـ بتحريض من الجهة العالية ..

كان قد أمضى سبع سنوات قاضياً للقضاة . ومثلها ما يقرب من الضعفين فى نظر الأحكام . وكان ينظر فى القضاء والمظالم وحوائج الناس والأحباس والدعوة ودار الضرب ودار العيار وأمر الأضياف . عين لقضاء القاهرة ، وولى المنصب فى رجب من العام نفسه . خلع عليه أمير المؤمنين ، وقرىء سجل تعيينه ـ كالعادة ـ بالجامع العتيق . رتبته أجل رتب أرباب العمائم والأقلام ، لا يتقدم عليه فى أى مجلس يحضره أحد من أرباب السيوف أو الأقلام ، ولا يقوم من مجلسه لأحد وهو فى مجلس الحكم ، ولا يخرج شئ من الأمور الدينية عنه ، ولا تحرر عقود النكاح أو الجنائز إلا بإذنه ، ولا يعدل شاهد إلا بأمره . بين يديه خمسة من الحجاب ، اثنان بين يديه ، واثنان على باب المقصورة ، وواحد ينفذ الخصوم إليه . وبين يديه أربعة من الموقعين ، اثنان يقابلان اثنين ..

امتدت سلطته ، فهي تشمل الخطابة والصلاة في الجوامع ، وقيادة موكب الاحتفال بليالي الوقود الأربعة ، والإشراف على الأماكن الدينية ، والقيام في الذهب والفضة والمكاييل والعملة ، والإشراف على الأحباس وصيانتها . صار للأحباس ديوان مفرد ، وإليه أمر الجوامع والمشاهد ، والنظر في المواريث والأوقاف وأموال اليتامى ، ومحاسبة أرباب الدواوين ، وقطع أكثر الرسوم التي كانت لأولياء الدولة من التي يشك في بواعثها ، وإزالة ضرورات الناس ..

أمر برفع المكوس ، ورد المظالم ، وقطع السبيل على الرشوة والبرطيل ، وأصدر الأحكام الرادعة ضد القضاة الذين قبلوا هدايا الوجهاء والأعيان وكبار الموظفين ، وحكموا لصالحهم فيما عرض عليهم من منازعات هم أطراف فيها . ربما قطعت يد المرتشي لدراهم تقاضاها لقاء حصوله على ما ليس من حقه ..

أعاد إلى أصحاب المواريث ما استلبه القاضي طه عيادة من أملاكهم وأموالهم المغصوبة . صادر كل ما كان في داره من دواب ، وأثاث ، وذهب ، وستور ، وسرادق . أمر بحلق لحية القاضي عاطف العوفي ، وأن يضرب ويطاف به ـ مقلوباً ـ على حمار ، ثم ضربه كل يوم عشرة أسواط حتى يرد الحقوق إلى أصحابها . أبعد ذوي القربى والحسب عن مناصب الدولة ، يعطي أحدهم من ماله لينشئ عملاً يتكسب منه ، لكنه يترك الوظيفة لمن يحسن أداءها . رزق الفقهاء والفقراء ، وفرض لهم ما يسد حاجاتهم ، وحرّم عليهم سؤال الناس ..

عهد أمير المؤمنين إليه بكتب الدعوة التي تقرأ بالقصر على الأولياء ، وجمعت له ولاية المظالم والأحباس والدعوة ودار الضرب ودار العيار وأمر الأضياف . اجتمعت معظم الدواوين في يده ، فعلت منزلته ..

توثقت صلاته بالإمام . كان يشاوره فى الأمور ، ويصحبه معه فى نزوله إلى القاهرة ومصر وخارج البلاد . إذا قدم أمير المؤمنين من رحلة خارج القاهرة ومصر الفسطاط ، حرص على أن يكون أول مستقبليه على باب النصر . يرحب به ، ويقدم فروض الولاء والطاعة ، ويمضى مع ركب الإمام إلى القصور الفاطمية ، لا يغادرها إلا بعد أن يأذن له أمير المؤمنين . ويعد أن يرفع إلى الحضرة تقريراً عن كل ما جرى فترة ابتعاده ..

قصده أصحاب الحاجات وطالبو المشورة لمعرفتهم باقترابه من أمير المؤمنين ، وأنه يركب معه فى الليل والنهار ، ويشاوره الإمام فى أمور الدولة، ينصتون إلى آرائه ، ويعملون بها ، يجدون فيها الصواب والقول الفصل ..

عرف عنه الجميع عدالة الأحكام وصواب الرأى . أظهر العدل والإنصاف . شاع صيته فى الآفاق ، واشتهر عدله بين الناس كافة . وعرف عنه أنه لم يكن يميل إلى القسوة فى التصرف ولا الكلام ..

تحول بيته إلى ما يشبه بيت القاضى فى سماع الدعاوى والفصل بين المتقاضين . رحب باستضافة طلبة العلم فى بيته . فتح لهم خزائن كتبه ، وشرح لهم ما غمض من نسخ المخطوطات . كتب فى العقائد والفقه والمناظرة والتأويل والسير والأخبار والتاريخ وعلم الأرواح ، وصارت له مرتبة فى الثقة والدين ..

كان جواداً فصيحاً ، عف اللسان ، يقرأ من صدره وحفظه . ولم يكن يجد لنفسه مكانة متميزة ، فهو يرفض أن يقبل الناس يده ، ويرفض الهدايا، ويحرص أن يأكل ويلبس من ماله ، ويغادر بيته بعد أن يتطيب من يعد نفسه لترك الدنيا . وكان يمنع خواص الناس وعوامهم من الترجل له ، فهو يتقبل تحيتهم له حيث يقفون ، أو يجلسون . عظم فى الناس قدره ، وأحبوه ، ولهجوا بسيرته ، ومالت إليه القلوب ..

ركب أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله - كعادته - إلى الجب ، يصحبه ، ويتبعه ، عدد من رجالاته ..

عندما أراد مالك بن سعيد أن يسلم على الحضرة ، أعرض عنه . تراجع، فلا يزيد من غضب الإمام ..

قيّد غادى الصقلبى يديه من وراء ظهره ، ودفعه إلى داخل القصور ، وقتله ..

ظلت جثته في موضعها ، حتى رآها الإمام فى عودته من الجب ، فأمر بدفنها ..

لم تشهد له جنازة ، ولا صلى عليه أحد ، ولا عمل له عزاء ..

قال الرواة إن الباعث لمقتل مالك بن سعيد ظل خافياً ، وإن زادت الهمسات المتناثرة . أضيف إلى ما روى عن دوافع تصرفاته بتحريض من ست الملك ، همسات عن تأليب الرجل ناس الأسواق على الحضرة ، وسعيه إلى إيغار الصدور ، وإشعال نيران الحقد والضغينة بين الكتبة والقادة والعلماء والوجهاء وكبار الموظفين ، وعن زوار كانوا يدخلون - فى الليل - درب الأتراك . تنفى النظرات المدققة أنهم من أبناء الحى ، ولا من المترددين على مجلس قاضى القضاة مالك بن سعيد ، إنما هم من خدم ست الملك . كانوا يطرقون باب بيت ابن سعيد . ترافق مواربة الباب رفع اليد لقنديل ، تبين فى ضوئه عين متسائلة . يظل الضوء - بعد أن يغلق الباب - متسرباً من أسفل ، حتى يذوب فى ضوء النهار ..

وقيل إن السلطان أخذ عليه رفضه لما فى الصوفية من كرامات وخوارق ومواكب ورايات ، ورفع للتكليف والقول بالحلول والاتحاد ، وتزويق للذة الأمان ، وحلاوة الإنصاف والعدل ..

# - ٤٢ -

استدعى الحاكم أولاد مالك بن سعيد . وقفوا أمامه والخوف يقتلهم ..

- آلمنى مقتل أبيكم ..

وقال فى صوت مبطن بالود :

- كان من خواص رجالاتى ..

التفت إليهم بعينيه الواسعتين :

- هل تعرفون صلته بست الملك ؟

أضاف موضحاً :

- ست الملك .. أختى ..

قال أبو الفتوح بن مالك :

- لم يكن أبونا يحدثنا عن عمله ..

قال فى صوت متلكئ :

- أبوكم أسرف فى موالاة ست الملك ومراعاتها ..

وانعكس انفعاله فى ارتجافة يده :

- يغيظنى الرجل الذى يتخذ النساء موضعاً للسر ، أو يصغى إلى آرائهن ونصائحهن

وكور قبضته :

- دفع حياته ثمناً لما فعل .. لكننى لن أتعرض لشىء من تركته ..

ونظر إلى أبى الفتوح :

- أنت اكبر الأولاد .. أليس كذلك ؟

أضاف فى لهجة آمرة :

- أُقرك على رسمه وإقطاعاته ..

- ٤٣ -

قرئ سجل بأن ما يرفعه الناس من رقاع ، وما يطلبونه من حوائج ، يتحدد فى ثلاثة أيام : السبت للكتاميين المغاربة ، الاثنين للمشارقة ، الخميس لعامة الناس ..

وقال الرواة إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أصدر سجلاً بتقليد أبى العباس محمد بن عبد الله بن العوام منصب قاضى القضاة ، وخلع عليه ..

عين أبو العباس خلفاءه فى مصر والقاهرة والمدن الأخرى . صار ناطقاً عن الحضرة ، وخزان أمواله ، وأميناً على رعيته وبلاده . عاب جهل معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود وفساد ذممهم . استبدل بهم آخرين بعد أن فاحت رائحة الفساد من تصرفاتهم ، وميلهم إلى الكسب الحرام ، وطبع أحكامهم بالغرض والهوى ..

أهمل التحذيرات بأن من أبعدوا عن وظائفهم لن يسكتوا عما حاق بهم . نقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد إلى بيت المال بالجامع العتيق ، وأبطل عادة عقد دواوين القضاة فى دورهم . جعلها بالجامع العتيق ..

حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل غرض وهوى وشائبة . رفض التدخل فى إجراءاته ، وأحكامه . تمسك بآرائه ، لا يتنازل عنها تحت أى ضغط ، ورفض كل مؤثر وشفاعة ووسيلة . دفع حتى رسائل الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة ، وأهمل شفاعاتهم ، فلم ينظر فيها . أحاط وظيفته بجميع المظاهر الصارمة ، المؤثرة ، وإن عنى باستمالة الناس ، واجتذاب

قلوبهم ، وتحقيق ما يسهل تحقيقه من مطالبهم . منع الوزراء والأعيان من تسخير الفلاحين والفقراء فى أعمال الزراعة وحفر القنوات . كان الآلاف قد هلكوا فى أثناء قيامهم بأداء تلك الأعمال ..

خص برعايته الفقهاء وطلاب العلم وأرباب الصنائع والباعة والأجراء وأصحاب المهن . أكثر من التصدق على ذوى الحاجة والمسكنة . تمكن من قلوب الناس بفيض الجود والفضل . أشرف على دار الضرب العين والورق والسكة بالحضْرة وسائر أعمال السلطنة ..

قال الرواة إن ابن العوام ظل فى منصبه ، حتى آثر أمير المؤمنين الخفاء، أو أجبر عليه . تفانى فى إخلاصه للإمام ، فوثق به ، واعتمد عليه . لم يزهق حياته ـ حتى غاب عن الناس ـ ولا ناله بأذى ..

ـ ٤٤ ـ

قال الرواة إن أمين الأمناء الحسين بن طاهر الوزان صحب أمير المؤمنين فى ركوبه . لما انتهى الركب إلى حارة كتامة خارج القاهرة ، أومأ الإمام برأسه ناحية الوزان ، وقال :

ـ اقتلوه !

ضرب الجند عنق ابن الوزان ، ودفن فى مكان مقتله . ظهر بأموال وصياغات وأمتعة وطرائف . آلاف الأطباق بين ذهب وفضة . خزائن مملوءة بالمقاطع والستور والطنافس والأبسطة والفرش والوسائد والمساند والثياب المصنوعة من الديباج ، والمحلاة بالذهب . أعداد لا حصر لها من الصحاف وأكواب الشراب والأباريق والقدور وأوانى اللبن . أنواع الطيوب من المسك والكافور والعنبر ..

كان الوزير ملحقاً بخدمة القائد غين . حين عرضت عليه الوساطة ،

وافق، وإن اشترط أن يكون لكل طائفة من العسكر زمام يرجعون إليه ، وأن يكون نظره هو على الأزمة مجتمعة ، ويخصص يوم لشئون كل طائفة ..

قبل الإمام شروط الحسين بن الوزان ، وخلع عليه ، وأصدر سجلاً يهبه الوساطة والتوقيع ، ولقبه بأمين الأمناء . باع ابن الوزان ما خلفه قائد القواد الحسين بن جوهر من صياغات وأمتعة وطرائف وفرش وآلات . أضاف ثمن ما باع إلى عين ، فحصل منه مال كثير . ظل في منصبه حتى أمر الحاكم بقتله ..

لا أحد يدرى البواعث للقتل . لا أحد .

ـ ٤٥ ـ

لم يصدق الناس ما رأوا ، ولا فهموا باعثه : غادر أمير المؤمنين جامع عمرو فى طواف بالفسطاط . قذف بحربة فى يده ركابياً على باب الجامع . مال على الرجل الذى تهاوى . شق بطنه بخنجر استله من جانبه . قيل إن وظيفة الرجل هى شراء الخدم والجوارى والغلمان للقصور الملكية ، وقصور الوزراء والأمراء وقادة الجند والأعيان ..

وقال الرواة إن الإمام استدعى المعلم شكور الأشعث لم يدر فى بال الرجل إلاّ توقع الخير . توقف الإمام ـ منذ يومين ـ أمام محل الشواء الذى يملكه الرجل . حادثه ، وأبدى عطفه عليه . فاجأ الرجل فى وقفته بضربة رمح ، لم يقرنها بسؤال ولا كلام . طلب سكيناً ، وأضجعه ، ثم ذبحه بيده ، وطلب ساطوراً ، ففصل رأسه عن جسده ، وطلب ماء فغسل يده . شوح بما يعنى غسل الرجل ودفنه ..

قال والخدم يحملون الجثة إلى خارج القاعة :

ـ اصنعوا له جنازة طيبة ..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

ـ فليصل عليه قاضى القضاة ..

ـ ٤٦ ـ

من أراد أن يجد عيباً فلا بد أن يجده ..

أمر صاحب الديوان زكريا خضير عيونه أن يتسللوا إلى حياة المحتسب دريد العشرى ، يطّلعون على لقاءاته وأفعاله ، ومن يستقبل ، والأماكن التى يتردد عليها . يتعرفون إلى ما قد يخفيه ، ويدينه . يبحثون عن العيب فى تصرفاته ، ويطلبون العثرة فى كلماته . ينقلون ما رأوه أو سمعوه ، فيسهل تقديمه إلى المحاكمة ، ومعاقبته ..

انصرفت الأعين ـ بهمة ـ إلى ما عهد إليهم به . تنقّلوا وراءه بين البيوت والجوامع والشوارع والأزقة والخلاء . لاحظوا أنه ينزل من على جواده ، أول الشارع الأعظم ، ويمضى فى قلب الزحام بخطوات متقافزة ..

مضى وراءه أكثر من واحد ، حتى لا يفلت من الأعين المتابعة ..

اتجه من حارة الروم إلى سوق الشرايحيين . يحاذر فلا تتسخ ثيابه من مناخل الدقيق والغرابيل ..

مال إلى دروب وعطوف ، تشغى بأصوات مطارق الحدادين ودقات الإسكافية وأصحاب الطبليات والدكك المستديمة ومن يحملون أطباق الطعام وصحاف الفاكهة المعدة للبيع والقعود والمارة وألعاب الأطفال ودعوات الشحاذين وصهيل الجياد ونباح الكلاب وتلاقى الأذان من المساجد والزوايا القريبة ، حتى وصل إلى بيت فى داخل زقاق تغيب الشمس عن تقارب

جدرانه ..

نظر إلى مشربية فى الطابق الثانى ، ودلف إلى المدخل المظلم ..

كر صاحب الديوان طرف الخيط . عرف أن البيت لأرملة . قيل إنها كانت جارية ، ثم أعتقها الزوج ، وبنى بها . وكان من قادة الإخشيدية ..

ثارت الأسئلة : كيف لأمير من نسل فاطمة الزهراء أن يتردد على بيت أرملة تدين بالولاء لذكرى زوجها ، وللعهد الإخشيدى . من يصادق الأشرار، فهو يصادق الشر . حرر صاحب الديوان عريضة بالمعنى ، غفلاً من التوقيع . دسّها فى الأوراق المرفوعة إلى مقام السلطان ..

علا حاجبا أمير المؤمنين :

- ما صلتك بهذه المرأة ؟..

قال المحتسب فى خوفه :

- إنها عجوز .. كان ابنها من حرس بيتى .. قتله المتآمرون فى عملية كانت تريد حياته ..

رماه بنظرة سخرية :

- تزورها للتسرية عنها ؟!

- لم يكن لها عائل سوى الابن المقتول ..

وتعثر الكلام على شفتيه :

- أنا أدفع لها ما يعينها على الحياة ..

صرخ الإمام :

ـ من ترانى ؟.. هل لابد لصاحب العون أن يقدمه بنفسه ؟

وواجهه بعينين ناريتين :

ـ من يتنازل عن ولائه لنا عليه أن يتحمل مغبة تصرفه ..

شوح بيده ، وقال فى لهجة باترة :

ـ سمّلوا عينيه واقطعوا لسانه !..

وهم ينصرفون بالأمير ، قال الإمام كالمتذكر :

ـ دعوا صديقه الشيخ أبو البركات يشارك ..

ـ ٤٧ ـ

قالت ست الملك :

ـ ألا تعرفين هذا الرجل المقطوع اليدين ؟

أعادت خيرات تأمله :

ـ لم أره من قبل ..

وهى تدارى ضحكة فى كمّها :

ـ أنت التى تسببت فى قطع يديه ..

بحلقت عيناها :

ـ أنا ؟!

ـ بعد أن قتل منصور الخادم غين ، بعث إلى برقعة يستعطفنى فيها .. خامرنى التوجس ، فبعثت الرقعة معك إلى أخى منصور الذى أمر بقطع يديه..

## - ٤٨ -

بدت ست الملك حزينة كما لم تشاهدها من قبل . تعلم كيف تحيا سيدتها، من تصادق ، ومن تستقبل . التهمة قاسية بأنها تضاجع الرجال على سريرها . زاد فأرسل القوابل إلى قصرها ليتحرّوا عذريتها ..

- أنا لم أفعل هذا الأمر إلا بعد أن سممت شائعات العوام حياتى ..

- شائعات العوام أم وهم خيالك ؟!

لم يحاول كتم غضبه :

- تخاطبين أمير المؤمنين ..

وهى تضرب صدرها :

- تتهمنى بسوء السلوك ..

ونطق الذهول فى عينيها :

- تناسيت أنى جاوزت الخمسين ..

- لو أن الأعين أخفقت فى التعرف إلى ما تفعلين ، فلن أصدق أنهم يعرفون ما يحدث فى البيوت ..

هل كانت أمها ، الجارية النصرانية ، هى أم هذا الواقف أمامها يفضح ويتوعد ؟ وهل تصوره هو الأصح فى أن أمه هى الست العزيزية ؟..

هذا الذى اشتعلت النيران فى عينيه ، وأرعد صوته ، واهتزت قامته العملاقة ، وتكثف الزبد على جانبى فمه ، هو شخص آخر غير الطفل الذى ربته ، وبذلت له النصح ، حتى كبر . تشعر أن أذاه يمكن أن ينالها هى نفسها ، وأنها لا تعنى لمنصور - فى طبعه الدموى - أى شىء . تدرك جيداً ميل أخيها إلى الغدر ، وتحسب حساباً عظيماً لتوق نفسه إلى القتل ..

## ـ ٤٩ ـ

قال الرواة إن الخليفة الحاكم حين بدل فى سياسة أبيه ، فقد كان ما حدث بتأثير الوشاة . كان الخليفة العزيز بالله قد تزوج نصرانية . خالاه أرسانيوس وأريسطيس . عين العزيز أرسانيوس مطراناً للكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية فى القاهرة ، ثم بطريركاً للملكانية بالإسكندرية ، وعين أريسطيس بطريركاً للملكانية ببيت المقدس . أنجب العزيز ولداً واحداً هو الحاكم ، وأنجب من زوجه أو جاريته النصرانية أيضاً ابنة هى " ست الملك". كانت تكبر أخاها الحاكم بأمر الله بنحو خمسة عشر عاماً . وكانت عند وفاة أبيها فى السادسة والعشرين من عمرها ..

كل ما حاق بالأقباط يجدر وضعه فى إطار المؤامرة . تكاثر الدس والوقيعة والمنشورات الغائبة المصدر ، تعيب على الخليفة الحاكم ظلمه ، وتعيب على الأقباط عدم خضوعهم . نقلت الأعين حواراً جرى بين الكاتب أبى جنينة وأحد أعوانه ، أذن فيه الكاتب للرجل بأن يختطف الكاهن ساويرس المقدسى ، فيودعه موضعاً فى الصحراء ، لا تصل إليه أعين الحضرة ..

بلغ أمير المؤمنين ما فعله الكاتب أبو جنينة . أخلى سبيل الكاهن ، واتجه الإمام إلى الكاتب بعينى الغضب :

ـ هل وليتك أمر القضاء ؟..

قال أبو جنينة :

ـ أنا حيث يضعنى مولاى أمير المؤمنين ..

وهو يغرز نظرة فى عينيه :

ـ هل تحولت إلى كبير الحرافيش ؟..

ـ حياتى ضد كل من تسول له نفسه إثارة الفتنة ..

علا صوته الراعد :

ـ الزم مقبرتك فلا تغادرها !

ـ ٥٠ ـ

حرص خلدون اللبان على أن تكون مخارج الألفاظ صحيحة ، فلا يحتاج الكاتب أنس خضير إلى استعادة ما قال ..

أمر الإمام ، فنفذ الجند إلى مقبرة الكاتب . سملوا عينيه ، وقطعوا لسانه . طالب بأن يرد على أسئلته بكتابة الكلمات فى الهواء ، ويحدثه بالطريقة نفسها ..

كان قد مضى ثلاثة أيام على قطع اللسان وسمل العينين . بدا من ارتباك حركة الأصابع أن الكاتب لم يعتد ما حدث ، ولا استطاع التكيف معه . وبدا أن الذهول قد تملكه ، فهو غائب عما حوله ..

تكلم خلدون اللبان فبدت كلماته فى الهواء غير واضحة . أشار الكاتب بيده ، ليعيد اللبان الكلام . واقترح الخادم أبو الليل أن يعيد الكاتب الكتابة..

نسى الكاتب لسانه المقطوع ، فحاول الكلام . تحولت الكلمات إلى ما يشبه الصراخ المتقطع . ليس حتى كأصوات الخرس ..

هز رأسه بضيق ، فأدرك اللبان أن غيابه القسرى عما حوله يعذبه ، ينصت إلى الكلمات ، فلا يرى المتكلم ، ويعجز عن التحدث إليه ..

فقد أنس خضير النطق والبصر ، فألزمه الإمام الإقامة فى مقبرته ، لا يتصل بأحد ، ولا يتصل به أحد ، ولا يقوم على خدمته سوى عجوز من

عبيد الإمام . أثرت العزلة ـ فى أشهر قليلة ـ على ذهن أنس خضير ، فتشوش . اعتاد الخادم صياحه ـ بصوت مرتفع ـ فى شخصيات غائبة . ربما أعمل سيفه فى الوهم حتى يدركه التعب . يسلم جسده إلى الأرض ، ويسند رأسه إلى راحتيه ، ويبكى ..

أبلغ الخادم ما رآه إلى الإمام . أظهر التأثر ، ثم قال :

ـ فليظل فى موضعه ليصل حياته بموته !

ـ ٥١ ـ

قال رواة الأخبار إن الناس أسرفوا فى اللهو وحب الغناء . شغلوا عن العبادة والعمل ..

صدرت سجلات بمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للفرجة ، وحظر اجتماعات اللهو واللعب على شاطئ الخليج . ثم أصدر الحضرة سجلاً بمنع اللهو والغناء ، وألا تباع مغنية ، وألا يجتمع الناس فى الصحراء ، وأحرق آلات الطرب . استغاث المغنون بقاضى القضاة . أخذ عليهم عهداً بعدم العودة إلى مهنتهم . من يعلن التوبة يعفى من سجل النفى خارج أقاليم السلطنة . تكرر الأمر مع صناع التنجيم والكلام فيه . هجروا مهنتهم ، فرفعت عنهم العقوبات ..

ـ ٥٢ ـ

قال الكاتب إمام الدشة وهو يتلفت ـ بعفوية ـ فيما حوله :

ـ لعله يجدر بنا أن نفتش عن مكان نخلو فيه إلى الشطرنج بعيداً عن أعين الخليفة ..

الأرض مفروشة بالرخام الملون ، والجدران مغطاة بالمرايا الهائلة ، وبالنقوش المحفورة لمناظر متتابعة من رحلات الصيد ، وحفلات الموسيقا ، ورقصات الجوارى والخدم ، ومجالس الشراب ، وألعاب الحواة والمهرجين ، وستائر الحرير منسوجة بالذهب والفضة ، والقناديل تتدلى من السقف ، والطاولة الخشبية المطعمة بالصدف ، فوقها رقعة الشطرنج المصنوعة من الخشب الثمين ، والمطعمة بالعاج . وثمة مجامر من الفضة تتضوع فيها رائحة أعشاب عطرية وروائح بخور ..

نقل الكاتب ماجد الزعفرانى الأفراس والطوابى على رقعة الشطرنج :

ـ وما شأن الشطرنج بالحكم ؟

عرف عنه ميله إلى الحياة المرفهة ، وامتلاك الأموال ، والإكثار من الابتناء بالجوارى . لا يشغله شاغل من أحكام دين ولا عمل ، إنما هو يقبل على ما يريد بكليته ..

قال إمام الدشة :

ـ يرى الخليفة أننا نضيع أوقات الناس فى لعب الشطرنج ..

ثم وهو يمر بأصابعه فى ذقنه :

ـ حتى الرهانات التى نمارسها بلغه خبرها ..

قال ماجد الزعفرانى :

ـ أعرف أن بعض الشيوخ أباحها . اعتبرها من قبيل المران على الرماية وآداب السلاح وابتكار الخطط للتغلب على العدو ..

سرح الدشة فى صمت ، كمن يقلب الأمر فى ذهنه :

ـ هناك شيوخ آخرون اعتبروها من قبيل اللهو ، لا فائدة منها تعود على اللاعب فى دينه أو دنياه ..

ثم وهو يتأمل غلالات البخور المتصاعدة :

ـ سند الإمام حديث الرسول : " كل لهو ابن آدم حرام سوى الرماية والفروسية ..

قال الرواة إن لعبة الشطرنج صارت كالوباء . انشغل الجميع بها حتى عن أمور حياتهم . أهمل الحراس مصاحف القرآن الكريم . وضعوها بين أيديهم لشغل فراغ وقتهم ، فلا يسرقهم النوم . انشغلوا ـ بدلاً من قراءة آيات الله ـ بلعب الشطرنج ، وتعاطى الإهمال على باب القصر ..

أمر ، فنودى بمنع اللعب بالشطرنج ، وإنزال أشد العقاب بكل من يفرغ نفسه لهذه اللعبة . صودرت رقاع الشطرنج ، وجمع منها أعداد هائلة ، أحرقت فى ميدان بين القصرين ..

قال الرواة أن الكاتب ماجد الزعفراني أظهر ضيقاً . صارح جلساءه بأنه لن يعمل بأمر السلطان ..

عرف عنه ميله إلي لبس الحرير ، وإلي وجود الخمر على مائدته ، وإتقانه لعبة الشطرنج ، حتي إنه كان يلعبه دون أن ينظر فى الرقعة أمامه ..

حين عرف من عيونه أن خادمه قطر هو الذى تحدث عن تفشى لعبة الشطرنج ، وأنه مدسوس من الإمام على قصره . أمر ، فحمله الخدم ـ فى الظلمة ـ إلى حمام الساباط . وقفوا أمام الماء المغلى حتى علته الفقاقيع ، وانتشر البخار فى جو الحمام . قاوم الرجل فى أيديهم ، وفى الماء ، حتى سكنت حركته تماماً ، وغاص إلى داخل الحمام ..

ـ ٥٣ ـ

قال الرواة : خرجت تصرفات الأمراء والوزراء والوجهاء عن الحد المعقول. مالوا إلى اللهو والطرب ، واقتناص اللذائذ والشهوات ، والإسراف

فيها بلا قيد . اقتصرت جلساتهم وسهراتهم على شرب الخمور . يكثرون من شرب الراح ، وسماع العود والقيثارة والناى والدف والطبلة والمزمار والنقارة والصنوج والجرس والمثلثات المعدنية والآلات الوترية . يقربون المغانى ، ويحبون أرباب الفن من المغانى . يقبلون على المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، والخدم يدخلون محملين بأوانى الذهب والفضة والبلور ، فوقها أنواع الشراب والفاكهة والحلوى ..

نادى ماجد الزعفرانى على إحدى زوجاته , استأذنت الجارية فى أن تعد الزوجة نفسها له . حدَج الجارية بعينين متأملتين : البشرة الناعمة ، الموردة، تستفزه لملامستها ، والعينان السوداوان الواسعتان ، المرسومتان بالكحل ، وصبغت الشعر بالزعفران ، وأسدلته خلف ظهرها ، وتركت خصلة منه أمام الأذن ، والغمازة أسفل الذقن ، أضافت إلى ملاحتها ، ووضعت الحناء فى يديها وقدميها ، وثمة عطر يفوح من جسدها ، تسلل فى داخله بالنشوة ..

دفع الجارية - بسكرة الخمر - إلى السرير ، بعد أن أزمع - فى ليلته - أن يكتفى بها ..

تشمم أمير المؤمنين رائحة الخمر فى أفواه المترددين على مجلسه . أمر بقطع الكروم ، ونهى عن بيع الزبيب ، وعن حمله إلى مصر ، وما يعثر عليه يحمل إلى شاطئ النيل ، فتوقد فيه النيران . داهم الجند مخازن فى أطراف الفسطاط . حملوا ما كان بها من جرار يبلغ عددها الآلاف . كسروها جميعاً ، وأغرقت فى البحر . تبع ذلك بسجل يحرم الغناء . قال إن الغناء ينوب عن الخمر ، وأنه يفعل ما يفعله المسكر ، فهو ينقص الحياء ، ويزيد الشهوة ، ويدفع المرء إلى ارتكاب الموبقات ..

أمر أمير المؤمنين ، فحمل إلى دار الحكمة آلاف الكتب من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك . وأبيح ذلك كله لسائر الخلق ، على طبقاتهم ، ممن يؤثرون قراءة الكتب ، والنظر فيها . زاد إقبال الناس عليها من الطبقات كافة ، لقراءة الكتب ، أو للنسخ ، أو للدراسة . جلس فيها جماعات من الفقهاء وأهل الحساب والمنطق والأطباء، للمناظرة في حضرته . كل جماعة تستقل بحضورها . وأمر أمير المؤمنين بتصنيف الكتب في الرد على المخالفين ..



# الخفـــــاء

- ١ -

خرج أمير المؤمنين إلى ميدان بين القصرين . فرشت الشقق الحرير في الطريق ، وارتفعت الأصوات بالدعاء والنصر ، وانطلقت زغاريد النساء من الطيقان ..

استغنى عن البذخ الذى كان يحرص عليه أبوه وجده ، فلا زينات ولا مظاهر أبهة من أى نوع . يرتدى ثوباً أبيض غير مذهب أو مزخرف ، وبلا جوهر فى عمامته . أزمع أن يتخلى عن عمامة الجوهر وحرس الركابية ، وحملة الآلات الخاصة التى تلمع بالذهب بالفضة . لم يعد يحيط به سوى عشرة جياد ، مقودها سروج ولجم ، زينتها من الفضة البيضاء الخفيفة . يتقدمه نافخو البوق وضاربو الطبل والمزمار ، ومن أمامه وحوله بنود غير مرئية ، ومظلة بيضاء بلا زينة كذلك . وأحاط بالموكب القضاة الأربعة والكافة من الأمراء والوزراء والأجناد والكتاب وأرباب المناصب الديوانية والدينية وأصحاب الحل والعقد وسائر الرعية ..

قال الرواة : إن موكب أمير المؤمنين مضى فى الدورة الكبرى من القصر إلى باب النصر ، ومنه إلى مسجد تبر خارج القاهرة . خرج إليه حمزة الزوزنى , وانفرد بالإمام يحدثه ..

طال الحديث الذى لم يعرف فحواه أحد ، ثم انعطف الموكب على اليسار، ناحية باب الفتوح ، فى عودته إلى القصر ..

قال الرواة إن أمير المؤمنين أولى الزوزنى - من يومها - رعايته . وزود أعوانه بالسلاح ليدافعوا عن أنفسهم . صار من خواص الإمام الحاكم بأمر الله ، ومن الأربعة الحرم الذين لا يفارقون مجلسه ، ولا موكبه ..

أطلق الإمام يد الزوزني في عقد مجالس الدعوة للرجال والنساء ، ومكاتبة كبار موظفي الدولة . حتى داعي الدعاة خاتكين ، وقاضي القضاة ابن أبي العوام ، وولي العهد عبد الرحيم ، أذن له الحضرة بمكاتبتهم جميعاً، وحظر على غير الزوزني الكلام في الدعوة ..

قال الرواة إن حمزة بن علي الزوزني من مقاطعة زوزن . مجوسي الديانة. بدأ صانعاً للباد ، فعرف باللباد . وفد إلى القاهرة ، وادعى الإسلام. كان قد حفظ القرآن ، وقرأ في السنة بما أتاح له الانتساب إلى العلم . انتظم في سلك الدعاة الذين كانت تغص بهم القاهرة . مارس الجدل الديني، وانخرط في الدعوات السرية . حاول الطعن على الإسلام ، وإفساد صحيحه بالتأويل والأحاديث الكاذبة . وتعصب - دوماً - لقومه من المجوس ، وعمل لنصرتهم بالدعوة المعلنة ، وبالحيلة والدس والوقيعة وإذكاء الفتن . شغله أن يعهد الحضرة إليه بوظيفة داعي الدعاة ، يتبعه اثنا عشر نقيباً ، يتبعهم ثلاثون داعية ، يتولون أمور المناطق التابعة لدولة الخلافة ..

اتخذ الزوزني لنفسه أعواناً ، يضعون فوق رءوسهم عمامات هائلة ، ملونة . ويتمنطقون على خصورهم بأحزمة عريضة من الفضة ، تتدلى منها خناجر أو سيوف صغيرة . وكان على رأسهم سفير القدرة إسماعيل بن محمد التميمي ، ينفذه لأخذ البيعة من الأعيان والوجهاء والخاصة . أعلنوا التظاهر بالقبول ، وإن أضمروا الرفض . انتقام الإمام حتم إذا نقلت إليه الأعين ما يجيد الزوزني نسج خيوطه ..

عاد موكب أمير المؤمنين إلى القصر الفاطمي . خلع على الواسطة ثيابه الحمر التي كان يرتديها يوم العيد . ركب الوزير - بالخلعة - من القصر ، تقدم موكبه الطبول والأبواق والأعلام ، ومن حوله الحجاب والحواشي والحرس الخاص . شق القاهرة حتى دخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة..

ـ ٢ ـ

أبلغني رواة الأخبار أنه حين علا صوت الرجل ذى البشرة المجدورة بالقول : اتقوا الله فى المسلمين ، أدرك الناس أن حمزة الزوزنى دس على الشيخ مصباح من يسئ إليه ، ويحاول فضيحته ..

كان الزوزنى قد طلب الشيخ مصابيح مراراً ، فلم يسع إليه . أرسل إليه من عرضوا عليه الأموال النفيسة ، فردّها ..

قل تردده على الزاوية ، وعلى سويقة الوزير ، ولم يعد يتردد على بيته إلاّ لضرورة . فهو يقضى معظم أوقاته فى مغارة بجبل المقطم . يخلو إلى كتبه وأوراده وأذكاره وتأملاته ، ويستقبل أتباعه ومريديه . تمتد الأحاديث وتتشابك ، محورها الأسئلة من الأتباع والمريدين والأجوبة من الشيخ ، تضع الحلول للقضايا الفقهية والمشكلات . ربما اتصلت الأسئلة بقضايا الدنيا ، فلا يتردد الشيخ فى إبداء رأيه ..

استفحل أمر الشيخ ، وعلا صيته ..

وفد عليه الناس من كل صوب . يبايعونه ، ويتبركون برؤيته . نقلت الأعين آراء الشيخ فى غرابة القوانين والمراسيم وعمليات التضييق على الناس ..

لزم الشيخ صمتاً ، وإن جرت أصابعه ـ بعفوية ـ على خاتم فى بنصره ، أهداه له الشيخ معتمد الدمنهورى ، عليه الأسماء ، فيقيه الخطر ..

فهم المعلم الأباريقى التدبير . قال ليفوت الفرصة على الرجل ذى البشرة المجدورة :

ـ شيخنا ينتفع بعلمه مولانا أمير المؤمنين ..

ارتج على الرجل ، فشوح بيده . ثم تحسس شومة تحت مقعدته ، وطوح بها فى اتجاه الأباريقى ..

تعاركوا بالأيدى ، ولجأوا إلى السيوف والخناجر والشوم والسواطير . حتى قطع الزلط المسنون لجأوا إليها . شجت الرءوس ، وسالت الدماء ، وخضبت الأرض والجدران ..

تصعب له الناس وأقبلوا على صلاة الجمعة التى يلقى فيها الخطبة ويؤم المصلين ، واعتقدوا فيه اعتقاداً زائداً ، فمنزلته أقرب إلى الصحابة والأولياء والتابعين ..

كان أعين الزوزنى يترددون على الزاوية ، يتعرفون إلى أحوالهم ، ينصتون إلى ما يروونه من حكايات ، يرددون أذكارهم وأدعيتهم ..

لم يفطن الزوزنى إلى ما يجرى فى زاوية الصوفية إلاّ بعد أن علت الهمسات . زادت الأعين فأكدت أن الزاوية تحولت إلى نقيض عملها ، فهى موضع لنسج التآمر والوشاية وتدبيرات القتل ..

أنشأ حمزة الزوزنى جامعاً مقابلاً للزاوية التى يجلس فيها الشيخ فى سوق القناديل . عين فيه واعظاً يخالف الشيخ مصابيح فى فقهه وعظاته وتفسيراته لأمور الدين والدنيا . وحاول أن يجتذب الناس بسبيل الماء البارد فى ميضأة الجامع ، فيسهل على من يرتوى من عذب مائها أن يمضى من الباب الموصل بين الميضأة وصحن الجامع ..

لما ظل الأمر على استقامته ، دس الوزير على أصحاب الشيخ واحداً من خدمه . تنكر فى زى الدراويش ، وشارك فى حلقات الذكر والابتهالات والأدعية ..

كتب الخادم فى أوراقه ما أطلق صيحة الذهول من فم الأمير . جاء الشيخ وأعوانه بمعتقدات جديدة تناقض المذهب الشيعى . كانت أحاديثهم تجرى بالرمز والتورية والكناية ، تتناثر من أفواههم حروف وعبارات ، لا يفهمها سواهم ، كأنها طلاسم السحرة والمنجمين . وإن نقلت الأعين

استشهاده بأحاديث للرسول تقول إنه ما من رجل من المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع إمام يطيعه ، ويأمره ، بذات الله تعالى . وروى عن عائشة قول الرسول : إذا أراد الله بالأمير خيراً ، جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكّره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد الله به غير ذلك ، جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكّره ، وإن ذكر لم يعنه ..

اكتشف أعوان الزوزني سراديب وأقبية ، حفرها الناس في امتدادات كهوف المقطم . امتلأت بالسيوف والخناجر والفؤوس . وكان يجري في أحدها حلف يمين الولاء للجماعة ، فهي تنتقم من الرجل إذا حنث بيمينه ..

قالت الأعين إن ما حدث من فعل أعوان محروس الأباريقي . أزمع أن يعالج الأمر بنفسه . لو أنه أبلغ أمير المؤمنين ، فربما أطاح برأسه لإهماله ، وربما نبه الحضرة إلى ما يحرص على إخفائه عنه ..

أسكت الوزير تهيؤ الآراء . قال :

ـ دعوا هذا الأمر لي ..

أملى على كتبة التقارير أن الرجل يتعاطى المغيبات باسم الفناء في الملكوت ، وأنه يدس في طعام مريديه ما ينقلهم إلى الخيال ، والنأى عن الواقع . يلقي عليهم ـ وهم في حال الغيبوبة ـ تعاليمه وإرشاداته ، فتمكن من النفوس ، واستولى على العقول . واتهم الشيخ مصابيح بأنه انغمس في التمتع باللذات ، وأباح البنات والأخوات ، وأجاز اللواط ، واستباح قتل الغلام الذي يرفض الفعلة الدنيئة . واتهم الشيخ بأنه أهمل سفك الدماء ، وتعطيل الحدود ، وإباحة الفروج ، وسب أمير المؤمنين من فوق المنابر ، وفي الجلسات الخاصة . واتهم أعوان الشيخ بأنهم حطوا التكاليف الشرعية عن كواهلهم ، فهم لا يتوضؤون ، ولا يصلون ، ولا يدفعون صدقة ولا زكاة ، ويرقصون بدعوى الاتصال ، ويتقاعسون عن دعوات الجهاد ، ويذكرون البيت الحرام دون أن ينتووا السعي إليه ، وفاضت من أفعالهم وأقوالهم رائحة

الزندقة ..

قال الزوزنى من بين أسنانه :

ـ خان الرجل الأمانة ، ولا بد أن ينال جزاءه ..

ثم فى لهجة باترة :

ـ لابد أن يقتل !..

ملأ الجند الجامع عقب أذان العصر . دفعوا محروس الأباريقى من باب الجامع . حلقوا لحيته . عروه من ثيابه . قيدوا يديه وراء ظهره . أركبوه حماراً بالمقلوب ..

مضى الحمار فى الشوارع والميادين والأسواق ، يدفعه الجند باللكمات ، وتزفه الدفوف والمزامير ، ويحيط به الأولاد ، والمنادى يهتف ، وهم يرددون : هذا جزاء الخيانة !.. والناس يفسحون الطريق ، يتأملون ما يحدث ..

أمر الكاتب ، فذكر فى أمر إعدام الأباريقى أنه أحدث أحكاماً غير صحيحة ، وسعى لنشر مذهبه المخالف فى الجوامع والزوايا والأسواق . ذهبت كلماته بعقول العوام ، صرفتهم عن الله ورسوله . أول انشغاله تشويه صورة الحكم ، والنيل من شخص الإمام . اتهم بالترويج لشائعات ، تطعن فى نسب أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله . وذكر أنه أمر مريديه أن يوزعوا فى الأسواق مرسوم الخليفة العباسى فى نسب الفاطميين ، ورفض كتبهم وعقائدهم . وأن يكتبوا شتائم أمير المؤمنين على المساجد والدور ..

رجا الأباريقى الجند ألا يقتلوه . توسل إليهم أن يبقوا على حياته ، حتى يقف أمام السلطان ، أو القاضى . يسأله ، وينصت إلى أقواله . هو لم يفعل شيئاً ، هو برئ . تظاهر أعوانه وتجار السوق بأنهم لا يرونه . لم يخاطبه أحد ، ولا حاولوا الاقتراب منه ، ومن تابع اقتياد الأباريقى إلى حيث يعدم ، اكتفى بالنظرة المتأملة ، الحزينة ..

ظل الأباريقى يهتف :

ـ أنا برئ ..

دفعه جنديان إلى بقعة الدم . ارتخت ساقاه ، وهم بالتهاوى . لكن الجنديين وضعا أيديهما تحت إبطه ، فحالا دون سقوطه ..

طلب منه إمام جامع الأنور تلاوة الشهادتين ، فعاود الأباريقى الهتاف :

ـ أنا برئ ..

انهال الجند عليه بالمقارع . طوق رأسه بذراعيه يحميه من الضربات الموجعة . تمنى لو أن أحد أعوانه المحيطين به ـ لا يقوون على فعل شئ ! ـ قذفه برمح ، أو طعنه بخنجر ، يضع حداً لعذابه ..

مسح الجميع بنظرة طويلة ، مستغيثة ، لم تتوقف عند وجه محدد :

ـ تكفلوا بأطفالى فهم صغار ..

اندفع ناحيته رجل فى أواسط العمر . نطق أمامه بالشهادتين ، ليرددها الأباريقى ، فلا يرحل عن الدنيا دون إعلان يقينه الدينى ..

مدد الجند جسده على الأرض ، وربطوا قدميه ويديه إلى أربعة جياد ، انهالوا على ظهورها بالسياط ، فانطلقت . تمَزّق الجسد إلى أشلاء . ما تبقى من الجسد أضرمت فيه النيران ..

قالت الأعين إن محروس الأباريقى ظِلّ لا قيمة له . الشيخ مصابيح هو الرأس الذى يجب أن يفصل عن الجسد . يختفى الأصل والظل ، ويختفى التآمر ..

- ٣ -

قال الرواة إن الشوارع - يوم قتل محروس الأباريقى - خلت من الناس ، وترامى النواح والبكاء من وراء الأبواب والنوافذ المغلقة ، وتجرأ بعض المؤذنين ، فعلت أصواتهم - من فوق المآذن - فى غير مواقيت الصلاة . ثم خرج أهل مصر الفسطاط - فى صباح اليوم التالى - يهتفون للسلطان ، ولمحروس الأباريقى . زاد السخط بين الناس وانتشر . حتى باعة سوق القناديل أغلقوا دكاكينهم ، وانضموا إلى تجمعات الناس ، يهتفون ، ويصيحون ، ويقذفون الجند بالحجارة ..

أباح حمزة الزوزنى الفسطاط لجنوده . قال :

- قولوا للناس وأنتم تأخذون الغنائم : هذا دستور السلطان !

قال قائد المئين :

- هل هذا أمر السلطان ؟..

قال الزوزنى :

- تسأل أو تعترض ؟

ورسم على شفتيه ابتسامة باهتة :

- حتى السؤال يضعك فى بقعة الدم ..

وأشار إليه :

- اقتلوه !

غادر الجند أسوار القاهرة إلى الفسطاط . هجموا على الحارات والدور، واعتدوا على الناس . تصدى لهم - بالسكاكين والحجارة والمقاليع والهراوات

والشوم والنبابيت والمعاول والفؤوس والمشاعل ـ أولاد الناس وأهل البلد وأرباب الحرف وأهل الصنايع والباعة والمعدمون والعاطلون . واجههم الجند بما عجزوا عن مغالبته . ذابوا فى الدروب والعطوف المتفرعة من الميدان ..

قال الزوزنى :

ـ حين يختفى أحد ، فلابد أنه أخطأ !.

أمر بقتل كل من يشك فى أنه خرج للعنف من بيته ..

تقاطر الجند داخل المدينة . سقط الضحايا بالعشرات . حطم الجند أبواب الدور والدكاكين . نهبوا الدور والأسواق والدكاكين ، وكل ما وصل إلى أيديهم من بضائع وأموال ، وأشعلوا النيران . أسرفوا فى النهب والسلب ، وإعمال السيوف فى الأجساد ، قتلوا المئات من أهلها ، قتلوا من لاح لهم فى أى أفق ، وهجموا على النساء فى البيوت ، وخطفوا الأطفال والصبية . وبقروا بطون الحوامل ، وذبحوا الصغار على صدور النساء ، وقتلوا الأجنة فى بطون الأمهات ، وفقئوا العيون . وقفوا فى طريق القوافل ، وترصدوا للعائدين من الحقول ، ومن المدن القريبة . حتى المارة والمقعدين فى الأسواق والشوارع ، نالهم الأذى ، وسرق ما كان معهم من متاع وأموال . حتى الثياب انتزعوها عن الأجساد المرتعشة بالخوف ، وغابوا بها ..

قال الرواة إن الحضرة أبدى تأثره حين عرف أن الجند لم يعثروا فى بيت الأباريقى على مال أو مقتنيات ، وأن من لم يفروا بحياتهم من الجيران تكفلوا بدفع نفقات التغسيل والجنازة والدفن . شدد على تكريمه ، ودفته بمظاهر الاحترام ، والإنفاق من ماله الخاص على كل الخطوات ، ودفع راتب شهرى لأرملته وأبنائه ..

انتشر المنادون فى القاهرة والفسطاط . دعوا الناس إلى الهدوء ، وإلى الخروج ـ إن أرادوا ـ من منازلهم ، وفتح الأسواق والدكاكين والحمامات

والخانات . نالوا بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء . أخمدت الفتن ، وقضى على القلاقل ، وانقادت الأمور . لا يخاف أحد على أمواله ولا على بيته . كل إنسان حر فى دينه ورأيه . لا وصاية لأحد على أحد . أصدر أمير المؤمنين سجلاً لا يقام الحد على مرتكب جريمة إلا بعد أن يقر شاهدا عدل بما حدث ، فيقام عليه الحد ، أو يطلق سبيله . " .. مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه . معاشر المسلمين ، نحن الأئمة ، وأنتم الأمة . من شهد الشهادتين .. ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها من عصم ، وحرم عليها ما حرم ، من كل محرم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح ، والفساد والإفساد من العباد يستقبح ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت فى الأيام الخالية ، أيام آبائنا الأئمة المهتدين ، سلام الله عليهم أجمعين ، مهديهم بالله وقائمهم بأمر الله ومنصورهم الله ومضرهم لدين الله ، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية ، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية . يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض فى أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ، صلاة الخميس للذين جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم ولا هم عنها يدفعون ، يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير المربعون . يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ، لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما يوصف والحالف فيهم بما حلف . لكل مسلم فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده عند كتابه ، وعليه حسابه .. " . ورسم أمير المؤمنين بتعويض كل من أوذى فى بيته أو ماله أو نفسه . تدفع التعويضات من أموال الجند المصادرة ..

اختفت مضايقات الجند والدرك والعسس . انصرف الناس إلى أشغالهم، وإلى ممارسة حياتهم فى الدور والدكاكين والأسواق ، وإن ظلت الأيام الفائتة كابوساً ينغص عليهم الحياة ، ويرسم ملامح القلق .

قالت الروايات إن محروس الأباريقى تحول إلى شبح ، يظهر لمن اغتالوه فى النواصى المظلمة والأقبية ، وربما أطل عليهم من نوافذ البيوت ..

خشى حمزة الزوزنى أن يفتضح سره ، وأنه هو الذى مهر دستور الإباحة بتوقيعه . حلقة فى سلسلة لا نهاية لحلقاتها . حرص أن يسير فى النهار والليل على جواده دون حراسة ، فى صورة جديدة . جعل السلطان يتصور أنه يمضى إلى الأماكن التى يتردد عليها بمفرده ، لكن تناثر الخدم بخيلهم وأسلحتهم ، أمام الناس ، وعلى مبعدة منه ، ظل يشى بأنه يخشى على حياته تنبه السلطان ، وأذى الناس ..

فاجأ قائد الألوف الجند بأمر السلطان أن يكفوا عن السلب والإباحة ، وإعطاء الأمان لأهل الحارة ..

قال متولى الشرطة :

ـ معى سجل باستباحة الحارة ..

قال قائد الألوف :

ـ من يصدر الأوامر ؟..

ـ أنا أنفذ ما أتسلمه ممهوراً بتوقيع سلطان البلاد ..

حدجه بنظرة مستفهمة :

ـ توقيع السلطان أو ختمه ؟

ـ ما الفرق ؟

ـ ربما لا يعرف الخليفة بأمر هذا السجل ..

نودى فى الناس بالخروج إلى باب زويلة لرؤية ماجد منصور التاجر بسوق الشماعين . قصر تجارته على بيع الخمور بما لا يقبله دين ولا دنيا ، فوجب عليه العقاب . قدم الجنود بالرجل مقيد اليدين بحبل وراء ظهره ، وأحيط عنقه بحبل آخر . كان وجهه مغطى بالدم والزبد والعرق والرمال . وكان يظهر الخشوع والانكسار ، ويبكى ، ويطلب الرحمة والمغفرة ..

أشار والى الشرطة ، بأمر من قاضى القضاة حسين بن على النعمان ، فبطح الجند الرجل أرضاً ، وانهالوا عليه ضرباً بالمساوق والشوم . أنهضوه، وقيدوه لعارضة . جلدوه حتى غطّى الدم كتفيه وظهره . بدا له الموت هو الراحة الوحيدة ، المتاحة . أظهر المشاعلى سيفاً فى خريطة أحمر وأصفر بشراشيب غزيرة . أدرك أنه سيف الدم الذى سيطيح بعنقه ..

حين أمر أمير المؤمنين بإضاءة الشوارع والأسواق بمصر والقاهرة ليلاً ، كان يشغله صالح التجار وأصحاب الحرف والصناعات والباحثين عن الرزق. لم يضع فى باله أن تكون الإضاءة دافعاً لأن يشرب الناس الخمر فى الشوارع والدكاكين وعلى أبواب الدور ، وتنتشر بيوت الفساد ، ويخرج النسوة فى الطرقات ، وتتزايد الأماكن المشبوهة والأركان المظلمة ..

أمر بتطهير الأسواق من الخمور والخواطى والمخانيث ، وبمنع الحشيش والنبيذ والبوظة ، وبإبطال ضمان الحشيشة . توالت السجلات بمنع شرب النبيذ سراً وجهراً ، وإخفائه أو استبقاء شىء منه ، وحظرت صناعة الخمر وتجارتها وشربها ، وتتبع ألوانها حيثما كانت . ونهت عن الإلمام بالمسكر ، أو شربه ، على اختلاف أصنافه وأسمائه وألوانه وطعومه ، قليله وكثيره ، ونهت عن اقتنائه أو عمله واعتصاره " قد أمر أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه ،

يكتب هذا المنشور ليقرأ على الخاص والعام ، ينهى عن شرب شئ من المسكرات على أصنافه ، وأسمائه ، وألوانه ، وطعومه ، وكل شراب مشكوك فيه مما يسكر كثيره وقليله " . حرم كل ما يدخل فى صناعة الخمور ، وكسر ما عند الناس من الجرار والظروف الفرغ والدنان ، وإراقة ما بها من نبيذ وعسل وزبيب ، وتغريق العنب وقنانى الخمر فى النيل ، وبمنع بيع العسل الأسود ، وكسر جراره ، أو إلقائها فى النيل ، وصودرت أشجار العنب فى أراضى الفلاحين ، ومزارع الكروم فى الأديرة والكنائس ، وأحرقت مساحات كبيرة منها فى جيزة مصر ..

طارد الجند ـ بلا هوادة ـ صناعة المسكرات وعصر الخمور ، ومنعوا عمل الفقاع والترمس المعفن ، وهاجموا مزارع الكروم ومخازن النبيذ والفقاع والمزر والنيدة والزبيب والعسل ، ودهس العنب بأقدام البقر فى الطرقات . تعقب الجند دور الملاهى ، وكسروا ما بها من أوانى الخمور ، وأغلقوا بيوت المسكرات ، وأراقوا ما فيها من الخمور ، ودلقوا فوقها كميات من المياه حتى يفسد الأمر على من تراوده نفسه فى ارتشافها من أرض الطريق ، وكل من يوجد وهو سكران يقبض عليه . أقيم الحد على من يشترى الخمر ، ولو فى السر ..

تحدثت الهمسات فى الأسواق عن الجوارى اللائى أمر السلطان بإغراقهن فى النيل ، والإعدام الذى جز الرءوس لرائحة الأفواه ..

انتزع ماجد منصور الكلمات :

ـ هذه دسيسة . أنا لم أفعل ما أعاقب عليه ..

شهد جيران الرجل من أصحاب الدكاكين وقاطنى الدور أن الخمر وما شابهها ليست من تجارته . عرف عنه إعراضه عن الدنيا ، وإخلاصه للعبادة، وانقطاعه إلى الله تعالى . لكن والى الشرطة أمر الجند ، فواصلوا تعذيب الرجل ، حتى مات ..

قال الرواة إن الناس خرجوا فى جنازة ماجد منصور ..

لم يكن الرجل يستحق ما ناله من إيذاء ، انتهى بموته . تأثر الناس ، وجعلوا من جنازته مظاهرة تندد ، وتطالب بالقصاص . أمر الحضرة ، فحرم قاضى القضاة من منصبه ، ثم حبسه ، وأمر - بعد أيام - بضرب عنقه، وإحراقه ..

- ٥ -

قال الرواة إن الأعين أبلغوا الإمام بما تنقله البلانة فتنة إلى الجهة العالية مما ينبغى إخفاؤه ..

أمر الإمام ، فجردت المرأة - أمام أعين الناس - من ملابسها . جرى الحلاق على شعرها بالموسى . ثم انتزع عينيها من حدقتيها ، وسلخ جلد الوجه والجسد ، حتى أتتها حشرجة الموت ..

غاظ الإمام التصور بأن ست الملك تجلس للمظالم ، وتنظر فى الرقاع ، وتستقبل - فى مجلسها - الوزراء والأمراء والقضاة وكبار الموظفين ، وتضع ختمها على السجلات ..

إن كان هذا هو الدور الذى تتطلع إليه ، فما تدخر له إذن ؟..

- ٦ -

قال الرواة إن الإمام الحاكم بأمر الله عزم على نقل مناسك الحج إلى مصر ، ونقل رفات الرسول وصاحبيه أبى بكر وعمر من المدينة المنورة إلى القاهرة . تصبح هى عاصمة الإسلام وليس مكة . يحج إليها المسلمون ويزورونها ، لا يحجون إلى مكة ، ولا يزورون المدينة . شيد ثلاثة مشاهد فى

المنطقة بين الفسطاط والقاهرة ، ينقل إليها رفات الرسول ، ورفات أبى بكر وعمر ..

زينت الدور والمتاجر ونواصى الشوارع والميادين بقطع القماش الملون والحرير الموشى والشموع وقنديل الزيت . حملت القافلة المال والزاد والخلع والأكسية والخيام ، للفقراء والضعفاء والمنقطعين ، ورافقها الأطباء والكحالون والمجبرون والأدلاء والأئمة والمؤذنون وغاسلو الموتى . تقدمها الفرسان الذين يرتدون الملابس الذهبية ، والأطواق المرصعة ، والخيول المعدة أحسن إعداد ..

أقيم سرادق كبير خارج القاهرة ، من الديباج الموشى بالذهب ، والمكلل بالجواهر . وثمة خيمة من البوقلمون أمام السرادق الضخم . يبدأ وداعه فيه من سكان القاهرة ومصر الفسطاط والمدن والقرى القريبة ..

بذل الإمام أموالاً لنفر من شيعته . حفروا سرداباً أسفل الدور المجاورة لبيت الرسول ، مقابل القبر . أدرك أهل المدينة ما ينتويه شيعة الحاكم . قتلوهم ، ومثّلوا بهم ، ورصفوا الحفرة بالحجارة ، وغطّوها بالرصاص ، فلا يطمع فى الوصول إليها أحد ..

قال رواة آخرون إن الإمام عهد إلى أمير مكة أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى بمهمة حفر السرداب . ذهب إلى المدينة . اتهم بنى الحسين بالقدح فى نسب الفاطميين ، وأزالهم ، ثم جلس فى مجلس المدينة . عرف أهل المدينة ما يعدّ له . قدموا إليه ومعهم آيات من سورة التوبة ، تدعو إلى قتال الكافرين والناكثين بأيمانهم . ثار الخلق على أبى الفتوح ، وهمّوا بقتله، لولا خوفهم من أذى الإمام ..

فى مساء اليوم نفسه أرسل الله ريحاً كادت الأرض تزلزل منها ، حتى دحرجت الإبل بأقتابها ، والخيل بسروجها ، وهلك خلق كثير ..

أدرك أبو الفتوح ـ والناس ـ أن ما حدث هو غضب من الله ، وعاد أبو الفتوح يحمل تبرير فشله فى مهمته . أصدر أمير المؤمنين سجلاً ـ فى مساء مثول أبى الفتوح بين يدى الحضرة ـ لإلغاء رسم المكس المضروب على الحجاج ، للتخفيف عن كواهلهم ..

لزم أبو الفتوح بيته فى العباسة ، أول حدود الصحراء الفاصلة بين مصر والشام . أظهر التوبة ، وامتنع عن المعاصى ، وأقلع عن شرب الخمر ، وعن استدعاء الجوارى إلى فراشه . أخرج جميع من فى القصر من عبيد وخدم وجوار . باع بعضهم ، ووهب البعض ، وعتق الآخرين . خلت قصوره من ساكنيها ، فلم يبق فيها إلا زوجاته الثلاث وصغاره . تزايد مرضه حتى تملكه الضعف والهزال ، ومال إلى الشرود وعدم التذكر . ابتلى بأمراض مزمنة حتى تمنى الموت ..

ـ ٧ ـ

تولى الوساطة ـ بعد فرار المغربى ـ زرعة بن عيسى بن نسطورس . لقبه الحاكم بالشافى . واستمر زرعة فى الوساطة ، إلى أن مات ميتة ربه . وكان حسن السيرة ، محبوباً من الحضرة والكتاب وطوائف العساكر . زاد من تعاطف الجميع معه أن أباه عيسى بن نسطورس وسيط العزيز الذى استأثر بالأمور فى أول عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ..

قال الرواة إن أبا الجيوش زرعة بن عيسى بن نسطورس لحقه الأجل ، إثر مرض لم يمهله . تأسف الإمام على موته دون قتل ..

قال :

ـ ما أسفت على شئ قط أسفى على خلاص ابن نسطورس من سيفى . وكنت أود لو ضربت عنقه ، لأنه أفسد دولتى ، ونافق على ، وكتب إلى حسان

بن الجراح فى المداجاة على ، وأنه يبعث بمن يهرب إليه ..

عين الإمـام فـى منصب الوسـاطـة ـ بعـد زرعـة ـ أبا الحـسين بن طاهر الوزان . لقب بأمين الأمناء . ثم أخذ عليه الإمـام تصرفات مـاليـة ، فعزله ، وقـتله . وولى الحـضـرة الأخـوين الحسين وعـبـد الرحـيم ابن أبى السـيـد القاضـى، ثم قتلهما بعد شهرين . وعـهد أمير المؤمنين إلى الفضل بن جعفر بن الفرات بتدبير الأحوال ، ثم قتله بعد خمسة أيام . ثم ولى على بن جعفر بن فـلاح ، ولقـبه بذى الرئـاسـتين الآمـر المظفـر قطب الدولة . وكان يرعـاه ، ويعـوده فى حـالة المرض ، ويظهـر رضـاه عنه . لكن الرجل قُتل فـى ظروف غامضة ، وإن اتفقت الآراء أنها لم تكن من تدبير الإمام ..

عـهد الإمـام ـ بعد قتل على بن جعفر ـ إلى ابن عمـه الأمير هاشم بالنظر فى الأمـور ، ثم اكتـفـى بعـمل رؤسـاء الدواوين ، وظلت هذه سـيـاسـتـه حـتى نهاية حكمه ..

ـ ٨ ـ

وقف جماعة من الأتراك لعطوف خادم ست الملك فى دهليز القصر . أمره الحـضـرة أن يأتى له بحـاجـة فى نهـاية الدهليز الطويل ، الضـيق ، الحـالك الظلمة ، فلا يستطيع المرء أن يتبين شيئاً . عاجلته الضـربات دون أن يعرف من وجّهها له . احتزوا رأسه ، وغيّبوه ..

تكتم جماعة الأتراك ما حدث ..

لا أحد يعرف إن كان ما فـعلوه بأمر من الحـضـرة ، فلماذا لم يعلن أمر القتل ، وكان قد أمر بقتل الكثيرين ؟ ولماذا لم يقتل الخـادم عطوف بنفسـه ، وكان قد قتل بنفسه الكثيرين كذلك ؟..

أذن - فى ليلة الجمعة السادس من رمضان - لمن أمضى ليلة فى جامع الأزهر ، أن يتركه - بطلب من الخليفة - إلى الجامع الجديد . هو الجامع الرسمى منذ صلاة الجمعة التالية ..

سار الناس إلى الجامع الجديد من الأزهر ، ومن القاهرة ومصر الفسطاط ، لا يستوقفهم العسس ولا الشرطة ، حتى امتلأ الجامع بالمصلين، قبل أن يصل موكب أمير المؤمنين ليؤدى الصلاة ..

خرج أمير المؤمنين إلى صلاة العيد . أضاف إلى ميله فى التقشف ، فهو يهمل شعره على كتفيه ، ويرتدى ثوب الصوف الخشن ، ويدس قدميه فى مركب حديدى . حتى البياض شعار الفاطميين ، استبدل به السواد مع عمامة زرقاء ، تحولت إلى سوداء ، زيادة فى التقشف ..

ألف رؤية الأرواح والأشباح تدخل من النوافذ فى داخل القصور ، وتخرج منها . تقفز إلى قمم الأشجار . تتقافز بينها إلى نهاية الحدائق ، وتعود . تترامى أصوات تكسر الأغصان ، وتسقط الأوراق بفعل الهزات العنيفة ..

ما نغص عليه أيامه أن أرواح القتلى لم تعد تظهر فى الليل وحده ، لا تفرق فى أداء رقصاتها بين النور والظلمة ، فهى تظهر له فى وضح النهار . ينظر إلى المحيطين به . يخمن فى أعينهم إن كانوا قد رأوا ما رأى ، لكن الملامح تظل ساكنة ، والأفواه تطمئن إلى الصمت ..

خرج الموكب من الإيوان الكبير إلى باب الديلم ، ومن القصر إلى بين القصرين . رفض تدبيرات صاحب الشرطة العليا . كان يأمر الجند ، فيحيطون موكبه حين يخترق شوارع القاهرة ومصر . صفوف متلاصقة من الجند ، تحول دون رؤية الناس له ، أو الاقتراب منه . لم يعد يركب إلا على

حماره الأشهب المسمى القمر ، لا يستبدل به دابة أخرى . وترجل الوزراء والأمراء ، ومن ورائه الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام ..

بلغ الموكب مصلى العيد . مكان مكشوف ، أنشأه جوهر الصقلى شرقى القصر الكبير ، وجدده العزيز . شدد أمير المؤمنين ، فلا ستر ، ولا ألوية على جانبى المصلى ..

تعددت - من قبل - أوامره بمنع مظاهر العبث والمجون التى ترافق احتفالات فتح الخليج : نهى عن تقبيل الأرض بين يديه ، أو تقبيل يده ، أو السجود إلى الأرض . قال : إن الانحناء إلى الأرض لمخلوق هو من صنع الروم . ونهى عن مخاطبته بلفظة " مولانا " . وأمر أن يقتصر السلام على القول " السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " . اكتفى حرس القصور الفاطمية - بتشديد أوامره - بالطواف حول القصور فى أثناء الليل . تنفخ الأبواق ، وتدق الطبول ، وترمى السلسلة ، لا ترفع إلا بنفخة الأبواق . ظل الحرس - من الجنود السود - على طوافهم حول المنصور بلا طبل ولا بوق . ولأن الكلاب كانت تكثر من النباح فى الطرقات فى أثناء جولات الإمام الليلية ، فقد أمر بقتل كل ما فى مصر من الكلاب ، ما عدا كلاب الصيد . قتل الجند منها نحو ثلاثين ألفاً فى أيام قليلة ..

عطلت الأسواق ، وأغلقت الدكاكين وأبواب الدور ، وخرجت المواكب إلى الجامع الأزهر ، وتلى القرآن ، وقرئت الأناشيد الدينية والقصائد ..

توقف الموكب - فى طريق العودة من صلاة العيد - عند الجامع الأنور . أشار الإمام ، فانصرف الجميع . مضى - منفرداً - إلى داخل الجامع ، بينما أغلق الحجاب الباب الرئيس والأبواب الجانبية والنوافذ .

قال الرواة إن حمزة الزوزنى كان قد أبلغ الشيخ مصابيح بمرسوم الإمام ، فيغلق الناس أسواقهم فى النهار ، ويفتحونها فى الليل . كان

الشيخ ـ قبل أن يكشف خبيئته ـ موضع سره . أمر خدمه ـ فى وجوده ـ أن يفيدوا من غرام الإمام بالليل والظلمة . إن رفض إصدار المرسوم نشروا الشائعات بالمعنىَ فى الأسواق . لن يشغله سهر الناس بالليل ، ونومهم بالنهار . يسأل الناس ما إذا كان قد صدر بالفعل مرسوم براحة النهار وعمل الليل ..

اخترع الزوزني ـ بين وقت وآخر ـ أموراً وأحكاماً ، نسبها إلى أمير المؤمنين ، وحمل الناس عليها . ونسب إليه أنه لم يكن يستقر فى أحواله ، فهو يحوّر ، ويعدل ، ويضيف ، ويتوخى الأمن ، ويحرص على النسك ، ويخترع البدعة ..

تعددت التهم التى نسبها أعوان أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله إليه ، وحاولوا إلصاقها به ، أو شوشوا عليه حتى اتخذها ..

نقلت إليه الأعين ما يدور فى المجالس والأسواق والحمامات والخانات والوكائل . ألف الناس اضطراب الجند فى البيوت . يفتشون الحجرات ، وما تحت الأثاث ، والمطابخ ، والحمامات . حتى عشش الدجاج فوق الأسطح كانت أيديهم تعبث فيها . زادت عمليات الإعدام ، وإن ظلت الهمسات فى انتشارها . شغلته النتائج فلم يعن بالأسباب ..

طالب الدعاة أن يعنوا بنشر العقيدة الصحيحة ، وتأليف الكتب التى تفضح المؤامرات . أهمل ما نقلته إليه الأوراق أن الشيخ مصابيح أعلن حنينه إلى أيام الإخشيديين والكافوريين ..

ـ ١٠ ـ

قال الرواة أن حمزة الزوزنى تيقن أن الإمام هو الحائط المسدود أمام تصرفاته . قال :

- من يعفينا من مؤاخذة هذا الرجل ؟..

قال تابعه ماجد التكروري :

- أنا أراه وهو يسير فى الصحراء بمفرده ليلاً . أستطيع أن أخلّصكم منه بطعنة خنجر

علا حاجبا الزوزنى بالدهشة :

- من قال لك إننا نريد قتله ؟

ولوح بسبابته فى وجهه :

- الغباء موهبة مثل الذكاء .. وأنت موهوب فى غبائك . من المهم أن يظل السلطان واجهة لما نفعله ..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

- لكل فعل فاعل .. وعلى السلطان أن يتحمل مغبّة أفعالنا ..

قال ماجد التكروري :

- ما الصورة التى يجب أن نقدم بها السلطان إلى الناس ؟..

قال الزوزنى :

- لا صورة محددة ..

وناوشته الاحتمالات والبدائل وشطحات الخيال :

- إنها يجب أن تكون مختلطة ومشوشة ، فتصدق دعوانا أن الرجل يعانى الخبل !..

أمر ، فيفيدون من سير الإمام فى الصحراء ، منفرداً ، متأملاً . ذلك دليل خبل يعانيه الرجل ، ويحكم تصرفاته ، هو يقتل لمجرد القتل ، لإرضاء ما يصعب التعرف إليه فى داخله..

قال الزوزنى :

ـ ما كنا لنلصق به الربوبية لولا تقبله الفكرة ..

ثم وهو يغمز بعينه :

ـ لقد رضع لبن الآلهة منذ طفولته ..

ـ ١١ ـ

قال الرواة إن الشيخ مصابيح دعا جماعة من العلماء والفقهاء والزهاد إلى مجلس فى مسجد صغير ، أول الفسطاط من ناحية حلوان . عرض عليهم أفعال الخليفة من القتل والخراب والتدمير ..

قال الشيخ :

ـ كنت عند الحسن بن الهيثم ..

هتف الشيخ سيد مخيمر إمام الجامع العتيق بالمفاجأة :

ـ ذلك المجنون ..

قال مصابيح :

ـ حتى العالم الجليل ادعى الخبال فراراً بحياته !

ثم وهو يظهر التصعب :

ـ الجنون ادعاء الرجل حتى ينجو من أذى السلطان ..

قال الشيخ إبراهيم جاد المولى :

ـ أعرف أنه جاء لمهمة ، ثم اعتذر باستحالة تنفيذها ..

قال مصابيح :

ـ رضخ لأمر الحاكم فتولى بعض الدواوين رهبة لا رغبة . فلما تبين له

ميل الخليفة إلى إهراق الدماء بلا سبب ، أو بأضعف سبب من خيال يتخيله، لم يجد إلا إظهار الجنون والخبال ..

وشرد بنظرته فى الفراغ :

- قيد الرجل وترك فى موضع من المنزل الذى خصص لإقامته ، وأحيط على موجوداته بيد الوزراء والكتبة ..

ونطقت ملامحه بالتألم :

- حتى من جُعِل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه ، امتدت أيديهم إلى موجودات الرجل !

وأردف فى صوت مذبوح :

- نحن نزوره سراً .. نقدم له ما يحفظ عليه حياته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

كر الشيخ الخيط من بداياته . استعاد أسماء ابن عمار وبرجوان والنعمان ومؤامرات الوزراء وعمليات القتل . ما أهمله فلضعف الذاكرة ، أو إشفاقاً على الحضور . ثم اتجه إليهم بنظرة متسائلة :

- هل تصح إمامة هذا الرجل ؟!

أرجع العلماء وأصحاب العمامة تعدد أفعال الحاكم إلى الخبل والخرف . لا تتصل بتقدم فى السن ، فهو لم يبلغ الشيخوخة ، وإنما تتصل بالنشأة ، وما يعانيه من نوبات الصرع ..

انقض أهل مصر والقاهرة على غلمان الإمام وهم يحيطون بموكبه . قتلوهم ، وفتكوا بهم . خمّنوا - فى البداية - أن التأليه فعل الشيوخ فى دار الحكمة ، لكن الرائحة اللعينة فاحت من داخل القصر الفاطمى . مزج تكويناتها حمزة بن الزوزنى ، وخرجت بها مجامر أعوانه إلى الجوامع والأسواق . أعلن أنوشتكين ، محمد بن إسماعيل الدرزى ما اتُّفق على

إخفائه ..

كان أنوشتكين أول من أذاع الدعوة إلى ألوهية الإمام ، وإلى التناسخ والحلول . استتر بالرموز والمعانى الباطنة . قال إن روح أبى البشر آدم انتقلت إلى روح الإمام الشهيد على بن أبى طالب ، ومنها انتقلت إلى الحاكم، صفوة السلالة النبوية ، القائم بذاته ، المنفرد عن مبدعاته . وقال إنه ما على أمير المؤمنين حساب ولا عقاب ، وإنه لا يسأل عما يفعل . هو الداعى إلى الاقتصار على مذهب دينى ، دون بقية المذاهب ، وارتفاع أذان الفجر بحى على خير العمل ، وهو الآمر الناهى فى شأن الحياة ، وفى شأن الموت، واختيار الصداقات . وهو صاحب القرار فى إلزام النساء بالبقاء فى البيوت، وحظر نزولهن إلى الشوارع ، والتردد على الأسواق والحمامات ، والطلوع إلى الخلاء ، وتخيير من تتغير نفسه عليه بالإقامة فى البيوت ، أو فى المقابر، وجعل الموت توقع اللحظة التالية ، وإباحة أصناف من الطعام ، ومنع أصناف أخرى ، وتحديد أوقات للنوم ، والصحو ، والسهر ، والجلوس على المصاطب ، والتنقل بين المدن ..

رفع رقعة إلى أمير المؤمنين ، شرح فيها قواعد دعوته ، وما تسعى إليه . قربه أمير المؤمنين ، وأولاه عطفه ورعايته . خلع عليه ، وأجزل له ، ويسر له تأليف الكتب التى تؤكد ألوهية الإمام . فوض الأمور إليه ، وبلغ منه أعلى المراتب . أفاد من وضعه فى اجتذاب الوجهاء والأعيان وكبار الموظفين . مثل لهم جسراً إلى الحضرة ..

ألف المترددون على بابه من الوزراء والأمراء والقادة وكبار الموظفين أن يركنوا إلى الصبر ، حتى يأذن لهم بالدخول . لا يتم لهم عمل إلا بواسطته ، وعلى يديه . سمى نفسه "سند الهادى" و "حياة المستجيبين" ..

ساير أنوشتكين الزوزنى فى موافقته على أن تظل ألوهية الحاكم سراً فى الصدور ، لا يذاع ، ولا يكشف فحواه ، ما لم يصدر الزوزنى أمره بذلك.

صعد منبر جامع عمرو لخطبة الجمعة . ذكر الله ورسوله ، وألقى الخطبة الأولى ، ثم جلس ، وقام للخطبة الثانية . فاجأ المصلين فى الجامع بالموضع الذى يجدوا فيه الإمام ولا أى مخلوق ..

هل يتجسد الله في صورة إنسان ؟!..

علت الأصوات بالاستنكار والغضب . قاطعوه حتى سكت ، وأفسح له أعوانه طريقاً ، فغادر الجامع من أقرب باب ..

أدرك حمزة باعث إفشاء أنوشتكين ما حرص هو على إخفائه . كان ابن إسماعيل يتطلع إلى منصب الإمامة الذى اختص به الزوزنى نفسه . لاحظ ـ بزيادة عبارات الإطراء ـ زيادة التيه فى أقوال الخليفة وتصرفاته ..

طلب الزوزنى من الدعاة أن يلزموا أماكنهم عقب صلاة العشاء فى جامع عمرو بن العاص . تأكد من إغلاق الأبواب والنوافذ . تفحص الوجوه ، فلا تصدمه ملامح غريبة ..

قال فى صوت هامس :

ـ أنا لم أدع إلى تأليه مولانا الحضرة من نفسى ..

ثم وهو يتحسس لحيته :

ـ سبق البعض إلى إعلان الدعوة ظناً أن الخليفة يرفض .. لكن الحضرة هو الذى رأى فى نفسه الطاهرة ما رأى ، وطالبنا بأن نرى الشىء نفسه ..

عرف أنوشتكين أن الزوزنى كشف مقصده . أزمع أن يسير فى الطريق إلى نهايتها . لعن الزوزنى وكفّره ، ودعا فى الجوامع والمساجد إلى تأليه الخليفة المنصور . قال إن أمير المؤمنين هو الصورة الناسوتية للإلوهية ، وهو الأحد الفرد الصمد ، والمنزه عن الأزواج والعدد ، ومن أقر أنه ليس فى السماء إله معبود ، ولا في الأرض إمام موجود ، إلا مولانا الحاكم جل ذكره، فهو من الموحدين حقاً . إن الإمام عديم التشبيه فى الجرمانيين ، ولا

كفء له فى الروحانيين ، ولا نظير له فى النفسانيين ، ولا مقام له فى النورانيين ..

سمى أنوشتكين نفسه عبد مولاه ، ومملوكه . هادى المستجيبين ، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره ..

قال الرواة إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله لم يشترك فى دعوة الزوزنى بألوهيته - الإمام - ولا صياغتها ، وإن حماه - وأعوانه - من شر الخصومة والمطاردة ، ومدهم بالمال والنصح والتوجيه ..

- ١٢ -

قال الرواة إن أمير المؤمنين زاد من العزلة . يغلق الأبواب ، ويأمر الحجاب بألا يأذنوا لأحد عليه ..

بنى خلوة فى رابية صحراء الجب بجبل المقطم . يمضى غالبية الليالى إليها . يتطلع إلى معرفة الغيب ، ويشغف بالخفاء . فهو يجيد زجر الطير ، ورصد النجوم واستقرائها ، واستهداء مطالع الفلك ، ومعرفة الحساب والسنين ، ومواقيت الليل والنهار ، والنبوءات الجوية ، ومعرفة الكسوف والحادثات . وكان يطيل التطلع إلى السماء ، يتحرى مواقع النجوم ، يشغله رصدها ، وما تحمله من نبوءات ، ويستكشف الغيب . يتأمل القمر إن كان هلالاً أم بدراً . يعتبر بذلك قدرة الله تعالى ، ودليل وحدانيته ، لا شريك له ، وبذل الأموال والعطايا للفلكيين والمنجمين ..

أصدر - دون توقع - سجلاً بإبطال التنجيم ، وأعمال المنجمين ، والتكلم فى صناعة النجوم . زاد ، فنفى أعداداً من المشتغلين بالتنجيم . وكان إذا استأذن عليه أحد من خاصته أو رجالات الدولة ، لا يؤذن له . تسللت أمور التنبؤ بالغيب إلى الدور والمجالس . تحققت منها للمتاجرين والمدعين ثروات

على حساب حياة الناس . لم يعد الأمر وقفاً على جماعة بذاتها ، لكنه شمل حتى ربات البيوت .

ثمة قوى خفية تحيا فى القصور ، تعشش فى أركانها ـ تبث الأنفاس الساخنة . تصاعدت رائحة الفتنة وانتشرت . تسللت إلى داخل القصور والبيوت . حتى الزوايا ، تشمم فيها المصلون روائح لم تكن موجودة من قبل. لم يعد المرء يستطيع أن يطمئن إلى عينيه ولا أذنه ولا فمه .

رفض المصلون أداء صلاة الجمعة فى الجوامع الرئيسية : الأزهر ، الأقمر ، الأنور ، الطولونى ، العتيق ، القرافة ، وغيرها . أدرك أنّ ما حدث له دلالاته التى يصعب إهمالها . لاحظ تقلص ظل العدل ، وقلة المبالاة ، والاجتراء ، وإلقاء الحياء من وراء الظهور ..

قال الرواة إن الموظفين ألّبوا العوام عليه بادعاء انحرافه عن سجلاته وتعاليمه ، واختراعهم ما لم يعلنه ، ونسبته إليه . ولكى يجيدوا السبك ، أغلقوا الأبواب المفضية إلى المقس عند ركوبه ، ومنعوا الناس من الخروج إلى تلك المواضع . وكان الحراس والخواص يسبقونه ، ويحيطون به ، ويتبعونه ، إذا أراد النزول فى جولة ..

تأذت نفسه من الهمسات التى تجد فيه ألعوبة فى أيدى الوزراء والكتبة . جعلوه ـ فى نظر الناس ـ غير أهل لتصريف أمور الدولة ، فعقله مشوش ، وقراراته وليدة انفعال ، أو رغبة فى الإملاء وتأكيد السيطرة . حتى مقتل برجوان ، استعادته الشائعات ..

لم يردع الحاكم فى قتل الرجل أنهْ وصيه ومدبر دولته . قتله بالبساطة نفسها التى يمزق بها ورقة فى رقاع . وبعد أن قتل الحسن بن عمار بأيدى الغلمان الترك ، حملوا رأسه إلى الإمام ..

تزايدت جولات الإمام فى داخل القصور الفاطمية ، وتزايد ركوبه إلى

خارج القصور ، فهو يركب في اليوم الواحد عدة مرات . يمضى فترتى الصباح والظهيرة في تفقد الخزائن في القصور الفاطمية : خزانة الكتب ، خزانة البنود ، خزائن السلاح ، خزائن السروج ، خزانة الدرق ، خزانة الكسوات ، خزائن الشراب ، خزانة التوابل ، خزائن دار أفتيكين ، خزانة الجوهر والطيب ..

ربما فاجأ المطابخ ، فتفقد اللحم ، واختبر الطعام في جودته ورداءته ، وإن لم يعد يأكل مما تعده مطابخ القصور السلطانية ، ولم يعد يأكل مع الجماعة مهما كانوا مقربين . حتى نساءه يأكلن في قصورهن ، لا يأكل مما قد يبعثن به إليه ، أملاً في رضاه . ترك لأنس عبدون الطباخ - أهدته له أخته ست الملك ، فأمسى قريباً منه - مهمة إعداد طعامه ، وإن أخضعه - أحياناً - لاختبارات ، فيأمر بأن يأكل مما أعده له من طعام ، أو يرشف مما قدمه من شراب . يتمهل دقائق ، يتيقن ما إذا كان الطعام حفظ على الطباخ حياته ، أم أنه سرى في جسده بالموت . ثم قصر وضع شرابه في كؤوس من حجر اليصب . يتغير لون الشراب إذا كان فيه شيء من السم ..

استغنى عن معظم من بالقصور من الجوارى والخدم والأعوان . حتى الأمراء ، أمر بتسفير الكثير منهم إلى مدن الأقاليم والمدن البعيدة .

علق جرساً أعلى باب القصر الفاطمي . من يشكو ظلماً ، فإنه يجذب الحبل المتدلى منه الجرس . يستدعيه كتبة القصر ، وينصتون لشكواه . إذا كانت المشكلة يسيرة قضوا بحلها . أما إذا تشابكت الخيوط ، فإن الأمر يرفع إلى مقام الحضرة ، هو الذى يعاقب ..

أخذ في إصلاح أمور البلاد ، وجدد من محاسن المملكة ما لم يكن ، وزاد من ثرواتها بالكنوز التى عنى باستخراجها من معابد قدامى المصريين ومقابرهم ..

أكثر من إنشاء الأسبلة والزوايا والمساجد والخانقاوات والتكايا والأضرحة والقباب والأسبلة ، وعمّر المساجد القائمة ، وقدم لها ما تحتاجه من سجاجيد الصلاة والحصير والستور والقناديل والتنانير والمصاحف والبخور ورواتب المؤذنين والفراشين . أوقف جزءاً من أراضي الدولة لصيانتها ، وأوقف العقارات والأراضي الزراعية والأملاك الكثيرة على دور العلم ، وعلى الفقراء ، وقاصدى باب الله الكريم . أقام الأبراج والقصور والحمامات والوكائل والقيساريات والمدارس والأسواق والفنادق ومعاصر القصب ومسابك السكر . عنى بإقامة الأسمطة والولائم وتوزيع الكسوات على الفقراء والمعوزين . ولتيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن ، ضربت دراهم جديدة من الفضة ، كل ثمانية عشر بدينار ..

لم يعد خروجه مقصوراً على ركوب أول العام ، وأول رمضان ، وأيام الجمع الثلاث من رمضان ، وعيدى الفطر والأضحى ، وتخليق المقياس ، وفتح الخليج . تعددت المناسبات ، وربما خرج الحضرة بلا مناسبة . تشغله مفاجأة الأسواق والميادين فى مألوف أيامها ..

وهو فى طريقه ، مال إلى سويقة الوزير . توقف الركب عند بيت التاجر كامل حمدين . ملأ موكب الإمام وحاشيته بستان البيت . لكثرة أفاعيل الخليفة وسابق غدره ، قاوم التاجر خوفه وهو يظهر الترحيب . توالت أوامره المرتبكة لجواريه المائة . أخرجن مائة بساط ، ومائة نطع ، ومائة وسادة ، ومائة طبق من الفاكهة ، ومائة جام ملأى حلوى ، ومائة زبدية ملأى بالشراب الحلو . قدمها التاجر لأمير المؤمنين ولمن فى معيته .

سجد الإمام لله شكراً فى داخل البستان . قال : الحمد لله الذى جعل فى رعايانا من وسّع الله عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره ، من غير استعداد لهم ، من فاضل طعامه ..

صدرت سجلات بوضع أزيار الماء المملوءة على الدكاكين ، وتعليق

المصابيح والقناديل على الدور ، وفى الأسواق ، ونادى المنادون بأن يغطى السقاءون روايا الجمال والبغال فلا تدنس ثياب الناس ، وألزم كل صاحب متجر أن يحتفظ أمام دكانه بوعاء كبير ممتلئ بالماء لسرعة التصرف إن اشتعلت النيران ، وقرئت سجلات تمنع بيع وأكل أطعمة وجد أنها ربما تصيب الناس بما يؤذى أبدانهم وصحتهم ..

أما الجرجير فجاء تجريمه لأنه ينسب إلى السيدة عائشة . وأما الملوخية فكانت من الأطعمة المحبوبة لمعاوية . ونسبت المتوكلية إلى الخليفة المتوكل العباسى الذى لم يخف كراهيته للعلويين . وحرم الإمام على بن أبى طالب الفقاع لأنه مسكر ، ضار . كما جرم الدلينس والترمس المتعفن والسمك الذى بلا قشر لأسباب صحية . أما تحريم ذبح الأبقار السليمة فللمحافظة على ثروة *البلاد* من *الماشية* ، *وما يصلح للحرث* ، *وما لا يكون لها* عاقبة ، وأن يقتصر الذبح على أيام الأضاحى . وأما حظر استخدام الخبازين أقدامهم فى صنع العجين ، فلأن الفعل يتنافى مع قواعد الصحة ..

توالت السجلات : للسير آدابه ، فلا يمر بالشارع الأعظم حمل تبن أو حطب ، ولا يسير حمار أو جواد ، حتى لا يلوث الطريق بالروث . وعلى كل صاحب دكان أن يعلق على دكانه فانوساً ، ويضع بالقرب من الباب زيراً مملوءاً بالماء لإطفاء الحريق ، إن حدث ..

حتى تظل البلاد فى مأمن من أخطار الفيضان والحريق أكثر من وظائف السقائين والمشاعلية والنجارين والهدادين والقصارين . أمر بكنس الأزقة والشوارع ، وأمام المحال وأبواب الدور . شدد على تنظيف الجوامع والمساجد ، وحمايتها من الأفعال الضارة والأوساخ . أمر بتدمير أبراج الحمام ، حرصاً على أسرار الناس وحرماتهم ..

توالى صدور السجلات تذكّر بمنع النساء من الخروج إلى الطريق ، ومن التطلع فى الطيقان ، سواء كن من الشابات أو العجائز . وصدر سجل بقتل

الكلاب فى الأزقة والشوارع والساحات . أعمل الجند فيها يد القتل ، فخلت البلاد ـ أو كادت ـ مما ينبح .

سامح أرباب المصادرات بما عليهم من ضرائب وأعشار ، وأصدر سجلات بإلغاء مكس الرطب ، ومكس دار الصابون ، ومكس الكثير من التجارات التى كانت تصل إلى مدينة القلزم عن طريق البحر ، وطالب بتقليل الضرائب ، ورفع المظالم ، وتحقيق العدل ، ورعاية مصالح الناس ، ووهب معظم الضياع والأعمال والعقارات والأملاك السلطانية ، وإن شدد على مراقبة التجار وأصحاب الحرف والصناعات ، وعلى عدم البخس فى المكاييل والموازين . البائع الذى يطفف الميزان ، أو يبالغ فى السعر ، يعاقب بالمصادرة ، أو الجلد بالكرباج أو الدرة ، أو التجريس بالركوب على حمار مقلوب . ربما دق الجنود أذنه فى باب الدكان المغلق ، وربما انتزعت أسنان البائع وأضراسه ، يثبتها الجند فى الرأس الصلعاء ، أو التى أزيل شعرها . وقد يومئ الإمام برأسه إلى العبيد . يبطحون البائع على الأرض ، يلتقط الخنجر من الجراب ، ويذبحه بنفسه كالشاة ..

أصدر سجلاً بالعفو العام عن جميع النصارى ، فهم مطمئنون على أملاكهم وأموالهم وما بحوزتهم ، وهم يتمتعون بالحماية ، فلا يعتدى عليهم ، ولا على مقتنياتهم أحد . كان معظم كتبته وعماله وأطباء المملكة ـ قبل أن ينقلب ـ من النصارى . توالت السجلات التى تقضى بحسن معاملة النصارى ، وبإعادة بناء ما هدم من كنائس وأديرة ..

خفف من غلواء سياسته إزاء أهل الذمة . لم يعد يلزم النصارى بشد الزنانير فى أوساطهم ، ولا وضع العمائم السود ـ شعار العباسيين العصاة ـ على رءوسهم ، وحمل الصلبان على الأعناق . وكان ركوبهم يقتصر على البغال والحمير ، بسروج ولجم غير محلاة بالذهب ولا الفضة ، وجلودها سوداء ، وركب السروج من خشب الجميز . لم تعد حمامات المسلمين مغلقة

فى وجوههم ، وأمر أمير المؤمنين ، فرفع الصليب الخشبى من واجهة حمام النصارى ، وقرمة الخشب على حمام اليهود ، وأذن بإعادة دق النواقيس فى كل البلاد ، وإهمال رسم الصليب على أيدى الناس ، وإسقاط أمر اعتناق الإسلام أو الخروج إلى بلاد الروم . أذن لمن أظهر الإسلام من النصارى أن يعود إلى ديانته . قال : ننزه مساجدنا عن أن يدخلها من لا نية له فى الإسلام ..

تعددت زياراته للرهبان ، يرتدى زيهم فى أديرتهم ، وأنفق على عمارة دير القصير فى تجديدها . أعاد إلى دير سيناء كل ما كان صادره من أراضيه ، وتبرع لدير ناهيا من أقاليم الجيزة بثلاثين فداناً من أراضيه الزراعية ، ووهب ثمانى قرى إلى جماعات دينية مسيحية . تطلع الأقباط إلى ما صار ماضياً ، فيشارك أمير المؤمنين فى عيد الغطاس . يحضر الاحتفال بنفسه ، على رأس موظفيه . يوافق على إيقاد الشموع . يأمر بتفريق الترنج والنارنج والليمون وأطنان القصب والسمك ـ برسم مقررة ـ لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام . يطلق الأعطيات والهبات من الدنانير والدراهم وأنواع الثياب ..

لم تقتصر عقوبات القتل والسجن والإبعاد على ملة بعينها . شدد الإمام رقابته ـ بواسطة خاصته ـ على كل الموظفين ـ لا قيمة لعلو المكانة أو انخفاضها . طالب ببيانات لما فى حوزتهم من أموال وممتلكات ، مالا يثبت سلامة مأتاه ، صودر ، وجرى التحقيق بشأنه ..

حدد العقوبات لكل تصرف . لم يفرق سيفه بين عنق مسلم وعنق نصرانى . من يخالف الأوامر والنواهى اعتبر خارجاً على دين الإسلام ، يقام عليه الحد ، يحرم من حقوق المسلم ، يحرم حتى من الصلاة عليه ، والدفن فى مقابر المسلمين ..

ذكره الراهب " بمين " ـ وكان قد اصطفاه صديقاً ـ بأنه لم يصدر من نفسه سجل هدم كنيسة القيامة ، وغيرها من الكنائس ، ومضايقة النصارى . لم يكن السجل وليد ذاته ولا عن هوى . صدق الإمام ما حاول الراهب النصرانى يونس أن ينال به من البطريرك " زخاريا " لأنه لم يرسمه أسقفاً . اتهم البطريرك بالحياة المترفة ، والإقبال على مظاهر الجاه والثراء ، وتحقيق الأرزاق والثروات الهائلة . نسب إليه الكثير من الوقائع المختلقة ، وقال فى رقعته : " أنت ملك الأرض ، لكن للنصارى ملكاً لا يعبأ بك كثرة ما قد اكتنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع الأسقفية " ..

ذكرت مكاتبات والى القدس ما أهمله نصارى كنيسة القيامة . أطلقوا ـ فى أثناء الصلاة ـ وهم يرددون : " كيرياليسون Kyrie Elison ناراً مضمرة ، ذات عطر خاص . قالوا إنها نور ينزل من السماء ، فشغلوا المسلمين عن حقيقة دينهم ..

اشتد غضب أمير المؤمنين على أهل الذمة . اتخذ من الأوامر ما لم تعرفه البلاد من قبل . ألغى أعياد الصليب والغطاس والشهيد وغيرها من أعياد الأقباط ، وأبطل رسومها واحتفالاتها ، وألغى جميع الأحباس الموقوفة على الكنائس والأديرة ، وضمها إلى الديوان السلطانى . حظر زيارة النصارى لبيت المقدس ، وهدم كنيسة القيامة ، وخرب كنائس مصر والمقس ، وأباحها للنهب ، وصدر سجل بهدم دير القصير بالمقطم ، وإخراج كل من فيه من رهبان ، ونبش قبور الموتى . زاد العمال فنهبوا جميع ما فيه ، وأمر بهدم الكثير من الأديرة والكنائس . استولى عمال الإمام على ما فيها من أموال وذخائر وآنية من الذهب والفضة والديباج . صودرت أملاك الأديرة والكنائس من الضياع والمزارع والقياسر والحمامات والدكاكين والنخيل والحدائق والشجر المثمر . بنى موضع بعض الكنائس مساجد ، وشجع المسلمين على

السكني في بيوت الرهبان . صدرت سجلات بإقطاع الكثير من الأديرة والكنائس لمن التمسها ، ومنع النصارى من تزيين الكنائس ، وحرق الكثير من الصلبان على أبواب الجوامع ، وفي دار الشرطة . حظر ضرب النواقيس، ونزع الصلبان الظاهرة في أبراج الكنائس ، ومحو الصليب من الأيدي والسواعد ، وتمييز الأقباط بعلامات خاصة ، سميت الغيار ، وأن يرتدوا الزنانير الملونة ، وإن مال أغلبها إلى السواد ، ويضعوا العمائم السود على الرءوس ، ويضعوا التلفيعات السوداء كذلك ، ويعلقوا الصلبان الثقيلة على الصدور . ، يبلغ طول الصليب ذراعاً ونصفاً ، وزنته خمسة أرطال ، ويختم بالرصاص ، ومنع النصارى من تقديم النبيذ في القداس ، واستبدال الماء به ، على أن ينقع فيه زبيب أو عود الكرم ، وحظر على النصارى واليهود تعليم القرآن لأطفالهم ، ومنعهم من أداء الشعائر الدينية علناً ، وصدر سجل بإقصاء كل اليهود في حارة زويلة ، وهدم معابدهم ، وألزمهم بأن يرتدوا الزنار ، ويحملوا الخشب الثقيل دلالة رأس العجل ، ثم أمر بعدم شغلهم المناصب الإدارية الحكومية ، ومنعهم من إرخاء الذوائب وركوب البغلات ، ولبس الطيالسة ، وشدد بألا يجوزوا على الجوامع وهم ركوب ، إنما عليهم الترجل ، وتؤخذ الجزية منهم وهو وقوف تحت مصاطب ، ومنعهم من التكني بأبي الطاهر وأبي الحسن وأبي الحسين ، ومنع الأساقفة المصريين من السفر إلى النوبة أو الحبشة ، وحظر عليهم مكاتبة ملوك البلدين . جعل أهل البلاد من المسلمين من أوامر الحضرة مثلاً يحتذى . أقدموا على أمور فظيعة لم تشهدها البلاد من قبل . بلغ الأمر حد دخولهم أديرة النصارى ومقابرهم ، وأخذ توابيت الموتى ، وإحراق ما بها من كتب ..

أنكر أمير المؤمنين أفعال الناس ـ لما أبلغه أرصاده ـ وأمرهم بالكف عنها. تنبه إلى أفاعيل الوزراء والكتاب من الوشايات ومحاولات الدس

والوقيعة ، فألغى كل ما صدر ضد النصارى من سجلات ، وقرىء سجل فى الجوامع والأسواق ، يطمئن أهل الذمة على حياتهم وأمنهم : " هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على ، الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين ، لجماعة النصارى بمصر : عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى هالهم فأقلقهم ، واستذراعهم بظل الدولة، وتحرمهم بحضور الحضرة ، بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتضفى عليهم ملابس السكون والدعة ، وإجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلّد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ، فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلعم وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام الله عليهم ؛ هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أماناً صريحاً ثابتاً ، وعقداً صحيحاً باقياً ، فثقوا به واسكنوا إليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول إليكم بمضرة يد إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم إنكاره مضيقاً فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدونه من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومد له وسيلة الثواء فى كنف دولته ، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانه لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيداً ، وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم إن شاء الله . كتب فى شعبان إحدى عشر وأربعمائة " ..

- ١٣ -

كيف يطلب الثناء ، والناس يعانون ظلم وزرائه ؟..

قال الحضرة :

- ما عمل المحتسب ؟

قال المحتسب وليد خلدون :

- عملي - بإذنكم - هو الإشراف على الأسواق ومراجعة الأسعار والمكاييل والموازين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

- عظيم .. كيف إذن تؤدى عملك ؟

فى لهوجة :

- كما يقضى الشرع ..

- رُفعت إلينا رقاع بأنك تخلط بين أمورك الخاصة وأمور الناس ..

وواجهه بالسؤال :

- ماذا فعلت فى الخباز ياسر الحبيشى ؟

قاوم المحتسب ارتباكه :

- وجدت موازينه باخسة فعاقبته ..

النظرة الثابتة ، النافذة ، التى اتجه بها إليه ، سرت بالرعشة فى جسده . غامت المرئيات ، وتماوجت ، واهتزت من حوله ، وعانى ما لا قبل له على احتماله ..

- هل هذا هو كل ما جرى ؟

وهو يغالب الارتباك :

- فليسامحنى مولاى على ضعف ذاكرتى .. ربما حمله الجند مقلوباً على ظهر حمار

- ما حدث لأنه بخس الموازين ، أم لأنك أردت ابتزازه بالبرطيل ؟

ارتج على المحتسب :

- هو الذى ...

قاطعه أمير المؤمنين :

- أنت لا تؤدى وظيفتك بما يأمر الله ..

وأشار إلى الخدم :

- اقطعوا ذراعيه حتى لا يأخذ ما ليس من حقه ..

استبد الوزراء والأمراء بالأمر . تحولت ساحات القصور وأبهاؤها وأقبيتها إلى مأوى للسفلة والمجرمين . ضج الناس من قسوة وسائل جباية المكوس والخراج ، ومن الضرائب الفادحة على الباعة وأهل الأسواق - الهواء، وحده ، هو الذى أعفى من الضريبة - ومن الرشاوى والبرطيل والمغارم الفادحة ، ومن الاعتداء على الفلاحين ، ومصادرات الكتاب والتجار وأرباب الأموال . استشرفت الصدور أفعال الخليفة الحاكم بأمر الله ، وتطلعت إليه العيون ..

نقلت إليه الأعين قول الشيخ مصابيح : هذا رجل أفسده وزراؤه .. فلما أدرك كان الأوان قد فات . وقال الشيخ : لم يعد إلا الهواء بلا ضريبة !. وقال : نحن أغلبية لا تملك أى شيء .. وهم أقلية تحظى بكل شيء !. وقال : لو أنهم ذكروا له معايبه ، قد يرجع عن كثير مما هو فيه ..

كان الزوزنى قد دس على مجلس الشيخ مصابيح من يدعى التلمذة على يديه . ينقل كل ما يستمع إليه من الشيخ إلى الزوزنى . حتى العبارات التى تبدو بلا معنى ..

أرجع الإمام كثرة الخراب فى المملكة ، إلى قلة المبالاة ، والتغافل عن مصالح الناس ، واستلاب ما يملكونه ، وميل الوزراء والأمراء والكتبة إلى التنابذ والتخاذل وإنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد ، والإفراط فى الحياة المرفهة ، وإهمال أمور الناس . راعه ما يسود الإدارة من تفكك ، وما يسيطر على القضاء من برطيل ورشوة وفساد ، وما يقدم عليه كبار الموظفين من إباحة المصادرات ونهب الأموال والأرزاق ، واغتصاب أموال اليتامى والأوقاف . استولوا على المملكة ، واستبدوا بالأمر ، وتجاوزوا الحد فى الانفراد بالأمر والنهى ، واستلاب ما هو حق الناس ..

جعل بقاء الوالى والقاضى والمحتسب وغيرهم من كبار موظفيه لأوقات محددة ، يعتزلون بعدها وظائفهم ، كى لا يدفعهم دوام الحال إلى إلحاق الأذى بالناس ، ومصادرة أموالهم وما يملكون ..

لم تقتصر المصادرات على أموال رجال الدولة وحدهم . امتدت المصادرات فشملت الأملاك العقارية لوالد الموظف وأخته وزوجه وعماته وحالاته وخواصه من النساء ..

اعتقل - كما ذكر الرواة - أقارب الكثيرين من الوزراء والأمراء والكتبة . استولى على ما فى قصورهم من أموال ومقتنيات وتحف ، ووزع على العوام غالبيتها ، وفتح لهم أبواب قصور الكتبة وكبار الموظفين ، وأسكنهم فيها . أخذوا ما يملكون بالتحايل والغصب ، وعليهم أن يعيدوه إلى أصحابه ..

قُرئ سجل بأن كل من قبض منه شئ من العقار أو الأملاك بغير حق ، أو صودر منه فى أيامه ، أو أيام أبيه ، أن يعاد إليه . وهب الكثير من ضياعه وأعماله وعقاراته وأملاكه لمن التمسها منه . طالب كتاب الدواوين بحساب ما يتولونه . أثبت الأرقام والوقائع إقدامهم على السرقة ..

أمر ، فقطعت أيدى البعض بالساطور من وسط الذراع ، وعلق البعض

فى الطريق ، حتى أدرك الموت غالبيتهم ، وأخذ كل الأموال التى أقدموا على سرقتها ، وثمة من شده الجند بحبال ، وقرضوا لحم جسده بالمقارض ، حتى لفظ أنفاسه ..

قال الرواة إن أمير المؤمنين حذر الكاتب صخر فودة مما أبلغه به الأرصاد من أنه يسقى خيله الخمر بدلاً من الماء :

ـ سأعاقبك على فعلين .. اقتناء الخمر وسقيها للخيل ..

أدرك الكاتب مصيره ، فانتحر . امتص فص خاتم فى داخله السم ، كان أعده لمثل هذه المصيبة ..

القاضى مازن عتيبة أوكل إلى نفسه أداء الأمور ، يصرفها دون أن يعبأ برأى ولا ملاحظة . أصدر من الفتاوى والأحكام ما يوافق مزاجه ، وما يحرضه على اتخاذ تقدمات الرشاوى والبرطيل . تطلع إلى ما فى أيدى الناس من أموال . تتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان . أصر القاضى أن يحتفظ بما استولى عليه بغير حق . ألزم المتقاضين ، فحملوا إليه ـ فى أعقاب مواسم الحصاد ـ الجياد والخراف وأجولة القمح والذرة والدقيق وسلال الفاكهة والبيض والتوابل . أباح لعبيده النزول فى الدور والخانات ، ونهب ما تصل إليه أيديهم . تعددت زيجاته ، وكثرت طلاقاته ، وعرف عنه كثرة التردد على أسواق المقيدين والنخاسين وباعة الرقيق ، وحضور مجالس الغناء والسمر واللهو والمجانة ..

ضاق الناس بأفعاله ، وبسطوا ألسنتهم فيه . يئسوا من إنصافه ، وتمنوا الراحة منه . ارتفعت استغاثاتهم حتى بلغت القصور الفاطمية ، ونفذت من أسوارها ..

تعرف الإمام إلى جذور المشكلات ، وبداياتها ، حتى أثمرت ما عاناه الناس من مظالم القاضى ..

أمر الإمام ، فأوقف الجند القاضى فى مكانه لا يتحرك . تناوب الجند فى ملازمته ، فهو لا يجلس ولا يتحرك . وكلما عرته هزّة ضرب رأسه ، أو صفع على وجهه ، زاد عليه الاحتباس والألم ، فبال تحت قدميه . ثم وضع ذراعه ـ حتى الساعد ـ فى الماء المغلى ، فلا يعود إلى طلب الرشوة ..

قال أمير المؤمنين للقاضى حسين بن النعمان :

ـ المواريث والأوقاف من مهام وظيفتك ..

رنا إليه بنظرة متذللة :

ـ بأمر مولاى ..

أطرق رأسه كالمتأمل ، ثم رفع رأسه :

ـ الورثة يشكون من أنك تأكل حقوقهم ..

وهو يتقى بيديه خطراً مجهولاً :

ـ يعلم الله أنه لا يدخل إلى بيتى درهم حرام ..

ـ أوشك أن أخصص موظفاً لتسلم رقاع الشكوى من أفعالك ..

ثم وهو يتجه إليه بعينيه الثاقبتين ، الثابتتى النظرة :

ـ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً ..

وكز على أسنانه :

ـ سأذيقك عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ..

أشار إلى الجند :

ـ خذوه إلى بقعة الدم .. واحرقوا جسده بعد إعدامه ..

أشد ما أثار غضب أمير المؤمنين ، ما فعله المحتسب عبد المنعم الفران

تصرف فى الأموال والخزائن . كاد يأخذ لنفسه خزانة الدولة ، وتوقفت تجارة القوافل ، وكسدت الأسواق ، وفرغت المحال من البضائع . أمر ـ بتأثير إفلاس الخزانة ـ فسرح قائد الجيش مئات من أعوانه . نسى الناس رفاغة العيش ، وطيب الحياة ، وطمأنينة النفوس . اعترضوه ، وشكوا إليه انعدام القوت . لم يعبأ بهم ، ولا التفت إليهم . أمر الإمام عماله أن يضيقوا على المحتسب لأنه صادر أموالاً ليست من حقه . طين عليه الجند فى حجرة بحديقة بيته . سدوا الباب إلا من ثقب يأذن بالتنفس والطعام ..

فلما بلغه أن خدم والى بلبيس استولوا على غلال الفلاحين ، واستولوا على ما يملكون من الخيل والجمال والأبقار والغنم . سلبوا حتى النساء مصاغهن ، والنفيس مما يملكن . أمر ، فصادر مخصصات الوالى ، وسيق الوالى والخدم إلى بقعة الدم . جعل الجند جسده بين ثلاثة رماح . شد عليها ، ودارت على نار هادئة دون أن تلامسه . لم يهدأ صراخه إلا بعد أن انفجر الجسد . أخرجه الجند من بين الرماح ، وعلقوه فى شجرة لتأكله الطيور .

خلف الوالى ما لا يحصى من الملابس ، والأدوات ، والطيب ، والأسفاط ، والتخوت ، وصناديق المال ، والبغال ، والحمير المحملة ، والخيل عليها السروج بالذهب والفضة ، ورصعت بالجواهر ..

أما لماذا أصدر الإمام حكمه بإعدام والى دمياط ، فلأنه لم يحسن الدفاع عن نفسه حين وقف بين يدى الإمام تاجر من الفسطاط . شرح دعواه ، فإذا هى تحمل إدانة للوالى ، وأنه استولى بغير حق على أرض يملكها التاجر . شدد الإمام الحكم حتى يصبح الوالى عبرة للولاة الآخرين . حشا الجند الثقوب فى جسده ، ما عدا الدبر . أدخل فيه منفاخاً ، وظل ينفخ حتى تورمت سائر الأعضاء ، وبرزت العينان حتى كادتا تخرجان من محجريهما ..

كثر سمل العيون ، وقطع الأنوف والآذان . من يقتله التعذيب ـ قبل أن يساق إلى بقعة الدم ـ فإن حكم الإعدام ينفذ فى أكبر أبنائه ..

بث الأعين والأرصاد ، فى كل جهة ومكان ، داخل مصر الفسطاط والقاهرة ، وداخل المدن والقرى ، يتقصون الأحوال ، ويجمعون الأخبار ، واستعان بهم حتى فى الأطراف النائية . يرفعون إليه الرقاع بما يرونه ، ويستمعون إليه ، ويشكون فى أمره ، أو يطالبون بتغييره ..

أذن لعيونه أن يتصلوا به فى أى وقت ، إذا فرضت الظروف ما يستدعى الإبلاغ ، أو طلب المشورة . وأذن لأصحاب الدواوين بالدخول إلى حضرته ، يعرضون عليه ما يواجهونه من مشكلات الناس ، ويأمر بما يجب اتخاذه ..

جعل للمتظلمين مكاناً عرف بالسقيفة . عند أحد أبواب قصر الذهب . يقول المتظلم ـ بصوت عال ـ وهو فى موضعه تحت السقف : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله .. على ولى الله . يأمر الإمام بإحضاره ، ويفصل فى شكواه . وكان يطيل الوقوف فى موكبه لكى يأخذ رقاع التظلم من الواقفين فى الطوابير ، ويشغلهم الوصول إلى عدله . ربما أخذ الرقاع وهو فى موضع الخطيب على المنبر . من يجد أنه يستحق حاجته ، يطلب منه أن يعود إلى لقائه فى الموضع ذاته ، وفى الموعد الذى يحدده . يحمل فى كمه لأصحاب الحوائج ـ فى الجولات التالية ـ ما التمسوه من مال أو سجل أو توقيع . إذا ضاق به الوقت حول الرقاع إلى قاضى المظالم ، وتابعها . لا تصبح الأحكام سارية إلا إذا تلقاها ديوان الإنشاء ، فيوقع عليها بختم الحضرة ، أو علامته " بنصر الله العظيم الولى ، ينتصر الإمام على " . فإذا اختلف القضاة فى مسألة فقهية تتصل بأمور الدين والدنيا ، ردوها إلى الحضرة ..

علم أن الكاتب أبا القاسم بن أحمد الجرجرائى فض ختم رقعة تطعن فى رئيس الشرطة . قطع الجرجرائى موضع الطعن ، ثم أصلح الرقعة ، وأعاد

ختمها . أمر الإمام بقطع يدى الجرجرائى ، وقطع يد رئيس الشرطة ، وقطع لسانه ..

حين اعتلت صحته ، اتخذ له محفة يجلس فيها ، ويحملها أربعة رجال ، ينزلون إلى الأسواق . ينصت إلى شكاوى الناس ، يتلقى رقاعهم ، يصدر الأوامر التى تقسو بقدر جسامة الجرم . خصص لنفسه مجلس حكم رتبه على أوقات محددة ، معلومة ، وحفه بالهيبة والوقار . يحضره المتصدرون والعلماء والقضاة والفقهاء والقراء والوعاظ والشعراء وأهل الكلام والجدل ، ومن يريد من الخاص والعام . يطلق فى مجلسه ـ للقراء والفقراء ـ ما هو مخصص لهم . ربما ركب جواده ، أو محفته . يتجه إلى دار أحد خدمه ، يهنئه بمناسبة سعيدة ، أو يواسيه فى مناسبة حزينة . يهبه ـ فى كل الأحوال ـ عطايا كثيرة .

أمر ، فأدخل إليه كل من حمل مظلمة ، يستمع إليه ، ويعطيه انتباهه ، ويراعى شروط العدل . لا يأنف من مقابلة العامة ، ولا ذوى الحاجات . إذا جلس إلى القضاء ، واربد وجه المتهم ، أو علاه الشحوب ، فهو مذنب يخشى افتضاح أمره ، ولابد أن يمثل تحت سيف المشاعلى . أما إذا استراب فى شهادة أحد المتقاضين ، فهو يستحلفه بالقرآن الكريم . إن ثبت كذبه ، جاز عليه عقاب من يكذب على الله ، فهو يأمر بصلبه ، أو تسميره . ربما أمر باقتياده إلى الجامع العتيق ، ودفعه للسير بين عمودين ، بالتحديد فى جامع الجانب . إذا لجأ إلى الكذب فى الرد على الأسئلة التى توجه إليه ، فإن العمودين ينطبقان عليه ، فتزهق روحه . وربما نوع عليه التعذيب . يضربه المشاعلى بالسوط على ظهره ، وبالعصا على يديه وقدميه ، ويقيده على عمود حديدى فى وهج الشمس . وراقب بنفسه سلخ الخادم عبد الوهاب البدرشينى ، وحشوه بالتبن ، ثم حمله على حمار ، وإلقائه فى النيل . كانت سيرته قد ساءت بين الناس ، وحصل لهم منه شدائد وأفعال ضارة ..

لم يكن يأخذ زوجة بذنب زوجها ، ولا قرية بما فعلته القرى المجاورة ، ولا أصحاب مهنة بما أقدم عليه أحدهم من غش أو تدليس ، وإن حرص على تنفيذ الإعدام فى ابن من مات عائلهم قبل أن يلقى جزاءه ..

وضع فى صدر القاعة تمثالاً سماه أبو الهول ، بداخله رجل . يأذن الإمام للشاكين أن يمثلوا بحضرته ، ويصفوا ما فقدوه من مال أو متاع . ينطق أبو الهول بأسماء اللصوص . بث الأعين فى القصور والجوامع والطرق والأسواق ..

زاد فى العدل ، فلم تبق فى البلاد مظلمة . محا المظالم بالكلية ، وبسط الحق ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن . سحق كل سعاية وغرض، وقمع الفساد بقسوة بلغت حد القتل ..

تعثر فى طريقه إلى العدل بتأثيرات النشأة ، ودسائس الوزراء وفسادهم . اضطرب بين رغبة العدل والأحكام القاسية : النسك وإيذاء الخلق ، رفض الدعاوى الباطلة وإملاء البدع التى لا أصل لها ، ولا تصدر عن عقل ..

ـ ١٤ ـ

حين نظر الحسين بن دواس زعيم كتامة ـ فى توجس ـ إلى خيرات الواقفة على باب القاعة ، شوحت ست الملك بأصابعها :

ـ هذه خيرات .. لا تعتبرها هنا ..

اتجهت إليه بنظرة متوددة :

ـ أعرف أن الخليفة مال على كتامة وسلب نفوذها ..

وأحكمت الشال على رأسها :

ـ جاوزت الأمور ميله على كتامة .. تحول كل شئ إلى فوضى كاملة ..

وقالت من بين أسنانها :

ـ لابد من وضع حد لتصرفات الخليفة ..

وواجهته في هيئة من اتخذ قراراً :

ـ لا بأس لو تولى أبا الحسن مكان أبيه ..

أدركت ست الملك بواعث نقمة ابن دواس على أبى على منصور . فاجأه الإمام ـ وفاجأ الجميع ـ بسجل يجعل ابن عمه أبا القاسم عبد الرحيم بن إلياس بن على بن المهدى ولى عهد المسلمين فى حياة أمير المؤمنين ، والخليفة بعد وفاته . دعا الناس ـ على اختلافهم ـ إلى القصر . قدموا ، يسبقهم الفضول ..

قرئ عليهم سجل بأن أبا القاسم عبد الرحيم بن إلياس بن أبى على المهدى بالله أبى محمد عبيد الله ، قد جعله أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ولى عهد المسلمين فى حياته ، والخليفة بعد وفاته ، ودعا الناس لأن يخاطبوه فى السلام : السلام على ابن عم أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، وقرىء السجل فى منابر الجوامع والمساجد الكبرى فى مصر والإسكندرية ، وفى جامع القيروان بإفريقية ، وغيره . ودعا الإمام بنفسه فى الجامع العتيق وجوامع الأزهر والأنور لمن اختاره ولياً للعهد : اللهم استجب منى فى ابن عمى ، وولى عهدى ، والخليفة من بعدى عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدى بالله أمير المؤمنين ، كما استجبت من موسى فى أخيه هارون " . وأصعد الإمام ابن عمه عبد الرحيم معه المنبر ، ودعا له . أفرد له مكاناً فى القصر ، وكتب اسمه فى البنود والسكة والطراز ، وبسك نقود باسمه ، وأن تعد له دار الطراز بيارق وألوية وملابس خاصة ، وعهد إليه ـ فى أيام طوافه ـ بالنظر فى أمور الدولة ، وبأن تحال إليه الرقاع التى يتسلمها من الناس فى لقاءاتهم به ، ومنحه الحق فى أن يعفو عن المخطئين ، وأشركه فى مواكبه ،

وقرئ سجل بأن كل من كانت له مظلمة ، يرفعها إلى ولى العهد . وتلقى عبد الرحيم بن إلياس الرقاع فوقع عليها بأوامر إلى كبار الموظفين . وأمر ، فنوه به الخطباء على المنابر فى خطبة رمضان ، وتنازل له عن كل ما يصح انتسابه إلى العز والبذخ . ثم أرسله نائباً له على دمشق ..

قال ابن دواس يتحسس الوقع فى عينى ست الملك :

ـ لولا أن الإمام لا يُعْترض عليه فى تدبير ، لكاتبته ألا يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بنى عمه ..

ـ لكن الإمام صرف الأمر إلى بنى عمه بالفعل ..

قال الرواة إن ابن دواس أعلن انتقاده لتصرف الإمام . أغضبه أن الإمام له ولد فى التاسعة من عمره ، هو أبو الحسن على . احتضنت ست الملك الصغير أبا الحسن ، حتى لا يبطش به أبوه فى واحدة من فوراته ، أو ينقل إليه تغيّر نفسه ، وتقلبها ..

هل رفع عنه ولاية العهد ، لأن راعيته هى ست الملك ؟!

ـ ١٥ ـ

## الجمعة اليتيمة ..

استعد الناس لأداء صلاتها فى الجامع العتيق . جعلوا الزينات من باب النصر بالنحاسين إلى جامع ابن طولون ، ومن جامع ابن طولون إلى الجامع العتيق . وأهدى الحضرة إلى الجامع ثريا من الفضة ، هى أقرب إلى التحفة النادرة المثال ..

سعى الإمام ـ مع الآلاف من المصلين ـ إلى الجامع العتيق ، لصلاة الجمعة اليتيمة . يثق ـ مثل ثقة الآلاف ـ أن الجامع ـ إن حل يوم القيامة ـ

وهو ما يتوقع أغلب حدوثه فى يوم الجمعة اليتيمة - سيطير بمصليه إلى الجنة . كان أول من صلى فى الجامع العتيق من الخلفاء الفاطميين ..

اعتلى حمزة الزوزنى المنبر وخطب فى المصلين :

- اللهم صل على محمد النبى المصطفى ، وعلى عليّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سِبْطى الرسول ، الذين آذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً . اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، الهادين المهديين ..

قال الرواة : لم يجاهر حمزة الزوزنى بدعوته إلا بعد أن اطمآن إلى غياب أنوشتكين . اختفى أنوشتكين ، فلم يعد أمام الزوزنى من يناوئه . جعل من مسجد " تبر " بالمطرية مقراً سرياً ، يلتقى فيه بأعوانه ، ويلقّنهم مفردات دعوته . ضاق المسجد بالغلاة من الشيعة الإسلامية ..

لم يكن اختيار الزوزنى لمسجد تبر اعتباطاً ولا مصادفة . المطرية ضاحية بعيدة عن مصر والقاهرة . يصعب على الأعين المتابعة ، وعلى الآذان التنصت ..

تحدث عن التناسخ فى الأديان والشرائع ، وعن الحلول . قال إن الإمام ليس بشراً ، لكنه رمز حل فيه الإله . وقال إن الحضرة قد ظهرت له - عليه السلام - فضائل ودلائل لا يصنعها البشر ، ومعجزات بهرت العقول ، وخوارق وآيات ، لم يسمع بمثلها ، وتبهر العقول . فهو يمسح بيده على رءوس المرضى ، فيبرءون بإذن الله ، ويغيب عن الحضور بجسمه ، ويعود ، فيعلمون أنه قد مضى فى رحاب الله إلى البيت الحرام ، وقبر الرسول ، وهو ينظر بنور العرش العظيم ، فيطلعه الله - الذى يحكم بأمره - على ما يسأله أن يطلعه عليه . وقال إن الإمام يعلم الغيب . يعلم ما غاب عن الخلق سواه من العلوم ، وينظر بنور الله - جل وعلا - ويطلع على ما لا يطلع الله أنبياءه

عليه . فهو يمده بتوفيقه ، ويهديه بهدايته ، ويطلعه على ما سأله أن يطلعه عليه ، بلطف تدبيره وحكمته . وقال إن الإمام هو نائب الله في الأرض . له حق الطاعة على الناس ، ولا يُسْأل إلاّ أمام الله . ودعا الخلق إلى عبادة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله . هو الحاكم بأمر نفسه . ومهر بتوقيعه سجلاً يقضي بأن يقوم الناس ، ويسجدوا في الأسواق ، وفي مواضع الاجتماع ، إذا جاءت سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، وصدرت سجلات تأمر العمال بسب الصحابة ، وسب الشيخين بخاصة ، وكتابة السب على أبواب المساجد والدور ، وعلى الجدران ..

روى أعوان الزوزني أن الخضر ظهر لأمير المؤمنين في المنام . سقاه من ماء الخلود ، فلا يؤثر في حياته انقضاء أعوام . خلع الزوزني على الحاكم لقب " قائم الزمان " ، ولقّب نفسه بهادي المستجيبين . بث دعاته في مصر والشام . رخص في أحكام الشريعة بما كان يؤخذ الناس به إلى بقعة الدم . أباح نكاح المحارم ، وأسقط التكاليف في الصلاة والصوم وسائر الفروض..

قال الرواة إن الموت الذي انتهت إليه ثورة أبي ركوة كانت دافعاً لإعلان الزوزني ما ظل حريصاً على كتمه . سمي الرجل أبا ركوة لأنه كان يحمل ركوة ماء لوضوئه ، كالمتصوفة ..

لم يقتحم اليأس نفس أبي ركوة على إيمان الناس بالخليفة الحاكم بأمر الله . لم ينتظر حتى يعي الناس الحقيقة . أعلن أنه إذا كان الخليفة حاكماً بأمر الله ، فهو ثائر أيضاً بأمر الله !. بدأ حركته في برقة ، واستولى على العديد من مدنها . قدم إلى مصر على رأس قوات تحقق لها الانتصار في الغرب ، لكنها لقيت الهزيمة في موقعة دامية بصحراء الهرم . قتل الآلاف من جنده ، وتفرقت القبائل المنضمة إليه ، وأعلنت التوبة . فر أبو ركوة إلى النوبة . تعقبته قوات أمير المؤمنين حتى ألقت القبض عليه . أعيد إلى القاهرة ، فشهر به على جمل ، وعلى رأسه طرطور طويل ، وخلفه قرد ،

وبيده درة ، وحينما أنزل من على الجمل كان قد فارق الحياة . أفتى شيخ جامع الأنور أن أبا ركوة لقى ربه على غير دين ولا شريعة ..

## ـ ١٦ ـ

قالت ست الملك :

ـ يا بنى .. أنت صغير ، لكنك ذكى ..

كان فى حوالى العاشرة . وجهه أميل إلى السمرة . شعره منكوش ، ينسدل على جبهته وقفاه . عيناه واسعتان ، تطلان بالدهشة على كل ما حولهما ، ولا تتوقفان عن التلفت ، ملتمعتان بما يشبه الدمع . علتا وجهاً ناحلاً . يرتدى صدرية من الجوخ البنى ، فوق قفطان من الشاهى الأبيض ، ذى خطوط السوداء ..

أومأ لها حتى تواصل حديثها :

ـ يريد أبوك أن يحرمك من ولاية العهد ..

وهى تمرر أصابعها على جبهته :

ـ أزمع أن يعهد بولاية العهد إلى ابن عمه عبد الرحيم إلياس ..

نطقت عينا الصبى بالحيرة :

ـ لكننى لم أغضب أبى ..

شردت فى عالم بلا أفق :

ـ ليس مطلوباً من أحد أن يغضب أباك حتى يؤذيه ..

أطرق فى صمت ، ثم رفع رأسه :

ـ لا أريد ولاية العهد يا عمتى ..

زمت شفتيها المرتجفتين كمن تغالب البكاء :

ـ هذه قضية لا تخضع لمزاجنا ..

ثم وهى تجهش فى البكاء :

ـ إنه حكم آبائنا الذى ضيعت عمرى فى الحفاظ عليه ..

أضافت :

ـ أنت الآن مسئولية عمتك قبل أن تتولى مسئولية الحكم !

ـ ١٧ ـ

قال حمزة الزوزنى :

ـ يغفر العوام كل شئ إلاّ المساس بالذات الإلهية ..

همس ماجد التكرورى بالدهشة :

ـ وهل فعل السلطان ذلك ؟..

سرت فى صوت الزوزنى رنة تهكم :

ـ ألم يكرر رغبته فى التسامى عن ضعف البشر ؟

قال التكرورى :

ـ نضيف إليها رغبته فى التشبه بالذات الإلهية ..

قال الزوزنى :

ـ تشويه الصورة هو المطلوب وليس تدميرها .. إذا قوّضنا الصورة تماماً فلن يكون هياج العوام مفاجئاً !

وبرقت عيناه بنشوة غامضة :

ـ إذا اعتزمت الفعل فتدبّر رد الفعل ..

حاول الزوزنى أن يفيد من ولع الإمام بالظلمة والغموض والأسرار . يلامس مواطن الضعف فى نفسه ، يستغلها ، ويعمّقها ، ويضيف إليها . يبذر فى ذهنه ـ المهيأ للإثمار ـ ما يقنعه بالحلول والربوبية . سماه " قائم الزمان " و " ناطق الضعفاء " . ولقب نفسه " هادى المستجيبين " . اتخذ الكثير من الأعوان . خصص لهم ما لا يعرفه سواهم من الكتابة والتستر والاستعارة والألقاب ..

كان الخدم يعودون بالطعام من جناح الإمام ، دون أن يمس . ربما اكتفى بلقيمات تسد الرمق ، يخلو بعدها إلى تأملاته ، وإلى كتبه وأوراقه . امتدادات الأفق لا تشغله بالنظر فيما يصرفه عن التأمل ، أو يجوس فى الظلمة يرجو الإلهام السماوى ، وينشد ردود الأسئلة ، أو يحاور كائنات ـ يراها وحده ـ بصوت عال . يشد انتباه الجوارى والخدم بضحكات عالية ، قال إنها استجابة لدعابات من كائنات لا يراها سواه . وقال : هؤلاء أهل الخفاء ، سيرافقوننى إلى آخر العمر !. وقال : الخفاء هو الموضع الوحيد الذى يجب أن أخلو لنفسى فيه ..

آثر المسكنة ، ومال إلى الزهد فى الدنيا وقمع شهوات النفس والتجرد والمجاهدة . حرص على التمسك بأحكام الدين ، وأداء الفرائض كاملة . قنع من الحياة بأخشن لبس ، وأبسط طعام ، وتعفف عن المال . كان يرتدى ملابس الكتان والقطن والصوف ، ويحيط رأسه بعمامة زرقاء ، ويدس قدميه فى مركب حديدى ، ويخدم نفسه بنفسه ، ويسرج قناديل الجامع ، ويعنى بنظافته ، ويكنس أرضيته ، كأنه لم يلبس شعار السلطنة ، ولا جلس على سرير ..

أكثر من الخروج وحيداً ، يرتدى دراعة صوف بيضاء ، وعمامة بيضاء ، لا يرد أحداً من حاملى الرقاع بتظلم ، أو طلب منحة ، ويجزل العطاء ما بين

دور ودراهم وثياب . اكتفى بركوب الحمير ، ورفض كل أنوا ع المواكب ، ربما رآه الناس وهو يمتطي بغلة ، وبين يديه بضعة من الركابية . يبدأ سيره بلا موكب ولا زينة إلى المنزل الذى أقامه فى المقطم . يتجول فى المدينة . يلتقى بالناس فى الأسواق ، وأمام الدور والدكاكين . يستمع إلى الظلامات ، ويتسلم الرقا ع . يفصل فيها ، أو يأمر موظفيه بحلها ، وشدد على سلوك مناهج العدل ، وعلى المساواة فى الأحكام بين الخواص والعامة ..

واظب على الصلاة فى جامع عمرو بن العاص . هو إمام المساجد ، ومطلع الأنوار اللوامع . أضاف إلى الجامع ١٢٩٨ مصحفاً ، بعضها مكتوب بماء الذهب ، وأرسل له نجفة من الفضة وزنها سبعة قناطير ، وقيمتها مائة ألف درهم . وبنى رواقين ومقصورة من الخشب ، ومحراباً منقوشاً ، وعمودين من خشب الصندل . أصدر سجلاً بتحبيس أراض زراعية وقياسر للإنفاق على المارستان ، وأرزاق المستخدمين فيه ، وثمن الأكفان ، وعلى وجوه الخير . أمر بالتوسعة للجوامع والمساجد فى الزيت برسم الوقود ، وأطلق المال للمساجد التى بلا غلة ولا أوقاف أوقفت عليها ، ولا سراة ينفقون لخدمتها ، أو أن إيراداتها لا تفى بما تطلبه من احتياجات . رفع متولى ديوان النظر سجلاً بذلك إلى مقام الحضرة . قدّر أمير المؤمنين لكل مسجد نفقة شهرية . وأمر بتحبيس ضيا ع فى بلبيس وطوخ وإطفيح ومواضع أخرى على فقهاء ومؤذنى وقراء المساجد . وكانت تعتريه نوبات وجد ..

دس الناس له رقاعاً مختومة بالدعاء عليه ، والسب لأسلافه ، وأنهم كفار وفساق وملاحدة وزنادقة وفجار ، سبوا الأنبياء ، وادعوا الألوهية ، وجحدوا الإسلام ، ولعنوا السلف ، وعطلوا الحدود ، وأباحوا الفروج والخمور ، وسفكوا الدماء . قابل ما حدث بذكر نسبه فى كل جمعة ، وهو يخطب على المنبر ، لكن الشائعات ظلت على تهامسها ..

رفض الإمام الظهور بمظهر القدسية ، والارتفاع إلى ما فوق البشر . أعلن توقيره لآيات التوحيد ومبادئه ، وتمسكه بالقرآن وأحكامه ، وتمجيده لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا نبى بعده ..

قال أمير المؤمنين لجلسائه :

- أنا لا أدعى الألوهية .. هذا كفر ترفضه نفسى الضعيفة ..

ورسم على ملامحه المسكنة :

- ما يشغلنى أن أرتفع عن ضعف النفس البشرية ..

ثم علا صوته فى تأثر :

- أريد أن أتخلى عن الخوف والشهوة والتسامى على الخلق وغيرها من الصفات التى تجر على المرء غضب الخالق والخلق ..

تعددت السجلات التى تترحم على السلف من الصحابة ، وتنهى عن مخاصمتهم أو سبهم ، وأصدر سجلاً بمحو ما هو مكتوب على المساجد وأبواب الدور من سب السلف ، ومنع اللعن ، وإعزاز الشيخين والصحابة والعلماء . حظر مخاطبته بألقاب مثل : سيدنا ومولانا ، وأصدر سجلاً ينكر فيه على من يخاطبه - فى المكاتبة - بمولى الخلق أجمعين . أباح دم من يخالف لقب أمير المؤمنين . ذلك هو لقبه الوحيد الذى يرضى به ، ولا يتطلع إلى سواه . طالب الناس بألا يزيد قولهم - حين يمثلون بين يديه - عن : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . ويقتصر ما يكتبون على القول : سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين . ولا يدعو خطباء الجمعة إلا بالقول : اللهم صل على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين وآباء أمير المؤمنين . اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك.

- ١٨ -

قال حمزة الزوزنى :

- لماذا لا يشى غرامه بالسير فى الظلمة - تسبقه دقات الطبول - بأنه يريد أن يكتسب صفات الألوهية .. المهدى المنتظر .. الخفاء والظهور ؟..

فطن أهل القاهرة إلى حيلة الزوزنى ، ومقر دعوته . هاجموا مسجد تبر، وأحرقوا دابته . تكرر نزول غلمان حمزة الزوزنى إلى الأسواق على هيئة المناسر والحرافيش والزعر . توحشوا . وكانوا يخرجون من ثنايا المقطم ، يقطعون الطرق ، ينزلون إلى المدينة . يوقفون المارة ، يسلبونهم نقودهم وما يحملون ، ويعرّضون السابلة للأذى . يبادرون بالاعتداء على من يرفض ، أو يحاول المقاومة . يكبسون الدور والحمامات ، ويقبضون النساء المارات فى الطرق ، وينهبون أموال التجار ، ويفتحون الدكاكين المغلقة ، ويستولون على ما فيها . حتى المصلين فى الجوامع نالهم التهديد بالضرر ، وتخطفوا ما كان يرتديه الناس من الثياب والعمائم ..

ثار الناس لدعوى ألوهية الخليفة الحاكم بأمر الله . أنزلوا الخطباء من المنابر حين علت دعواتهم للخليفة ، وامتنع الكثيرون من الصلاة فى الجوامع. لم يدع أمير المؤمنين ما نسب إليه . إنما جاهر به أتباع حمزة الزوزنى ..

قال القاضى حسن الراعى :

- هل قرأت قصيدة ابن هانئ الأندلسى ؟

قال القاضى عصام الدين قضيب :

- أى قصيدة ؟

- التى يقول مطلعها : ما شئت لا ما شاءت الأقدار .. فاحكم فأنت الواحد القهار ..

- هل هى صوفية ؟

- بل صارت نفاقية .. جعلها المنافقون كذلك !

- الخليفة ؟!

- جعلوه إلها !

قال القاضى الراعى :

- الرجل لم يتصور الألوهية من نفسه ، وإنما زرعها فيه الزوزنى..

قال القاضى قضيب :

- بل هو الله بالفعل .. ألم يعط لنفسه حق إنهاء أرواح البشر ؟!

ونفى القاضى قضيب أن تكون للخليفة فى رقاب المسلمين بيعة ولا عهداً ولا ذمة . جلس على كرسى السلطنة وراثة عن أبيه ، وأبوه ورث الكرسى عن جده ..

قال الرواة إن الحضرة مال - بطرقات الزوزنى وأعوانه على النفس الإنسانية الضعيفة - إلى التأله . رضى عن الذين تصوروا فيه إلهاً . راقه تصرف من إذا لقوه سجدوا أمامه ، وقالوا : السلام عليك يا واحد أحد ، يا محيى يا مميت ..

كان كلما أفاق لنفسه ، وأزمع تسخيف دعوى الألوهية ، زاد الزوزنى من إلحاحه بالنسخ والحلول والألوهية . يصدق ما كذبه من قبل ، ويضفى رعايته على من يشك فى اختلاق رواياتهم . يتزاحمون حول موكبه . يمنّى كل واحد - صدقاً أو تظاهراً - بمشاهدة وجه أمير المؤمنين . يحصل على البركة بمجرد رؤية الإمام له . يسبحون ، ويقبلون الأرض ، ويذكرون اسم الإمام عند قيامهم ..

تفاقم سخط الناس فبلغ ذروته . بات حدوث الانفجار مسألة وقت ..

- ١٩ -

قال الزوزنى :

- عهدى عليكم الستر والتقية وعدم البوح بشىء مما نضمر أو نعد له ..

قال أنوشتكين :

- وعهدنا عليك أن تأتى لنا بتوقيع الإمام ..

حدجه بنظرة مستريبة :

- أنت لا تشكك فى رواية أقولها ، وإنما تشكك فى عقيدتى ..

- هى عقيدتنا لو أنك دعوتنا إلى مقاسمتك الرئاسة ، وفى حصول أتباعى على مناصب فى الدعوة ..

وهو يشيح بوجهه عنه :

- نحن لا نوزع مناصب وزارية .. لكنها دعوة جديدة ، علينا - فى مرحلتها الأولى - أن نضع لها المراتب والحدود ..

- ٢٠ -

دخل جماعة من أصحاب أنوشتكين جامع عمرو ، يركبون خيولاً وبغالاً ، ويجاهرون بما يدعون إليه ..

كشف الدرزى عن أسرار الدعوة الجديدة ، لأنه آيس من أن يعهد إليه الزوزنى بما يرى أنه حق له . هو أجدر من الزوزنى نفسه بالرئاسة والألقاب . مساعد الدرزى حسن بن حيدرة الفرغانى ، الملقب بالأخرم ، ارتقى - واثنان من أعوانه - منصة قاضى القضاة ، بينما الناس ينتظرون مقدمه ..

واصل أعوان الدرزى ـ وسط سخط الناس وهياجهم ـ حديثهم عن ألوهية الحاكم . ثم قدم موكب قاضى القضاة . عرف من الناس ما حدث ..

لما اقترب من مجلسه على المنصة ، قدم إليه أحد أعوان الزوزنى رقعة منه، تأمر بسم الحاكم لله ، الرحمن الرحيم ، أن يعترف بألوهية الحاكم ، ونشر ذلك بين الناس . رفض القاضى ما جاء فى الرقعة ، وطلب أن يعود بالأمر إلى أمير المؤمنين . علت أصوات أتباع الزوزنى بالسب والشتم ، فثار الناس . وثبوا بالرجال الثلاثة ، فتقتلوهم شر قتلة ، ثم مالوا إلى بقية أعوان الزوزنى يقتلونهم فى أماكنهم . من لاذ بالفرار انطلقوا وراءه . قتلوا كل من وصلت إليه أيديهم ، وأشعلوا فى أجسادهم النيران ..

قال الرواة إن الشيخ مصابيح وجد فى ادعاء الألوهية ما يصعب احتماله . جاوز جلسات التبصير بالأحوال ، والتحريض ، إلى دفع مريديه للنزول فى الشوارع ، والتحول إلى الفعل . يطاردون الطغمة الخبيثة التى اجترأت على الذات الإلهية ، وعلى سنة رسوله ، وتبديل ما جاء فى محكم كتابه . حملوا المساوق والشوم والسيوف والعصى والخناجر والفؤوس والبلط وقادوا الثائرين . فتحوا حوانيت التجار فى سوق السلاح ، واستولوا على ما بها من أسلحة . أرشدوهم عن بيوت أعوان أنوشتكين والزوزنى ، والأماكن التى لانوا بها . خيّروهم بين الشهادة بأن الله واحد ، أحد ، وبين مواجهة مصير المرتدين ..

قال متولى الشرطة :

ـ فى أيدينا ما يثبت أن مريدى الشيخ مصابيح وراء تحريض الناس ..

قال أمير المؤمنين :

ـ اقتلوهم !

ثم وهو يمد شفتيه المزمومتين :

ـ دعوا الشيخ الآن ..

تطلع إليه متولى الشرطة بملامح مندهشة :

ـ مولاى .. إنه الرأس المدبرة ..

استطرد الإمام فى لهجة فاهمة :

ـ وهو الطلسم السحرى لفيضان قد يغرق كل شئ ..

وقال فى صوت آمر :

ـ دعوه حتى يأتى أوانه ..

أمر الإمام متولى الشرطة أن يتعقب مثيرى الفتن ، ويستأصل شأفتهم ، ويطهر القاهرة ومصر من كل وجود لهم . أقام متولى الشرطة الخوف فى مصر والقاهرة . رأيه أن الناس لا يقومهم غير السيف والسوط ..

عانى أهل الفسطاط والقاهرة فى أيام الحصار ، فهم يلزمون المساجد والحمامات والأزقة ، ويجلسون فى الطرقات بعيالهم . قيدت كواحل المئات من الرجال بالسلاسل ، تواصلت الحلقات ، فأصبحت سلسلة واحدة ، طويلة . علا صليل الأسلحة ووقع حوافر الجياد ، وخرّبت الدور والمساجد والمشاهد، وسفكت الدماء حتى جرت فى الطرقات ..

أعطى متولى الشرطة جنده الحق فى تعذيب كل من يرفض الاعتراف بجرمه المشهود . لا يشفع لمن قبض عليه بإحداث الشغب والتدمير إلا أن يدل متولى الشرطة على من حرضوه على الخروج ضد أمير المؤمنين . كان يطمئن إلى وجود المشاعلى فى غرفة التحقيق . يدرك السجين مصيره لو أنه لجأ إلى الكذب ، أو ثبتت عليه التهمة ..

عانى الناس فى عالم الأقبية والسلاسل والأصفاد والرصاص المذاب والأجساد المصلوبة . رجف الناجون من الموت بما حدث . رووا ـ فى المدن والقرى البعيدة ـ تفاصيل المذابح وعمليات الإعدام . اقتصرت الشائعات على من أعدموا ، ومن ينتظرون حكم الإعدام . تزاحم الناس على أسوار القصور

الفاطمية ، وفى ميدان بين القصرين ، يناشدون الإمام أن يصدر سجلاً بالعفو ..

تباطأ الإمام فى إصدار السجل بمنع القتل فى الناس ، فيتيح للجند فرصة توسيع مساحات التدمير والتنكيل ..

قال الرواة إن ما أسرف به موظفو الحضرة على الناس من القتل والإيذاء والاعتقال ، لم يحل دون اتساع غضبة الناس ، وإصرارهم على عقاب من حاولوا تأليه البشر . استعادوا معاناة توالى السنين ، ما أخذهم من توالى السجلات المتضاربة ، وأوامر القتل والمصادرة والسجن . بدت الغضبة انفجاراً . دعوى الألوهية سدادة القمقم . انتزعها الزوزنى ، فحدث ما لم يكن يتوقعه أهل مصر . تبين الإمام وموظفوه أن الرمال الناعمة تسربت من الأيدى التى أحكمت قبضاتها . حتى الجند شاطروا الناس سخطهم . إذا كان السلطان قد جعل نفسه إلهاً ، فمن يعبدون ؟

كثر ابتياع الناس للسيوف والخناجر والمدى والسكاكين والبلط وغيرها مما يستخدم فى القتال . حتى الذين لم يكن من عملهم أن يحملوا السلاح ، عنوا بشرائه ، والاحتفاظ له ، وحمله إن جاوزوا أبواب دورهم ..

صاح الناس فى الفسطاط بالنفير ، وتعالت النداءات فوق مآذن الجوامع والمساجد والزوايا . حتى التكبير حتى فوق أسطح البيوت . اقتحموا دور الوزراء والأمراء وكبار الموظفين . نهبوها ، فلم يتركوا فيها شيئاً . هدموا دار أنوشتكين ، ونهبوا ما فيها ، وقتلوا الكثير من أعوانه ..

قيل إن أنوشتكين لجأ إلى القصر الفاطمى ، فطالب الناس بتسليمه . صرفهم متولى الديوان بوعد تسليمه - إن كان على قيد الحياة - فى اليوم التالى ، ثم أعلن قتله ..

مضت الجموع إلى مسجد تبر حيث يمضى الزوزنى وقته . طالعهم المسجد بالخواء والصمت ..

لم تتثبت الروايات ـ مع تناقضها ـ من مصير أنوشتكين ..

قيل إنه قتل في فتنة مصر والقاهرة . وقيل إن الناس انقضوا على أنوشتكين وأتباعه وهم يمضون إلى قصر الإمام . طرف الخيط قتل أربعين من أتباع أنوشتكين ، ثم تواصلت الفتنة في مصر والقاهرة . أغلقت الدكاكين وأبواب البيوت والنوافذ ، وقتل الكثير من أعوان أنوشتكين ، ونهبت دورهم ، وأضرمت فيها النيران . لم يخلفها الناس إلا وهى حطام . وقيل إن أحد عساكر الإمام وثب عليه في لحظات تأخر عن الموكب وصرعه . وقيل إنه أفلح في النجاة بنفسه ، ولجأ إلى قصر الإمام . أبقاه كاتب الدست في القصر ـ دون أن يبلغ أمير المؤمنين ـ دبر له الستر والاختفاء ، حتى هدأت ثورة الناس والجند . أمد أنوشتكين بالمال ، ويسر له الهروب إلى الشام . دعا ـ في وادى التيم بلبنان ـ إلى ما سمى ـ فيما بعد ـ بمذهب الدروز ..

ما اتفقت عليه معظم الروايات أن أمير المؤمنين تبين سوء نية الدرزى فقتله بسيف الموحدين . استعان الإمام بالوزير حمزة بن على ، ليعيد المفتونين بدعوة أنوشتكين إلى طريق التوحيد ، وأن الخالق والمعبود هو الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً هو عبده ورسوله ، وأن القرآن معصوم . أرسل الإمام بهذا المعنى إلى أعوان أنوشتكين وأتباعه ، حيث يقيمون في وادى التيم ..

اختفى أنوشتكين ، فانفرد الزوزنى بالدعوة . مقره السرى مسجد تبر . انتشرت رقاع التهديد فى الفسطاط والقاهرة . تنذر من يتجاهل دعوى الألوهية ، أو يعارضها ، أو يعمل ضدها ..

واجه أهل البلاد رقاع الكفر برقاع تنال من الإمام ، وتنعته بأقبح الصفات . واجه أعوان الزوزنى ـ فى المقابل ـ من صادفوه من الخواص والعوام بين أن يدخلوا فى دعوتهم أو يقتلوا . وقتلوا بالفعل كل من جاهر بالرفض ، أو لاذ بالصمت ..

أضمر الحضرة الانتقام من أهل البلاد . أثاره أن يناوئوه العداء ، وينبذوا الطاعة ، ويرفضوا الامتثال لسجلاته وأوامره . خطط ، ودبرّ ، وعهد بالتنفيذ إلى مقدمى العبيد وغيرهم من قادة الطوائف الموالية . أباح لهم قتل جميع الرجال فى الأحياء التى يخضعونها . يجرى عليهم ما يجرى على الخونة والخارجين عن الإرادة الإلهية ، التى يمثلها أمير المؤمنين ..

أخذ العبيد للأمر عدته . توفروا على حياكة شباكهم ، وتنظيم أنفسهم ، وادخار المبادرة . تجمعوا ـ يصحبهم النهابة ـ لمهاجمة مصر , واتخذوا هيئة العصابات ..

روّع أهل مصر ، وتولاهم الخوف ، وتوقع المجهول . استعدوا للدفاع عن أنفسهم . أغلقوا دورهم وحوانيتهم ، وحفروا دونها الخنادق ، وتهيئوا بالسكاكين والبلط والهراوات والسيوف والخناجر وأسياخ الحديد . لاذ الكثيرون بباحات المساجد والزوايا ، وأروقة الربط والتكايا ، وأمضوا أيامهم فى الجوامع ، وناموا فى الساحات والخلاء ، خوفاً من أن يقتحم العبيد والجنوج بيوتهم . وعلت الاستغاثات بالإمام ومراحمه .

بدأت إغارات العبيد والنهابة ، وتواصلت ، على أحياء مصر والقاهرة . خطفوا العمائم ، تلاعبوا بالرماح والسيوف ، وهم يرمحون بالخيل فى الشوارع المزدحمة . لا يشغلهم من يسقط ، ولا من تدوسه حوافر الخيل . نهبوا الدور والمحال والأسواق والمارة ، وكل ما تصادفه أيديهم . حطموا أبواب المحال المغلقة ، ونهبوا ما بها من بضائع . حملوا النساء ـ عاريات ـ من داخل الحمامات العمومية ، ومن داخل البيوت . استباحوا الأموال والدماء . تعددت جرائم الاعتداء على الأعراض ، وشق العبيد فروج النساء ، وبقروا البطون ، وقطعوا أصابع القتلى لانتزاع ما بها من خواتم ، وانتزعوا الأقراط من الآذان . وقال أحد الأشراف العلويين للخليفة فى مواجهة :

ـ أراك الله فى أهلك وولدك مثل ما رأينا فى أهلنا وأولادنا ، فقد أطرحت الديانة والمروءة بأن رضيت لبنات عمك بمثل هذه التضحية ، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيرة

فوت أمير المؤمنين جرأة الرجل بما لم يكن يفعله فى ظروف مغايرة . قال:

ـ أنت أيها الشريف محرج . ونحن حقيقون باحتمالك ، وإلا غضبنا عليك، وزاد الأمر على الناس ..

قال الرواة إن أهل مصر أقدموا على فعل قبيح ، كان هو الدافع لأن يأمر موظفو الإمام عرفاءه ومقدميه بإحراق المدينة ، ونهبها ، والفتك بأهلها : اعترضت موكب أمير المؤمنين امرأة فى يدها رقعة بظلامة . تناولها الإمام . قرأ ما فيها من الشتم والسباب . فوجئ الجند بأن المرأة التى هموا باعتقالها ، هى تمثال من الورق المقوى ، ألبس ثوب امرأة . تملك الغضب نفس الإمام . أصدر متولى الديوان أمره بإحراق المدينة فى مشهد يتذكره من يبقى من أهلها ..

أهمل متولى الديوان ـ بتدبير ـ ما رفعه الناس إلى مقام الحضرة من استغاثات . أمر العبيد بالتصدى لأفعال الشر . استعد العبيد للأمر ، فجمعوا الخيل ، وأعدوا السلاح ، ونسجوا الدروع والمغافر ، وضربوا السيوف والأسنة . ثم أحاط العبيد والترك والمغاربة والنهابة بمصر الفسطاط فى وقت معلوم . اقتحموا ، ودمروا ، ونهبوا ، وضربوا ، وقتلوا المئات من الأهالى . لم يلقوا أحداً إلا قتلوه ، سواء كان رجلاً أم امرأة أم طفلاً . خارت قوى الناس ، وتخاذلوا فى أنفسهم ، ولانوا بالفرار . ما نجا منهم إلا من لحق بتلال الدراسة . صلبوا من تصدى لهم بالشوم أو بالهراوات . أحدثوا من السلب والنهب والاغتصاب والحرق والتخريب والتدمير والتلف ما كثر ، بحيث لا يعرف له قيمة . أضرموا النيران فى دور الناس ومحالهم . طرحت النيران فى معظم الشوارع والدروب والعطوف والدور . امتدت الحرائق بما لم ير مثلها . كلما هدأت النيران فى ناحية ، شبت فى ناحية أخرى . دمرت حارات برمتها . تهدم الكثير من الدور والمعاهد والآثار الجميلة . اندثرت بنايات ومخازن وخانات وحمامات . عجز الناس عن إطفاء النيران بوسائلهم القاصرة . غلبت مناظر الأطلال الدارسة . دافع الناس عن أعراضهم ونسائهم ومدينتهم وبيوتهم . لم يتراجعوا شبراً بغير مقاومة . اندس فى زحامهم الزعار واللصوص والعيارون والحرافيش ، وثبوا بالكثير من بيوت وزراء الحضرة ، فأصابوها ، ونهبوا ذخائرها . قتلوا من عبيد الإمام مثل ما قتل منهم العبيد ..

ظلت المعارك ثلاثة أيام . أوقع العبيد فى سكان مصر الفسطاط ما يصعب حصره من القتل وإراقة الدماء والسفك والعبث والنهب والسرقات وعموم الخراب . قتلوا كل من التقوا به . لم يفرقوا بين الغوغاء والحرافشة ، وبين العلماء والعباد والزهاد . لم يتركوا متجراً إلا سلبوا ما فيه ، وأخذوا ما فى الدور من أثاث ومؤن ، وهدموا المشاهد ، وهاجموا الأسواق والحمامات

والخانات والقياسر . امتدت أيديهم إلى أخذ النساء فى الطرقات ، وكبسوا على الدور ، واختطفوا النساء . حتى دكاكين الوراقين والنساخين ، نهبوا مخطوطاتها ومجلداتها وما بها من أوراق . عملوا من أغلفة المجلدات أحذية ونعالاً ، وألقيت الأوراق فى الساحات والخرابات ، وأشعلت فيها النيران . حلقوا لحى من صادف طريقهم من العلماء والفقهاء والزهاد ..

لزم الحضرة القصور الفاطمية . لم ينزل إلى الطريق إلا بعد أن غلبت كفة العبيد على كفة أبناء البلد . حذّره متولى الشرطة خوفاً عليه من أذى الناس . ذكّره بالمصير المؤلم الذى لقيه كبار موظفيه . من يقع فى أيدى الناس الغاضبين ، ينهالون عليه بما فى أيديهم من سيوف وشوم وعصى ومساوق وخناجر ..

لم يعد أمير المؤمنين ينزل من القصور الفاطمية إلا برأى متولى الشرطة . تحوطات الأمن تسبق ما عداها . حتى صلاة الجمعة ربما يؤديها ظهراً ، امتثالاً لملاحظات الأعين ، ونصائح متولى الشرطة . وأكثر من استعمال الحراس الشخصيين الذين يتصدون لمحاولات الاعتداء عليه ، وتلقى الأذى بدلاً عنه ..

ثم خرج أمير المؤمنين فى موكب يسبقه ، ويحيط به ، ويتبعه ، من الجند والخواص والخدم والعبيد ..

أكلت النيران معظم أرجاء المدينة ، وقتل الكثير من أبنائها ، وقتل الكثير من عبيد الإمام كذلك . قيل إن الإمام ظل يركب كل يوم إلى الجبل ، يشاهد تعالى ألسنة النيران ، وينصت إلى صراخ الأهالى . يسأل فى هيئة من لا يعرف حقيقة الأمور : ماذا يجرى ؟.. يبلغه الناس بحقيقة ما يجرى . يبدى الأسف والتألم : من أمرهم بهذا لعنهم الله ؟!

فى اليوم الرابع ، لاذ خاصة الناس وعامتهم بالجوامع . رفعوا المصاحف ، وضجوا بالبكاء والدعاء ..

توقف الأتراك والمغاربة ، وظل العبيد فى اعتداءاتهم . أغلقوا أبواب الجوامع ، حتى لا يلوذ بها الناس . فر المئات من الأقباط إلى أديرة الصحراء للنجاة بأنفسهم ..

اضطربت الأحوال ، واشتدت النزاعات بين طوائف العسكر . تزايدت أعداد العبيد فى عهد الإمام الحاكم بأمر الله . تناسى المغاربة والمشارقة صراعاتهم القديمة ، واتحدوا ضد العبيد . شارك الأتراك والمغاربة أهل البلاد رد اعتداءات العبيد ، وطلبوا إلى الإمام أن يأمر بإيقاف أفعال العبيد الشنيعة . قالوا إن لهم بين المصريين كثيراً من الأقارب والأصهار والأملاك . أجاب أمير المؤمنين مطلبهم ، لكن متولى الديوان أوعز إلى العبيد أن يواصلوا القتال ..

احتدمت المعارك بصورة لم يسبق لها مثيل . شارك الأتراك والمغاربة أهل مصر دفاعهم عن أنفسهم . هددوا الإمام ـ إن لم توقف الاعتداءات على أهل مصر ـ باقتحام القاهرة وإحراقها ..

أمر الإمام عبيده بالتزام السكينة ، والتشتت . علت أصوات الناس بالتهليل والتكبير والدعاء والصياح ..

أصدر الحضرة سجلاً يعتذر فيه لوجهاء البلاد وزعماء الأتراك والمغاربة ، ويدين ما حدث ، وأصدر سجلاً لأهل مصر ، قُرئ فى الجوامع والأسواق ، وعلق على جدران المساجد ، وعلى الجامع العتيق بمصر ، من داخل الجامع وخارجه ، وعلى أبواب الحوانيت والدور والقيساريات . يطالب فيه الحضرة أهل مصر والقاهرة باحترام أمير المؤمنين ، والامتناع عن سماع الترهات ، والتدخل فيما يقوم به ، ودعاهم إلى ترك الخوض فيما لا يعنيهم ، والمبادرة إلى الإيمان فى أوانه ، والاشتغال بالصلوات فى أوقاتها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونعى عليهم ترك التشاغل بعيوب أنفسهم ، واعتراضهم عليه فيما يفعله ، ووبخهم على مخالفتهم إياه فيما قصد بهم إليه ، مما يعود

عليهم بالقرب إلى باريهم ، ومجاهرتهم له بما أتوه من الخطايا ، وتظاهروا به من البدع ، وتوعدهم بعقوبات يوقعها عليهم ، ما لم يصنعوا الخير ، ويعمدوا إليه ، ويذروا الشر ، ويسلموا أمرهم إلى أمير المؤمنين ، فلا يخوضوا فى أحواله وأوامره . وشدد على عدم معارضة أمير المؤمنين فيما يفعله ، أو يصدر عنه من الأوامر والأحكام . وحذر من يسيئون فهم صبر الإمام أنه سيقتفى آثارهم ، ويسبى نساءهم وأولادهم ، ويصادر أموالهم ، وحينئذ يطلبون ناصراً فلا ينصرون .

قال الرواة إنه إذا كان الحاكم قد ركب فى أثناء الحريق ، فإن ما حدث تم بغير علمه . وهو قد لعن العبيد ، وأظهر التوجع لآلام أهل مصر ، وشدد على جند الإطفاء لإغاثتهم . غرم أمير المؤمنين للناس ما نهب لهم ، وقبل تعويضهم عن كل ما سلبه العبيد منهم . أعاد قول أبيه لعمه حيدرة : " أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى " .

## - ٢٣ -

ذكر رواة الأخبار أن التبشير بالألوهية ظل مستمراً . لم يتوقف حتى الاختفاء السرى للحاكم ..

أسرف الزوزنى فى طرق الحديد الساخن ..

قال إن أمير المؤمنين ليس مجرد إمام . إنه إله لا شأن له بالترتيب الهرمى على الأرض . ذكر أنه ظهرت له فضائل لم يُسْمع بمثلها ، ومعجزات بهرت العقول ، وآيات لا يشك فيها إلا أهل الزيغ والارتياب ، فغلا فيه صلى الله عليه من غلا ، وسفل بذلك من حيث ظن أن العكس هو ما حدث ..

دعا إلى عبادة الحاكم الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن الأزواج والعدد .

ودعا الناس إلى أن يسلموا أرواحهم وأجسادهم وأموالهم وعيالهم وجميع ما يملكونه للإمام الحاكم جل ذكره ، له الكمال والقدرة المطلقة على التصرف ، يعطى ويحجب ، ينفع ويضر ، يعز ويذل ، يعفو ويعاقب ، يحيى ويميت . وتحدث عما يعد به الحضرة من أنهار اللبن والعسل والحور العين والنساء اللائى تتواصل فى أحضانهن النشوة ، والحقول المحملة بالثمار ، والأشجار المتعددة الألوان ، الممتدة بلا انتهاء ..

أسدل أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على باب حجرة اعتكافه حجاباً ، وطالب وزراءه أن يخاطبوه من ورائه ...

قال كاتب الدست الشريف :

ـ صارح مولانا أمير المؤمنين خواصه برغبته فى أن يعتزل ..

بحلق حمزة الزوزنى عينيه :

ـ لماذا ؟

ـ يتهم نفسه بالإساءة إلى الناس دون قصد ..

شوح الزوزنى بيده :

ـ لا يمكن .. لا يمكن ..

ـ ٢٤ ـ

شق قاعة الدواوين . دخل من الباب الذى يجلس فيه الخاصكية ( خدم الخاص ) ، ثم عدل منه إلى القصر الملاصق للقصر الفاطمى الصغير . يخلو من النوافذ ، فيما عدا كوات صغيرة تطل على الصحن الداخلى . فى وسطه فسقية ونافورة . خيم السكون على قاعات القصر وأبهائه ، يعمق وقع قدميه . أهمل النظرات المتسائلة ، والقلقة ، والخائفة ، يتسلل بها إليه من يفاجأ بأمير المؤمنين من الجوارى والعبيد والخدم ..

دخل على أمه بعد طول غياب ..

تحركت فى نصف قومة على فراشها . مسحوبة الوجه ، مكحولة العينين. عقدت حول رأسها عمامة رصعت بالجواهر والدر ، تدلى منها جزء صغير خلف الرأس ، وفوق كتفيها شال من الكشمير ، والتفت برداء أبيض ، فضفاض ، منقوش بزهرات صغيرة ملونة ، ومنمنم بالذهب . على الأرض بساط من جلد أسد . وثمة ـ على الجانبين ـ أصص الورد والزهور والتحف والجوهر والطرائف وآلات الذهب والفضة ، والزخارف على الجدران ، وحزم النور تتسلل من منافذ تكعيبة العنب التى غطت واجهة الشرفة المطلة على الباحة الداخلية للقصر ..

أشار إليها أن تظل فى موضعها :

ـ غبت عنك أياماً طويلة ..

استطرد للدهشة فى ملامحها :

ـ سأظل الابن الذى يحبك ويهمه رضاك ..

تأملته بعينين متوجستين :

ـ هل تخرج لقتال ؟

ـ قضيت على أبى ركوة دون أن أغادر أبواب القاهرة ..

ـ ماذا تخفى عن أمك إذن ؟

كتم تهيؤه للبوح بشعوره من أن هذه الزيارة لها ربما تكون الأخيرة . يخرج فلا يعود . تبتلعه الظلمة إلى غير نهاية . بدت المؤامرات سيوفاً ، وخناجر ، وقمة جبل تقف على حافتها قدماه ..

وهو يغالب تردده :

ـ ربما لا نلتقى ثانية ..

تصاعد مد القلق فى داخلها :

ـ تؤكد حدسى أنك تخفى شيئاً ..

فى نبرة مهونة :

ـ يا أمى .. لا أحد يملك وصل أنفاسه ..

غرست نظرتها فى عينيه :

ـ صارحنى بما تخفيه ..

وهو ينحى وجهه عن اتجاه نظرتها :

ـ صارحتك بمشاعر تشغلنى ..

لم يعد لزوجاته إلا وجود الجسد داخل القصور الفاطمية . قضى بعزل كل واحدة فى موضع مستقل ، توقياً لما ينشأ بين الضرائر ـ عادة ـ من غيرة، ومحاولات للاستحواذ على ما تعجز عن بلوغه الأخريات . يستقبلنه ـ متى أراد ـ وينجبن الأبناء . لا رأى لهن ولا مشورة . حتى الأسئلة يكتمنها فى الصدور . حتى الجوارى يخضعن لأوامر القهرمانة . تنصت إلى ما يمليه الحضرة . تنقله إلى الجوارى ، فينفذنه بلا أسئلة .

ـ لا أخاف على زوجة العزيز بالله وأم منصور ..

وأردف فى لهجة مشاركة :

ـ وإن كنت على ثقة أنه ليس أضر عليك من ست الملك !

شهقت بعفوية :

ـ أختك !

أهمل انفعالها المتحير ، وقال وهو يدفع لها بمفتاح فى حجم قبضة اليد:

ـ على فى هذه الليلة وفى غد قطع عظيم . والدليل عليه علامة تظهر فى

السماء طلوع نجم سماه ، وكأنى بك وقد انتهكت وهلكت مع أختى .. فإنى ما أخاف عليك آخر منها . فتسلمى هذا المفتاح ، فهو لهذه الخزانة ، وفيها صناديق تشتمل على ثلاثمائة ألف دينار . خذيها وحوليها إلى قصرك ، تكون ذخيرة لك ..

نطق الخوف فى عينيها :

ـ ماذا تخفى عن أمك ؟

ـ ما كنت أخفيه .. قلته الآن !

## ـ ٢٥ ـ

طال غياب أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله .

لماذا اختفى ؟ وأين ؟..

لا أحد يدرى !

عندما قيل للشيخ عطاء الله إمام الجامع العتيق : كل الدلائل تشير إلى أنه قد اغتيل .. هز رأسه بالنفى ..

علا السؤال :

ـ تخمينات ؟..

ـ ربما .. فلا يوجد ما يؤكد اغتياله ..

قال عبد المقصود السحار التاجر بسوق القناديل :

ـ ألم يجدوا شيئاً من متعلقاته ؟

قال المزملاتى حمزة رواس :

ـ ثيابه ملطخة بالدماء ..

قال الشيخ عطاء الله :

ـ ليس دليلاً .. ورفض أعوانه تصديق وفاته .. انسحب ـ في رأيهم ـ من العالم ، ليظهر في اللحظة المناسبة من جديد وهو يحمل اسم المهدى ..

خيبة الأمل في من اختارهم الإمام لمعاونته ، فأساءوا التصرف ، أغضبته حتى الاختفاء . حاول ـ وحمد الناس صنيعه ـ أن يعدل الأوضاع المائلة ، ويعيد الحقوق إلى أصحابها ، ويفرض العدل . ثم آثر ـ حزناً ، أو زهقاً ، أو ألم ضمير ـ أن يختفي من حياة البشر ، يستعيد ما كان ، يخلو إلى تأملات وأدعية و إلى الخلاء والخفاء ، وهو ما كان يفعله في أيام وجوده بينهم ..

قال رواة الأخبار إنه أعاد تصحيح الأمور ، فعزل وولّى وسجن ونفى ، ولم يعد أمامه سوى أن يتيح الفرصة ـ كما أبلغني الرواة ـ لمن يحظى باختيار الناس ، فيتولى الحكم من بعده ..

عاد إلى نفسه من تصور الربوبية ، وإن ظل على يقينه بأن الستر أمر مقرر من الله . حكمة إلهية يستحيل نقضها ..

اختار حياة العزلة فراراً من دعوى التأله التي أجاد الزوزني نسج خيوطها . أشفق على نفسه من غلو الزوزني فيه ، والقول بما لم يقله الإمام في نفسه ، وبما لم يحدّث به الزوزني أو سواه ، وتبرأ إلى الله مما نسبوه إليه ، وأجروه على لسانه ..

شدد ، فلا يؤذن لأحد بالدخول عليه . يجلس ـ منفرداً ـ في مكان مغلق . لا توقد فيه الشموع بالليل ولا بالنهار . ربما جلس في الظلمة ، وقد يتجه إلى الخلاء ، أو يصعد إلى جبل المقطم ، يطلب سكينة النفس ، وصفاء الروح. يعشق السر والغموض والخفاء والستر وعبق البخور وأجواء السحر..

لم تعد المخلوقات الغريبة تظهر في الليل وحده . تطالعه في النهار مثلما

تطالعه فى الليل . ألف رؤية الأشباح والأرواح تتراقص من حوله ، فلم تعد تخيفه ..

زاد من شعوره باللامبالاة أو بالتحدى أن الأشباح والأرواح لم تعد تفرق - فى ظهورها - بين ليل ونهار ، ولا بين نور وظلمة . حتى لو اعتزل فى قصره ، فلن تبتعد الرقصات المجنونة عن عينيه . يداخله شعور بالتحدى لاقتحام الظلمة . هو الشعور نفسه الذى انتصر به على ابن عمار وبرجوان والنعمان وست الملك . حتى أمه مزق الإطار الذى ظلت تضعه فيه . هو الحاكم بأمر الله ، يحكم بأمر الله ، وليس بأمر وزير ، ولا أمير ، ولا أخت ، ولا بشر . ما يراه صواباً يفعله . لا يأخذ رأياً ، ترك شعر رأسه ، حتى انسدل على كتفيه، وأطلق أظافره . خلت المراسيم والسجلات - قبل اختفائه - من أوامر قتل نصرانى ، أو اعتقاله ، أو مصادرته ، ولم يعد يغادر بيته فى احتفال يتقدمه الجند ، ويحيط به ، ويتبعه ، الخدم والعبيد ..

تحدثت روايات عن الوزراء والأمراء الذين أجبروا الإمام على الاختفاء ، وأنهم يعرفون مكانه ، ويريدون - بسربلة الغموض - أن يفيدوا من هذا الاختفاء فى رسم السحر والأسطورة ..

وقيل إنه قبض على رجل من بنى حسين بالصعيد ، أقر بأنه واحد من أربعة قتلوا الإمام وفروا ، فقبض عليه ، واختفى الثلاثة الآخرون ، وأظهر الرجل قطعة من جلد رأس الحاكم ، وقطعة من العمامة التى كان يلف بها رأسه ..

سئل :

- لماذا قتلت الإمام ؟.

قال :

- غيرة لله وللإسلام ..

قيل :

- كيف قتلته ؟

أخرج سكيناً ضرب بها صدره ، فمات لتوه ..

وقالت روايات إن ست الملك هى التى دسّت للخليفة الحاكم بأمر الله رجلين اغتالاه فى جولته الليلية بتلال المقطم ، وأخفيا أثره . علاوة على ادعائه الألوهية ..

أضاف إلى نقمتها عليه ما أثاره حولها من تشنيعات وأكاذيب ..

وعدت ست الملك الحسين بن على بن دوّاس الكتامى - إذا غيب الإمام - أن يكون صاحب الجيش وشيخ الدولة والقائم بها ، وتوقع له بولاية السيارتين ، وهى حماية مصر ، وتمنحه الأموال والخلع والإقطاعات الواسعة..

كان ابن دواس قد انتوى الانتقام من الإمام . قضى على ثورة أبى ركوة ، فأسرف - بعدها - فى الشدة مع المغاربة . تغطى برداء الحريم . فلا يراه أحد فى زيارته للقصر الصغير ، ووسع لها خدمها الطريق إلى بيته ، فلا يراها أحد وهى تدخله . فى بالها ما يتهمها به منصور من عشاق يتناوبون لقائها ..

استقبلته ست الملك بمفردها إلا من الجارية خيرات . ذهبت ست الملك - فيما بعد - إلى داره - ليلاً - وهى متنكرة . لم يصحبها خصى ولا جارية . حتى الجارية خيرات ظلت فى القصر الصغير . حين دخلت عليه قبل الأرض بين يديها ، وأخلى المكان . استحلفته ست الملك ، واستوثقت منه ..

رنت إليه بنظرة محرضة :

- أنت تعلم ما يقصده أخى بك ، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك ، وكذا أنا ..

وفى صوت خنقه التأثر :

ـ لقد ادعى الألوهية ، وهتك ناموس الشريعة ، وناموس آبائه ، وزاد جنونه ..

وتأملت الحماس الملتمع فى عينيه :

ـ أخاف أن يؤدى ذلك إلى أن تنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء ..

وعدت ابن دواس ـ لقاء تدبيره قتل الإمام ـ أن تكل إليه قيادة الجيش ، لا فرق بين زويلة ولا كتامة ولا برقية ولا مصامدة ولا صنهاجة ، تختلط طوائف الجند المغاربة والأتراك والأكراد والأرمن والسودان والمعز والديلم . تلغى المعسكرات ، أو الحارات التى تستقل فيها كل طائفة . ألقت على كتفى ابن دواس عبء تدبير المؤامرة وتنفيذها ، فهو يجيد نسج الدسائس وتدبير المكائد ..

عهد ابن دواس بالأمر إلى عبدين يثق فيهما . خرجا وراء الإمام فى جولته المسائية . ركب الإمام حماره الأشهب ، وخرج إلى الجبل لرصد النجوم ، عادته التى ألفها منذ أعوام بعيدة ..

مضى إلى جبل المقطم من درب السباع . واصل التوغل فى شعب المقطم حتى اختفى ، واختفت جثته ، وإن عثر الجند على حماره بالقرب من بركة حلوان ، وقد قطعت ساقاه الأماميتان ، بينما ثياب الإمام الملطخة بالدماء ملقاة فى قاع البركة ..

حمل العبدان الجثة إلى ست الملك ، فدفنتها فى مجلسه ، وكافأت ابن دواس والعبدين . آخر ما تلقاه العبدان من أوامر ، قتل الإمام فى تلال المقطم ، أو خلاء الدراسة . وكان آخر وجودهما فى الدنيا . أمرت ست الملك بقتلهما ، عقب مثولهما بين يديها ، لإبلاغها بما فعلاه ..

قيل إن الجارية خيرات وضعت له السم فى الطعام . ولاؤها لست الملك

دفعها إلى تنفيذ ما أمرتها به دون أن تناقشه ، ولا أن تتدبر خطورته . حمد لها الطباخ أنس عبدون إقدامها على معاونته . تكررت رؤيته المغضية لها فى ترددها على مسعود . غسلت الأطباق والأكواب ، وقشّرت الخضراوات ، وقطعتها ، وقطعت اللحم ، وقلبت الطعام فى الأوعية . لحقته بالملح والسكر والفلفل الأسود والحبهان ، وغيرها مما نطق به . وضعت السم فى الوعاء لحظة انشغاله ، وعادت إلى ما كان فى يدها ..

قال الرواة إن ست الملك غالبت التردد قبل أن تأمر بقتل الخليفة . هو أخوها الذى ربته ورعته ، لكن النهاية - التى لا تريدها - بدت ماثلة فى الأفق: يزول حكم أبى منصور ، ويزول حكم الفاطميين ..

نقلت إليها خيرات ما نقل عن الزوزنى إن عبد الرحيم إلياس ليس ولياً للعهد ، لكنه ظل الإله على الأرض ، بهديه يعمل ، ويواصل ما بدأه ..

قالت ست الملك :

- هو يعرف أن هذا الاختيار ضد العقيدة الإسماعيلية .. هذا الرجل يضيّع كل شىء ..

ثم من بين أسنانها :

- لابد من تصرف .. لابد من تصرف ..

فضلّت ست الملك أن يغيب أخوها بدلاً من أن يغيب عرش الفاطميين كله، وأنقذت البلاد . وقيل إن اثنين من عوام الناس قتلا الإمام دون أن تعلم ست الملك بذلك . وقيل إن قتلته نفر من البدو لا يعرفون من هو . وقيل إنه إذا كان قد دفع حياته ثمناً لما فعل ، فلأن الإنسان لا يحصد إلا ما بذر ..

قال الرواة إن الشيخ مصابيح طالع الخليفة الحاكم بأمر الله ، على ناصية الطريق المفضى إلى جبل المقطم . كان يحيط به أعوانه - ما يقرب من العشرين ، يحملون المقارع والشوم ، ويبدو من سحنهم وثيابهم أنهم ينتمون

إلى الشطار والحرافيش . كان الإمام يرافق الظلمة والصمت فى طريق تأملاته الليلية ، لما أحاط به الشيخ مصابيح وأتباعه ، دون أن يتيحوا له فرصة امتشاق سيفه ، أو الفرار ..

قال الشيخ مصابيح :

ـ أهلاً بالإله الحاكم بأمره ..

هتف بشعور المفاجأة :

ـ من أنت ؟ من أنتم ؟

كانت الثمرة قد نضجت تماماً . لم تعد تطلب إلا اليد التى تقطفها ، السيف الذى يطيح بها . هو قد اختار العزلة ، فراراً مما أوقع فيه نفسه من الشر . لا يتصل بأحد ، ولا يتصل به أحد . زاد تأثير العزلة على ذهنه، فلم يعد قادراً على تقييم الأمور تقييماً صائباً . حتى خواصه ومن كانوا حوله . من زينوا له تصرفاته ، أو حرضوه عليها . أبعدهم بخوفه . هو يخاف مما قد يدبرونه له .

قال الشيخ :

ـ عبدك مصابيح ..

علا حاجباه بالتساؤل والدهشة :

ـ الشيخ مصابيح ..

ورمقه بعينين متفحصتين :

ـ هل أنت ؟

ربت الشيخ مصابيح صدره بيده :

ـ هو أنا ..

بدا شخصاً آخر غير الذى اعتاد الناس رؤيته فى الأعياد والأسواق ، وعلى منابر الجوامع . غاب الشرر عن العينين . حل تذلل واستكانة ، وارتجفت شفتاه بما لا يعلو به صوته من الكلمات . أضاف إلى تواضع هيئته ما كان يرتديه من ثوب خيش أبيض ..

قال فى تذلله :

ـ لكننى أحكم بأمر الله ، ولا أحكم بأمر نفسى ..

قال الشيخ مصابيح :

ـ الله هو الذى لا يسأل عما يفعل .. يحيي ويميت ، ويفعل ما يشاء . هذه إرادته ، ولا راد لقضائه ..

أطال تأمله بعين باردة :

ـ أليس ذلك هو ما تفعله ؟

وهو يغالب شعوراً بالعجز :

ـ من يخطئ يعاقب . العين بالعين ، والسن بالسن ، والحياة قصاص ..

هز الشيخ سبابته فى وجهه :

ـ إذن فأنت ترى أن الخاطئ لابد أن يعاقب ..

وأشار إلى أتباعه . انهالوا على أمير المؤمنين بالمقارع والشوم ، وهو يحاول أن يتقى الضربات بيديه ، حتى تعالت حشرجاته ، وسكن فى موضعه . ثم سكنت أنفاسه تماماً ..

الزوزنى ـ وحده ـ نفى قتل الإمام . لقد اختفى . أغضبه ما اقترفت أمته من الشرور والمفاسد ، فاختفى . رفع إلى السماء . لن ينزل الأرض إلا عندما تأتى الساعة . ينشر العدل والمساواة ..

بدا أميل إلى الصدق ما رواه آخرون أن الإمام الحاكم زهد فى الحكم ، واختفى ، فراراً من تبعاته ..

غادر القصر في ليلة غاب فيها القمر ، وتكاثفت الظلمة . لم يحاول أن يتصل بأحد ، ولا أن يبلغ أحداً بما اعتزم أن يفعله ..

امتدت سرحاته - في الفترة الأخيرة - إلى خارج القاهرة . لم يتصرف بخشية من أنه يترك المدينة التي يقتصر سكناها عليه ، وعلى أسرته ، وجنده ، وخواصه . مضى - دون حراسة - في الدروب والطرقات ، بين الدور القصيرة ، المتلاصقة . اللثام على وجهه يصرف الأنظار عنه ..

لم يصدق الناس أن الإمام زهد في الحكم ، وقرر التخلّي عنه . اختفى الإمام الحاكم بأمر الله ليرتفع إلى السماء ، فلا يعود إلاّ آخر الزمان . يرى من موقعه الذي لا يراه أحد ، تردد الناس على الأماكن التي ربما لجأ إليها . أفعال سابقة ، بما يعيشونه ، بالتوقعات . الموضع الذي زاره مرات ، أو مرة واحدة ، أو يخمّنون أنه قد يؤثر الاختفاء فيه ..

أمر كاتب الدست الشريف الجند ، فهم لا يتركون مسجداً ولا بيتاً ولا خانقاه ولا ساحة ولا شارعاً خلفياً . جابوا شوارع مصر والقاهرة . أطالوا تأمل المارة في الأسواق . وفي داخل الجب الذي كان يقضي فيه خلوته . مضوا خارج القصر إلى شوارع وعطوف ودروب ، يظن أنه قد سار فيها . حتى الخلاء الذي ربما لاذ بأفقه . توقفوا عندما قهرهم الخوف من أن يبتلعهم الأفق ..

وقال أعوان الزوزني إن المعجزة على وشك الحدوث ، وأن أمير المؤمنين الخليفة الحاكم بأمر الله سيعود إلى الظهور ، ليعيد إلى الدنيا ما غاب عنها من العدل والإنصاف ، ويميت الظلم ، ويرد كل شئ إلى حقيقته البسيطة . اتخذ من الخفاء منفى اختيارياً ، لا يغادره إلاّ عندما تحين اللحظة التي يختارها . تنقاد له الملوك ، وتتيسر الأمور ، وينتصر صحيح الدين ..

قال الرواة إن شاغل من قتلوا الحاكم بأمر الله كان قطع حلقات سلسلة

الخلفاء الذين لا تنعقد لهم بيعة ، ولا تصح لهم إمامة . لم يعرفهم أحد من علماء النسل . حالهم حال المرتدين والزنادقة . دولة العبيديين ليست علوية ولا فاطمية ، إنما خلفاؤها وأشياعهم من المجوس والباطنية . عطلوا الشرائع ، وأباحوا الخمر والفروج ، وسبوا الأنبياء ، وأدينوا بقتل أرباب القلم والعمامة ، وسعوا إلى الخراب والتدمير ، وأسرفوا فى إغواء الخلق ، وصرفهم عن ملة الإسلام ..

هذا ما أخبرنى به رواة الأخبار .

تمــت

# المصـــــادر

خطط المقريزي - إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزي - وفيات الأعيان وأبناء الزمان لابن خلّكان - إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي - نزهة الأرواح وروضة الأفراح للشهرزوري - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي - الأغاني للأصفهاني - المغرب في حلي المغرب لعلي بن موسي بن سعيد المغربي - نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري - كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة لابن مالك - ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها مصر ، التاريخ السياسي لعبد المنعم ماجد ـ مصر في عصر الدولة الفاطمية لجمال الدين سرور ـ الدولة الفاطمية في مصر : تفسير جديد لأيمن فؤاد سيد - التاريخ الفاطمي السياسي لإبراهيم رزق الله أيوب - التاريخ الفاطمي الاجتماعي لإبراهيم رزق الله أيوب - نظم الفاطميين ورسومهم في مصر لعبد المنعم ماجد - حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين لراشد البراوي - الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد الله عنان - في أدب مصر الفاطمية لمحمد كامل حسين . الحاكم بأمر الله الخليفة المفتري عليه لعبدالمنعم ماجد - فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس محمود العقاد - الموجز في تاريخ المهدية للطيب الفقيه أحمد - الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي لمحمد حمدي المناوي - أصل الموحدين الدروز لأمين طليع - الفاطميون في مصر لحسن إبراهيم حسن:

J , Jomier : Le Mahmal Et La Caravane Egyptiene Des Pelerins De La Macque

روايات الهلال تقدم

# خيـــال الظـــل

تأليـــف
جـــورج ســـيمينون

ترجمـــة

د . حمـــادة إبراهيـــم

تصدر : ١٥ يونية ٢٠٠٣

# أحـــــدث إصـــــدارات روايات الهـــــلال

| العدد | اسم الرواية | المؤلف | التاريخ | الثمن بالجنيه |
|---|---|---|---|---|
| ٦٤١ | المعبر | زياد عبدالفتاح | مايو ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٢ | أسرار حميمة | نوريا أمات | يونيه ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٣ | أوان القطاف | محمود الوردانى | يوليو ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٤ | حالة مستعصية | سعيد سالم | أغسطس ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٥ | صهاريج اللؤلؤ | خيرى شلبى | سبتمبر ٢٠٠٢ | ٧,٠٠ |
| ٦٤٦ | حلم ليلة أفريقية | سبريان إكوينسى | أكتوبر ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٧ | ليلة عرس | يوسف أبو ريه | نوفمبر ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٨ | رجل أبله امرأة تافهة | محمد ناجى | ديسمبر ٢٠٠٢ | ٥,٠٠ |
| ٦٤٩ | ريحانة | ميسون صقر | يناير ٢٠٠٣ | ٧,٠٠ |
| ٦٥٠ | اغتيال | أميلى نوتومب | فبراير ٢٠٠٣ | ٥,٠٠ |
| ٦٥١ | كائنات محتملة | محمد عزالدين التازى | مارس ٢٠٠٣ | ٥,٠٠ |
| ٦٥٢ | سواقى الوقت | سلوى بكر | أبريل ٢٠٠٣ | ٥,٠٠ |

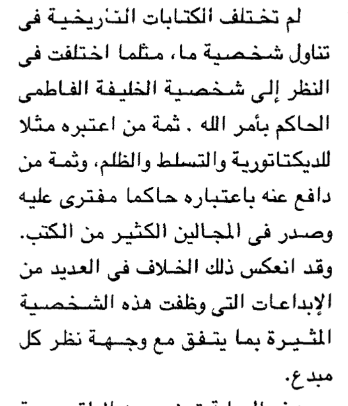
رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٧٨٧٠
I. S. B. N
977 - 07 - 0987 - 5



**محمد جبريل**

- من مواليد الإسكندرية عام ١٩٣٨.
- عمل بالصحافة منذ عام ١٩٦٠.
- عمل تسع سنوات رئيسا لتحرير جريدة الوطن العمانية.
- له حتى الآن ٢٢ رواية، بعضها يتناول الحياة في منطقة بحرى مثل «رباعية بحرى» و«الشاطئ الآخر» و«النظرة إلى أسفل» و«قاضى البهار ينزل البحر» و«زمان الوصل» و«نجم وحيد فى الأفق».
- وله إنتاج مميز يستلهم فيه التراث المصرى والعربى مثل «أوراق أبى الطيب المتنبى» ، «إمام آخر الزمان»، «قلعة الجبل»، «زهرة الصباح» .
- ترجمت بعض رواياته ومختارات من قصصه إلى الأنجليزية والفرنسية والألمانية والماليزية.

## هذه الرواية



لم تختلف الكتابات التاريخية فى تناول شخصية ما، مثلما اختلفت فى النظر إلى شخصية الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله . ثمة من اعتبره مثلا للديكتاتورية والتسلط والظلم، وثمة من دافع عنه باعتباره حاكما مفترى عليه وصدر فى المجالين الكثير من الكتب. وقد انعكس ذلك الخلاف في العديد من الإبداعات التى وظفت هذه الشخصية المثيرة بما يتفق مع وجهة نظر كل مبدع.

هذه الرواية تمزج بين الواقعة التاريخية وفانتازيا الإبداع. إنها تعيد توظيف شخصية الحاكم وفق رؤية غير مسبوقة فهو ليس مجرد تعبير عن نفسية مريضة أو سوية، انعكست تأثيراتها الفردية على حياة الجماعة ، لكنه نتاج عصر وظروف وأعوان أجادوا صنع الحاكم الأداة، وحاولوا إخضاعه لإرادتهم وطموحاتهم.



أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة
أدبيات
الكعبة المشرفة
أحمد بهاء الدين
رجولة وعروبة .. قيادة وريادة
نساء الحرب
مواقف وبطولات ومعارك
فريد الأطرش
خاطرات على الورق
رفاعة الطهطاوى
هيكل اليهودى الثالث
جلال عبد الفتاح
Bibliotheca Alexandrina
0707204
طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢